د . عصمت سيف الدولة

التقدم على الطريق المسدود

رؤية قومية للمشكلة الفلسطينية

كلمة

هذه رؤى تتابعت مواكبة الصراع العربي الصهيوني ، منذ ابريل ١٩٧٠. انطلقت جميعها من موقف واحد هو الموقف القومي . ومن ذلك الموقف اختلفت عن رؤى كثيرة. يبرر نشرها ان رؤيتنا القومية كانت- منذ البداية- تنذر بأن النضال العربي ضد الغزو الصهيوني خاطىء في منطلقاته وفي اساليبه وان الاقليمية هي بؤرة الفشل. وكانت- منذ البدا ية أيضا- تحذر من الانخداع بالمكاسب المرحلية وبالتقدم على طريق مسدود. ولقد انقضت مرحلة تاريخية كاملة وارتطمت المسيرة بالسد الذي أقامته الولايات المتحدة الامريكية على طريقها الدامي. ونحسب الجماهير العربية قد عادت تتساءل: أين الطريق الصحيح؟ فان صح ما نحسبه فان نشر هذه الرؤى القومية قد يجنب أمتنا تكرار الاخطاء ويساعد جماهيرها على ان تضع اقدامها على طريق النصر.. الطريق الوحيد.. الطريق القومي.

د. عصمت سيف الدولة

" القاهرة "

مشكلة فلسطين

ا- منذ اكثر من نصف قرن تقوم في فلسطين محاولة لانتزاع الارض من البشر . بدأت اختلاسا خفيا ثم تحولت الى اغتصاب بالقوة. انها ليست احتلالا لفلسطين ارضا وبشرا تسخر به القوى المحتلة كلا من الارض والبشر لخدمة التقدم في بلادها البعيدة كما كانت تفعل انجلترا قبل سنة ١٩٤٨، ولكنها محاولة بدأت قبل الإحتلال الانجليزي واستمرت في ظله وما تزال باقية بعده، فيها

تحاول الحركة الصهيونية الاستيلاء على الارض " خالية " من الشعب العربي وتوطين بشر اخرين فيه بدلا من المطرودين . انها محاولة قريبة الشبه بما فعل المهاجرون الاوروبيون القدامى في امريكا واستراليا حيث أبادوا البشر ليقيموا على الارض الخالية مجتمعاتهم الجديدة.

وفي سنة ١٩٤٨ استطاعت الحركة الصهيونية ان تقيم على ارض فلسطين دولة باسم "اسرائيل"اعترفت بها أغلبية دول العالم وقبلت عضواً في هيئة الامم المتحدة ، ورفضت الدول العربية الاعتراف بها واشتبكت معها في ثلاث جولات عسكرية خلال عشرين عاما وما تزال اسرائيل باقية. وقد عاصرت تلك المشكلة ثلاثة اجيال عربية، تتابعت عليها النظم السياسية والاجتماعية المختلفة، و تغيرت من حولها الظروف الدولية، وفي كل جيل، وتحت كل نظام، ومع كل طرف دولي، طرحت للمشكلة عشرات التفسيرات، وقدمت لها عشرات الحلول، وبذلت في حلها عشرات المحاولات، وكتبت عنها مئات الكتب... فلا تزد المشكلة الا حدّة وان كادت كل تلك الاحداث و " الاجتهادات " ان تخفي الاجابة الصحيحة على اول الاسئلة التي تطرحها : ما هي حقيقة المشكلة؟

وجاءت هزيمة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ فازداد الامر تعقيدا.

فمنذ عام ١٩٦٧ جذب الصراع ضد الصهيونية الى ساحته افرادا وجماعات ومنظمات وشعوبا ودولا من اطراف الارض جميعا، بحيث يمكن القول- بدون أية مبالغة- ان كل القوى النشيطة في العالم أصبحت اطرافا ذات نشاط في الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين. وحمل كل طرف "قضيته"، معه، بعدا جديدا ومضمونا مضافا، الى ابعاد ومضامين المشكلة الاصيلة . وهكذا اصبح الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين دائرا بين اطراف عدة على مضامين متعددة من اجل غايات متباينة، تستعمل فيه كل انواع الاسلحة من اول الكلمات والنظريات الى اخر الصواريخ

والطائرات. ولم يعد احد يذكر حتى ذرائع القتال في يونيو (حزيران) ١٩٦٧. فقد عرّت الايام ما كان مستورا وكشفت نوايا كل الأطراف فبانت حتى لأقصر الناس نظرا الاعماق الحقيقية للصراع. فلا هو صراع حول أمن اسرائيل ، " المستضعفة " ، في مواجهة البغي العربي المتفوق عدة وعداء..، ولا هو صراع حول الملاحة في خليج العقبة، ولا هو صراع حول اسلوب الحياة في الارض العربية، بل هو صراع يدور– بلا موا ربة– حول ا لوجود والمصير. الوجود العربي ومصيره. والوجود الصهيوني ومصيره ، والوجود الا ستعماري ومصيره في الوطن العربي وربما في العالم. وهكذا يعرف كل الشركاء والحلفاء في الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين انه ذو أثر حاسم في مصير كثير من العقائد (الايديولوجيات) والقوى والمصالح والنظم ، العربية والصهيونية وربما العالمية. وانه عندما تحل مشكلة فلسطين لن يكون المستقبل العربي مجرد امتداد لما سبق بل سيكون مستقبلا مختلفا نوعيا في قواه وفي نظمه وفي غاياته، ومن هنا اصبح المستقبل " العربي ذاته، مستقبل الامة العربية كلها، موضوعا يدور من اجله الصراع بين القوى المشتبكة في الصراع حول مستقبل فلسطين. ويعد له كل شريك في الصراع، وكل حليف لاحدى قواه " الصيغة " ، التي تتفق مع مصالحه. ويدفع بالصراع ذاته الى الاتجاهات التي يعتقد انها مؤدية الى ما يريد. يدفع بالصراع الذي يدور حول مشكلة فلسطين الى الاتجاهات التي يعتقد انها مؤدية الى ما يريد في الوطن العربي . وليست " النظريات " ، التي كثرت اعلامها في سماء الوطن العربي منذ سنة ١٩٦٧ الا الصيغ النظرية لا لمستقبل فلسطين بل لمستقبل الامة العربية . وهي تطرح على الجماهير العربية لا بقصد تثقيفها أو تعريفها بالحقيقة كما لا بد يزعم دعاتها ولكن للاتجاه بالجماهير العربية من خلال الصراع القائم الى غايات نهائية معينة .

في غمار هذا كله يصبح من المهم لنا ان نعرف حقيقة مشكلة فلسطين، وان نظل واعين حقيقتها، والا نسمح لاحد بأن يضللنا عن هذه الحقيقة، فاننا لن نعرف قط الحل الصحيح لأية مشكلة اذا جهلنا حقيقتها، وعندما لا نعرف الحل الصحيح لن نحل المشكلة قط . ولقد نعرف ان " كل مشكلة اجتماعة لها حقيقة واحدة مهما اختلف فهم الناس لها و بصرف النظر عن مدى ادراك صاحبها لحقيقتها. وان اية مشكلة اجتماعية ليس لها الا حل صحيح واحد في واقع اجتماعي معين في وقت معين. قد يكون لها اكثر من حل خاطىء، قاصر أو متجاوز أو مناقض ، يحاوله صاحبه فيفشل في حلها، ولكن حلها الصحيح لا يمكن الا ان يكون واحدا بحكم ان الواقع الاجتماعي واحد " (١) وعندما نطبق هذا على المجتمع القومي (الامة) ننتهى الى ان " للمشكلات الاجتماعية في الامة حلولا موضوعية يحددها الوجود القومي ذاته بما يتفق مع التقدم القومي .

والصراع الاجتماعي حول المشكلات الاجتماعية لا يعني ان تلك الحلول غير معروفة أو غير قابلة للمعرفة ، بل يعني تماما ان الصراع يدور بين قوى تزعم كل منها انها تستهدف الحل الموضوعي الصحيح . وقد يكونون كلهم خاطئين، ولكن الذي لا يمكن ان يكون ابدا ان يكونوا كلهم على حق فيما يزعمون " (٢) .

فما هي حقيقة مشكلة فلسطين وما هوحلها الصحيح؟

لنبدأ بالوقائع التاريخية وهي بسيطة : منذ الفتح الاسلامى والشعب العربي هو الذي يقيم ويعيش على ارض فلسطين. ومن اجلها دارت اقسى معارك الدفاع عن الارض المشتركة ضد الغزو الصليبي واشترك كل الشعب العربي بامواله وابنائه في تحرير فلسطين واستردادها من الصليبيين. ومنذ ان انحسرت نهائياً موجات الغزو الصليبي لم يغادر الشعب العربي ارض فلسطين الى ان طرد بعضه من بعضها سنة ١٩٤٨ . هذا تاريخ غير منكور . ولم ينكر احد حتى من الصهاينة ان الشعب العربي هو الذي كان يقيم ويعيش على ارض فلسطين منذ الفتح الاسلامي حتى سنة ١٩٤٨. وهكذا ندرك عدم جدوى كل ما كتب في محاولة اثبات ما لم ينكره احد . انما يبدأ الخلاف حول تفسير الوقائع التاريخية غير المنكورة . وسنعرض فيها يلي الموقف العربي القومي ثم الموقف الصهيوني قبل ان نعرض الحل القومي للمشكلة .

٢- الموقف القومي :

الموقف القومي من مشكلة فلسطين بسيط وواضح :

فعندما ننظر الى المجتمعات خلال تطورها الجدلي وحركتها التي لا تتوقف من الماضى الى المستقبل، نفهم أن فلسطين، ارضا وشعبا، قد دخلت طورا جديدا بالفتح الاسلامي . لم تعد منذ ذلك الحين موقعا للصراع القبلى بين الكنعانيين والاسرائيليين والرومان بل استقر الامر فيها لتتخطى مرحلة البداوة القبلية حيث لا تخص الارض شعبا بعينه لتكون جزءا مؤثرا ومتأثرا، متحركا، ومتغيرا، ومتطورا مع بقية الجماعات والشعوب التي وفر لها الفتح الاسلامي اوسع فرص التفاعل التاريخي لتكون معا أمة عربية . واذا كانت العلاقات العرقية (السامية) بين المقيمين في فلسطين والمقيمين في بقية انحاء الوطن العربي قد سهلت عملية التفاعل تلك فان المهم هو ما ادى اليه التفاعل من تطور تقدمي انصهرت فيه الجماعات والشعوب السابقة على التكوين القومي العربي واصبحت به أمة واحدة . من هنا فانا لا نطرح مشكلة فلسطين ولا نفهمها ولا نحتج فيها استنادا الى أية وقائع تاريخية سابقة على التكوين القومى . ولا نقبل من أحد ان

يطرحها او يفهمها أو يحتج فيها بما يسبق دخول فلسطين ارضا وشعبا عنصرا من عناصر التكوين التاريخي للامة العربية. ذلك لاننا كقوميين، والقومية تقدمية، لا نحتج ولا نقبل الاحتجاج على ثمرات التطور التاريخي بتاريخ البداوة الاولى .

فلسطين اذن جزء من الامة العربية :

وبالتالي فان محاولة طرد الشعب العربي واغتصاب الارض العربية لتوطين بشر مستوردين هو اعتداء على الوجود القومي للامة العربية لا بد من أن يرد . هو انتقاص من المجتمع العربي لا بد من أن يستكمل. هو فسخ لعلاقة تاريخية بين الشعب والارض لابد من ان يزول ليعود الشعب الى الارض وتعود الارض الى الشعب فتبقى الامة العربية " كما هي "، لا اكثر. كل هذا بصرف النظر عن جنس أو ديانة أو لون او مبادىء أو نوايا المعتدين . ان هذا مهم . لان الوجود القومي مجرد وجود خاص . فهو اضافة الى ، وليس ا نتقاصا من ، وجود الجماعات الانسانية الاخرى . وهكذا تكون القومية علاقة قبول واحترام للوجود الخاص لكل مجتمع من المجتمعات الانسانية، وهذا يعني، طبقا لنظريتنا القومية، ان حق الامة العربية في الوجود الكامل ، لا يتوقف على أحد. وبالتالي فان حق الشعب العربي في استكمال وجود امته باسترداد فلسطين لا يتوقف على ما اذا كان المعتدون يهودا أو غير يهود ، رأسماليين أو من الذين لا يملكون شيئا يخسرونه، كما لا يتوقف، على أي وجه وفي أي ظرف، على موقف الدول من هذا الحق سواء كانت دولا كبرى أو دولا صغرى ، منفردة أو مجتمعة ي منظمة هيئة الامم المتحدة . ان كل هذا الذي يتصل بالمعتدين وحلفائهم والموقف الدولي من المشكلة قد يؤثر بشكل أو بآخر على اسلوب حلها، اما حقيقتها القومية كما هي محددة بالوجود القومي العربي فلا تتأثر ولا تتغير بمواقف القوى الاخرى معتدية كانت أو حليفة او صديقة. حتى لوكانت حليفة او صديقة للشعب العربي نفسه.

تترتب على هذا عدة نتائج هامة يتميز بها الموقف القومى من مشكلة فلسطين .

أولاها : ان الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين ليس قائما بين الشعب العربي وبين ،(اليهود) ، لانهم يهود . هذا خطأ جسيم في فهم المشكلة . ان العروبة قومية واليهودية دين، فلكل منهما دلالة مختلفة على مضامين مختلفة. القومية العربية علاقة انتماء الى مجتمع قومي (أمة) والدين اليهودي علاقة ايمان بمقولات ميتا فيزيقية. وكما يكون العربي يهوديا ويبقى عربيا يكون اليهودي منتميا الى أي واحد من المجتمعات التي تملأ الارض بدون ان يكون ثمة تناقض بين

انتمائه الاجتماعي وايمانه الديني . ليس ثمة شيء ابعد عن حقيقة مشكلة فلسطين واكثر تشويها لها من القول بانها مشكلة صراع ديني يحلها قبول التعايش بين الاديان على ارض فلسطين . فيوم ان اغتصب الصليبيون المسيحيون ارض فلسطين قاتل العرب، مسلمين ومسيحيين ، الى ان استردوا الارض المغتصبة ، ومن قبل ان يبدأ العدوان الصهيوني على فلسطين كان العرب من كل دين يعيشون في سلام على ارض فلسطين . ان مشكلة فلسطين مشكلة ارض مغتصبة وليست مشكلة تبشير باحد الاديان . مشكلة قومية وليست مشكلة دينية . واذا كان الصهاينة المعتدون يخلطون القومية بالدين ويبررون العدوان بنصوص من ،(التوراة)، فذلك ما يقوله المعتدون أنفسهم لخدمة اغراضهم أو لتبرير عدوانهم ... وعندما ننزلق نحن الى هذا الخطأ نكون قد قبلنا حجة المعتدين وشوهنا حقيقة مشكلتنا فلا نعرف حلها الصحيح ولا نستطيع ان نحلها. وقد نقع في الخطأ حتى بعيدا عن التصدي لمشكلة فلسطين . فعندما ينسى بعض المتفقهين ، الامة العربية التي ينتمون اليها، والواقع القومي الذي تثور فيه المشكلة، ويقدمون الدين بديلاً عن القومية، أو عندما ينفعل "المتعصبون " فيصبون جام غضبهم على ابناء امتهم العربية من اليهود، لا يفعلون شيئا بتلك الاخطاء الغبية المضللة سوى خذلان امتهم المعتدى عليها والانتصار للصهيونية المعتدية. اذ عندما يصبح الدين بديلا عن القومية ثم تطرح مشكلة فلسطين ينتهي بهم الامر الى اقتسام الوطن العربي فيها بين الاديان الثلاثة على الاقل . وايا ما كانت النسبة بين الاقسام فسيكون على كل مسلم أو مسيحي أن يخرج من ارض اليهود في فلسطين . أي يكون عليهم أن يقبلوا الحل الصهيوني الذي يظنون انهم يحاربونه بالتعصب الديني .

فهل يقبلون ما تنتهي اليه منطلقاتهم أم هي اخطاء غبية ؟

النتيجة الثانية: هي ان الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين ليس قائما حول النظم الاجتماعية في الارض العربية بين الرجعيين والتقدميين . انما هو قائم حول الارض المغتصبة ولمن تكون . فمن حيث الوقائع التاريخية كان كثيرون من عتاة الصهاينة ورواد الغزو الصهيوني لفلسطين من "الاشتراكيين " بينما كان المدافعون عن الارض العربية " اقطاعيين " أو رأسماليين . وادى ذلك الى وقوع اكثر الناس ادعاء للفهم " العلمي " للمشكلات في خطأ فهم حقيقة مشكلة فلسطين باعتراف الاتحاد السوفييتي باسرائيل فور اعلان قيامها وانحياز الشيوعيين العرب الى الصهيونية ضد امتهم العربية.

ولم يلبث التاريخ طويلا حتى كشف ذلك الخطأ " العلمي " جدا. اذ في مرحلة لاحقة اصبح الصهاينة الذين كانوا يوما من اعضاء " البوند الماركسي "، حلفاء اوفياء للامبريالية الامريكية بينما اصبح المدافعون عن الأرض العربية من التقدميين والاشتراكيين . وفي الحالتين تغيرت مواقف القوى من النظم الاجتماعية ولكن المشكلة ظلت مستمرة والصراع قائما. وقد صحح الاتحاد السوفيتي- بقدر- خطأه الاول . وصحح كثير من الماركسيين العرب مواقفهم تصحيحا كاملا. ولكن العبرة ليست بتصحيح المواقف انما العبرة بصحه فهم حقيقة مشكلة فلسطين . ومشكلة فلسطين مشكلة اثارها اغتصاب الارض العربية. والارض هي مصدر الامكانيات المادية للتقدم الاجتماعي، فاغتصابها من الشعب العربي معوق لتقدمه فهو عدوان رجعي بصرف النظر عما يفعله بها وفيها المغتصبون. واذا كان الصهاينة لا يكفون عن عقد المقارنات بين اسلوب الانتاج الجماعي في الارض المغتصبة وبين اسلوب الانتاج الفردي في الوطن العربي فهم يحاولون اخفاء المشكلة الاصيلة تحت ستار الادعاءات التقدمية ليبرروا بقاءهم في الارض المغتصبة. وهو تضليل لم يضلل مثله احد من قبل يوم ان نشب الصراع المسلح بين الصين والاتحاد السوفيتى حول بضعة اميال مربعة من الأرض على الحدود بين البلدين . لم يكن هناك شك في ان الاشتراكية هي نظام الحياة الذي ينتظر تلك الارض سواء آلت الى الصين أو الى الاتحاد السوفيتي . لم يكن أحد من الطرفين يشك في هذا ولم يثره أحد من الطرفين . إنما كان الصراع المسلح الذي وصل الى حد القتال الفعلي بين الاشتراكيين من الجانبين دائرا حول لمن تكون الارض . ان كان هذا واضحا يتضح لنا غباء الاخطاء المضللة التي تطرح مشكلة فلسطين كما لو كانت صراعا حول ملكية ادوات الانتاج في الارض العربية. وهي اخطاء غبية ومضللة حتى لو كانت تستهدف- غرورا- اضعاف الجبهة الداخلية في اسرا ئيل أو حتى شقها . لاننا انما نضعف القوى المعادية لنمزقها انتصارا لحقنا ولكن لا ندفع من حقنا ثمن اضعافها وتمزيقها. ولا يجدينا شيئا ان يتمزق المجتمع الصهيوني في اسرائيل الا من حيث انه قد يسهل حل مشكلة الارض المغتصبة منا. ولكن عندما يصبح هذا التمزيق غاية في ذاته بديلة عن الغاية الاصيلة فلن يزيد عن ان يكون انتقالا لارض فلسطين من فريق صهيوني نقول انه رجعي الى فريق صهيوني نقول ا نه تقدمي . وتكون المسألة كلها عبثا؛ وعندما ينسى بعض المتشدقين بالتقدمية والاشتراكية والكادحين والبروليتاريا... الى اخر هذه الكلمات الكبيرة ان كل فلاح في اسرائيل يزرع ارض فلاح عربي، وان كل عامل في اسرائيل محتل مكان عامل عربي، وان كل اسرة في اسرائيل تعيش في منزل اسرة عربية، عندما ينسون ان كل خطوة الى الامام في اسرائيل قد انتزعت الاقدام العربية من فوق طريق التقدم الاجتماعي، ثم يفتشون عن حلفاء من التقدميين الاشتراكيين الكادحين

من بين الغاصبين بدعوى ان المشكلة مشكلة صراع حول ملكية ادوات الانتاج يدور بين " الطبقات " وليس صراعا حول ملكية مصادر الانتاج يدور بين المجتمعات، فانهم لا يفعلون شيئا سوى دخول معركة الصراع الاجتماعي بين الغاصبين لينتصر فريق على فريق . يدخلونها ، ويا للسخرية، من موا قع التشرد التي طردهم اليها الغاصبون. عندئذ يكون بعدهم عن فهم مشكلة فلسطين مساويا لبعدهم عن الارض المغتصبة، وقد يقع الخطأ حتى بعيدا عن صفوف المطرودين أو التصدي المباشر لمشكلة فلسطين . فعندما ينسى بعض "أكلة" الكلمات الكبيرة الامة العربية التي ينتمون اليها والواقع القومي الذي تثور فيه المشكلة، ويقدمون "الاممية"، بديلا عن القومية انما يخذلون امتهم المعتدى عليها وينتصرون للصهيونية المعتدية. اذ عندما تصبح الاممية بديلا عن القومية ثم تطرح مشكلة فلسطين ينتهي الامر بهم الى قبول الاحتكام الى وحدة الموقف من علاقات الانتاج " بصرف النظر عن الانتماء القومي " ، فيكون عليهم أن يقبلوا أن يزرع الفلاحون في اسرائيل ارض الفلاحين العرب وان يحل العمال في اسرائيل محل العمال العرب، وان يكون الفلاحون والعمال في الارض المحتلة هم الحلفاء الطبيعيين للذين سلبت منهم الارض وفرص العمل فاصبحوا مشردين . ولما كان سكان المخيمات عاطلين فانهم ، اذن، الاحتياطي البشري تحت قيادة " البروليتاريا " الاسرائيلية في نضالها " الثوري " ، من اجل الاشتراكية. فهل يقبلون ما تنتهى اليه منطلقاتهم ام هي اخطاء غبية؟

النتيجة الثالثة: هى ان مشكلة فلسطين ليست مشكلة دولية بمعنى انها ليست مشكلة ثائرة فيما بين الدول وليست مشكلة ثائرة ما بين الامة العربية من ناحية والمجتمع الدولي من ناحية أخرى . واذا كانت الدول تتدخل في مشكلة فلسطين انتصارا للحق العربي او دعما للعدوان الصهيوني فان الذي يحركها هو مصالحها الخاصة ولو كان السلام العالمي هو مصلحتها الخاصة. واذا كنا نحن نقيم وزنا للدول ومجتمعها ومصالحها التي تحركها كما نقيم وزناً للسلام العالمي فلإن لنا في هذا مصالح تحركنا. ذلك لاننا لسنا منعزلين عن الدول ومجتمعها ولا نستطيع حتى لو اردنا أن نعزل انفسنا عن الدول ومجتمعها . ففي نطاق المجتمع الدولي نواجه حتمية القانون المعروف : " كل شيء مؤثر في غيره متأثر به ". ولا شك في ان مواقف الدول من مشكلة فلسطين تؤثر وتتأثر . ايجابيا وسلبيا. باسلوب حلها. وهو ما يعني ان نأخذ من كل دولة، ومن المجتمع الدولي كله، الموقف الصحيح ونحن نحاول ان نحل مشكلة فلسطين. ولكن ما هو مقياس صحة الموقف؟.. مقياسه أن يكون مساعدا في حل المشكلة أو أن يكون حلاً لها. وهوما يعني ان لمشكله فلسطين حقيقة نعرفها هي التي تحكم مواقفنا من الدول ومن المجتمع الدولي، وان

تدخل تلك الدول ومجتمعها الدولي في الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين لا يغير من حقيقتها التي نعرفها ونلتزمها : ان ارضنا العربية في فلسطين مغتصبة.

فليكن السلام العالمي . هو المثل الذي نضربه، لان السلام العالمي غاية مشتركة بين البشرجميعا. ان الحفاظ على السلام العالمي- طبقا لنظريتنا القومية- يتحقق باحترام الوجود الخاص لكل مجتمع كما هو محدد تاريخيا بصرف النظر عن الاسلوب الذي يقتضيه الحفاظ على السلام العالمي. نريد ان نقول ان استعمال العنف لا يعني- دائما- ان ثمة خطرا يهدد السلام العالمي. وقد يكون العنف ردا للعدوان هو الاسلوب الوحيد لحماية السلام العالمي . فنحن من موقفنا القومي لانصدق ولا نفهم ادعاءات السلام التي تتستر على الانتقاص من وجودنا القومي . ونرفض تماما ان ندفع أرض فلسطين أو اية ذرة من الارض العربية ثمنا لتلك الادعاءات الكاذبة ، لا لاننا لا نريد السلام العالمي ولكن لاننا لا نفهم السلام العالمي الا انه الكف عن الاعتداء واحترام الوجود الخاص لكل المجتمعات البشرية.

ان الدول لن تكف عن محاولات طرح مشكلة فلسطين كما تفهمها على ضوء مصالحها الخاصة، ولن تكف عن طرحها كمشكلة سلام عالمي صادقة أو مخاتلة، ولن تكف عن التدخل ، علنا أو خفية، من موقع التحالف معنا أو التحالف مع الصهيونية أو استغلال الطرفين معا لتحقق ما تريد. وليس لنا ان نتوقع غير هذا.، وعلينا أن نجد لحل مشكلتنا الاسلوب الملائم لتحقيق غايتنا وسط كل هذه المؤثرات. لا شك في هذا ولا انكار له. ولكن عندما ننزلق الى طرح مشكلتنا أو قبول طرحها على انها مشكلة فيها بين الدول الاخرى أو مشكلة السلام العالمي انما ندفن مشكلة فلسطين تحت ركام الصراعات الدولية. وعندما ندفنها تغيب عنا حقيقتها فلا نعرف كيف نحلها، ثم يكون علينا ان نقبل الاحتكام الى الدول لتحكم كل منها على ضوء مصالحها الخاصة، أو نحتكم الى مقتضيات السلام العالمي كما يقدرها القادرودن على تدميره أو الخائفون من القادرين . وينتهي الامر بنا الى دفع ارض فلسطين ثمنا من عندنا، لا للسلام العالمي ، ولكن لتسوية جزء من حسابات المصالح القائمة بين الدول .

وعندما نعرف ان مشكلة فلسطين ليست مشكلة دولية بالمفهوم الذي ذكرناه ، ولا ننسى انها مشكلة ارض عربية مغتصبة نفلت من شباك التضليل الذي يثيره ادعياء العلم بالقانون الدولي عندما يزعمون ان مشكلة اغتصاب الارض العربية في فلسطين قد حلت منذ ان اعترف المجتمع الدولي بدولة اسرائيل وقبلها عضوا في هيئة الامم المتحدة . وانها منذ ذلك الحين قد

اصبحت مشكلة سلام بين الدول المتجاورة. ان فقه القانون الدولي مليء بالنظريات عن الاعتراف بالدول وطبيعته المنشئة أو المقررة أو المختلطة، وباثاره الملزمة فيما بين الدول المعترف بها والدولة أو الدول المعترفة. ولكن ليس في فقه القانون الدولي ولا في قواعده ولا في تطبيقاته ما يجعل لاعتراف دولة بدولة ثانية اثرا ملزما لدولة ثالثة لم تعترف بها . اذ ان القاعدة الاساسية التي يقوم عليها كل بناء القانون الدولي هي ان الدولة لا تلتزم الا بارادتها الخاصة. فما الذي يعنيه اعتراف كثير من الدول باسرائيل؟... يعني ان تلك الدول قد اصبحت ملتزمة بارادتها بان تعامل اسرائيل كدولة ما دامت قائمة ولا يعني شرعية قيام اسرائيل على الارض العربية المغتصبة لان القرارات التي تأخذها الدول، كما يعرف كل الذين يعلمون المبادىء الاولية في القانون الدولي، غير قابلة لاحداث أثر مشروع خارج نطاق الاقليم الذي تنصب عليه سيادتها. وما دامت الدول التي اعترفت باسرائيل ليست ذات سيادة على اقليم فلسطين فان اعترافها يضفي الشرعية على تعاملها مع اسرائيل ولكنه لا يضفي الشرعية على دولة اسرائيل ذاتها . لا يحول الاغتصاب الى عمل مشروع . ان هذا يقع خارج نطاق مقدرة الدول وهي تمارس سيادتها، لا لاننا نريد ذلك، ولكن لان تلك هي احكام القانون الدولي الذي يحتجون به كثيرا. اكثر من هذا ان الاعتراف بدولة اسرائيل لا يتضمن الالتزام بالمحافظة على وجودها. والا لكان الاعتراف المشروع دوليا حماية غير مشروعة. ومن هنا ندرك كم هي زائفة المقولة التي يهمس بها البعض ويهددنا بها الاخرون : ما دامت الدول قد اعترفت بوجود اسرائيل فإنها لن تسمح بزوالها أبداً. فيوم أن تزول دولة اسرائيل يصبح الاعتراف السابق بوجودها غير ذي مضمون ويسقط . قد تدافع دولة أو أخرى عن وجود اسرائيل ولكن هذا لن يكون أثرا ملزما من اثار الاعتراف بها. سيكون حماية لمصالحها ايا كان مضمون تلك المصالح.

ان اعتراف كثير من الدول ، اذن ، باسرائيل لم يحل مشكلة فلسطين ولكنه كان حلا لمشكلات التعامل بين تلك الدول وبين اسرائيل. وبالتالي فان المشكلة، كما هي على حقيقتها، ما تزال قائمة بالرغم من الاعتراف بدولة اسرائيل.

أما عن هيئة الامم المتحدة فان مبادئها الاساسية الواردة في المواد الاولى من ميثاقها تنكر الشرعية على الاستيلاء على الارض بالقوة. وعندما قبلت هيئة الامم المتحدة اسرا ئيل عضوا فيها، قبل ان تجف دماء المذابح في الارض المغتصبة، لم يكن الاعضاء الذين قبلوا يفعلون شيئا أقل من خيانة ميثاقها. وخيانة الميثاق ليست ملزمة لمن قبلوا الميثاق . نريد ان نقول انه بحكم ميثاق هيئة الامم ذاتها ليس لاعضائها ولو مجتمعين ان يخالفوا ميثاقها. وعندما يخالفونه تكون

قراراتهم غير مشروعة طبقا للميثاق ذاته فهى ليست حجة على الدول التي قبلت ان تكون اعضاء في هيئة الامم المتحدة على أساس الالتزام المتبادل بالميثاق . هذا كله بدون حاجة الى اثارة ما لا بد ان يعرفه العالمون بميثاق هيئة الامم المتحدة ، من الذي وضعه، وكيف وضع، وفي اية ظروف دولية وضع، وما هي المصالح " الحقيقية " ، التي وضع لحمايتها. وبدون اثارة ما يعرفه حتى الذين لا يقرأون ولا يكتبون من ان هيئة الامم المتحدة التي قبلت اسرائيل وما تزال ترفض الصين ليست الا أداة في يد من يملك القوة فيفرض بها القرارات الدولية (٣).

والغريب انه بينما يتردد الزعم في اطراف الارض جميعا بان اسرائيل وجدت لتبقى، وبان مشكلة اغتصاب الارض العربية قد حلت منذ اعتراف المجتمع الدولي بوجود اسرا ئيل، يعرف الصهاينة قبل غيرهم انها ما تزال قائمة لم تحلها اعترافات الدول فيقاتلون منذ سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٧. ويتشبثون بالارض التي احتلوها أخيرا في مواجهة كل الضغوط الدولية من اجل الاعتراف بوجودهم على الارض التي اغتصبت اولا، من اجل فرض هذا الاعترات بالقوة على الامة العربية.

هل تتغير حقيقة مشكلة فلسطين فيما لو اعترفت باسرائيل احدى الدول العربية. أو الدول العربية مجتمعة، أو شعب فلسطين نفسه ممثلا بدولة مصنوعة أو بدون دولة؟

أبدا.

وهذا ينقلنا الى الجانب " الداخلي "، من المشكلة كما نفهمها على ضوء نظريتنا القومية..

نعرف أن المميز الاساسي للامة عن الجماعات الانسانية السابقة عليها هو عنصر الارض الخاصة المشتركة. الخاصة بالجماعة البشرية المعينة دون غيرها من الجماعات الانسانية الاخرى المشتركة فيما بين الناس فيها ". بقي أن نعرف الموقف القومي من مشكلة فلسطين كما يحدده كون الارض العربية " مشتركة "، فيما بين الشعب العربي . انه يحدده من ناحيتين:

الناحية الاولى : لما كانت الامة العربية تكوينا تاريخيا فان اشتراك الشعب العربي في الوطن العربي هو مشاركة تاريخية بين الاجيال المتعاقبة. وهذا يعني انه ليس من حق الشعب العربي كله، من الخليج الى المحيط ، ولو كان ممثلا في دولة الوحدة، ان يتنازل عن ارض فلسطين أو يقبل الوجود الصهيوني على الارض المغتصبة. ا نه بهذا يتصرف فيما لا يملكه وحده

لانه ملك مشترك بينه وبين الاجيال العربية القادمة. ولو فعل لما كان ما يفعله حجة على الاجيال القادمة من الشعب العربي.

الناحية الثانية: انه لما كانت الارض العربية شركة بين الشعب العربي فليس من حق أي جزء من الشعب العربي ولو كان شعب فلسطين نفسه ان يتنازل عن ارض فلسطين أو يقبل الوجود الاسرائيلي على الارض العربية المغتصبة. انه بهذا يتصرف فيما لا يملكه وحده لانة ملك مشترك بينه وبين باقي شعب الامة العربية. ولو فعل لما كان ما فعله حجة على الشعب العربي.

ان هذه الناحية الثانية اكثر واقعية من الناحية الاولى . اذ ان دولة الوحدة لا تكتمل وجودا ما دامت ارض فلسطين مغتصبة ولو شملت باقي الوطن العربي . وانما أردنا أن ندفع بالفروض الى نهايتها لنؤكد بأوضح ما يمكن عدم شرعية التنازل عن ارض فلسطين أيا كان الجانب " العربي " المتنازل، ولو كان جيلا كاملا من الشعب العربي تمثله وتنوب عنه دولة وا حدة تعترف بالوجود الاسرا ئيلي على أرض فلسطين . ان أي جزء من الشعب العربي ممثلا في دولته أو الشعب العربي كله ممثلا في دولة واحدة، أو شعب فلسطين ممثلا في دولة أو بدون دولة، يعترف بدولة اسرا ئيل لن يفعل بهذا شيئا اكثر من الزام نفسه بالتعامل معها كدولة ولكن مشكلة الارض المغتصبة ستبقى قائمة يحلها حلها الصحيح باقي الشعب العربي ولواقتضى الامر تصفية المعترفين، أو يحلها حلها الصحيح جيل قادم من الشعب العربي يصحح خيانة جيل سبقه . ولن يستطيع أحد أن يحتج على الذين يتصدون لاسترداد الارض المغتصبة بالاعتراف الصادر من غيرهم أو بالاعتراف السابق على وجودهم، لانهم كشركاء في الارض العربية شركة تاريخية غير ملزمين بما فعله أو يفعله شركاؤهم الا خرون .

مشكلة فلسطين، اذن، لن تحل بالاعتراف بدولة اسرائيل يأتي من أي جانب عربي لانها مشكلة ارض مغتصبة، لا من أي جيل من الشعب العربي يملكها وحده فيملك التصرف فيها، ولا من أي جزء من الشعب العربي يملكها وحده فيملك ان يتنازل عنها، بل مغتصبة من الامة العربية واجيالها المتعاقبة. ومن هنا ندرك جسامة خطأين متداولين في طرح مشكلة فلسطين :

الخطأ الاول هو الزعم بأن العدوان الصهيوني موجه ضد دولة عربية أو بضعة دول عربية، وبالتالي تكون المشكلة قائمة بين اسرائيل وبين تلك الدولة أو الدول. صحيح ان الصهيونية المعتدية عندما استولت على الارض العربية كانت الارض التي اغتصبتها جزءا من اقليم (شبه) الدولة التي كانت قائمة في فلسطين تحت الانتداب البريطاني. وعندما اعتدت اسرائيل مرتين

سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧، ومرات عدة فيما بينهما، اصطدمت بالدول العربية القائمة على الأرض المعتدى عليها. وانها ان تتوسع اكثر تصطدم بدول عربية أخرى لم يدركها العدوان بعد . هذا صحيح لان الارض التي اغتصبتها الصهيونية أو احتلتها اسرائيل لم تكن خالية من البشر ومن الدول . وان الارض العربية التي حددتها لتكون وطنا لدولة اسرائيل ما بين الفرات والنيل ليست خالية من البشر ومن الدول ويثير كل هذا مشكلات جديدة بين اسرائيل والدولة أو الدول العربية المعتدى عليها. مشكلات الاستقلال والامن وضمان الحدود. وتضاف تلك المشكلات الى قائمة المشكلات القومية على أساس ان كل مشكلة في الامة العربية هي مشكلة قومية. صحيح أيضا انه كلما تحرر الشعب العربي في أية دولة عربية من قيود الاستعمار والاستبداد والاستغلال، وكلما نمت مقدرة الشعب العربي في أية دولة عربية على التقدم الاجتماعي، انتبهت الصهيونية الى المخاطر المقبلة التي تتعرض لها مخططاتها فيما لو سمحت لذلك النمو أن يبلغ غايته. اولا: لأنه بقدر ما يتحرر الشعب العربي بقدر ما يستطيع أن يحل مشكلة فلسطين . وثانيا : لان محاولات التقدم ولو في ظل الاقليمية لن تلبث أن تعلم الجادين فعلا في ممارسة التنمية انهم يفتقدون الامكانيات المادية والبشرية الوفيرة المتاحة في الامة العربية وان " التقدم لا يقوم على أساس التجزئة " عندئذ يعرفون ان مشكلة فلسطين هي مشكلة تخلف وان الوجود الاسرائيلي قيد ثقيل على محاولات التقدم الاجتماعي فيواجهون دولة الصهيونية بالارادة التي لا تهزم : ارادة التقدم الاجتماعي . وثالثا : لان التنمية في ظل التحرر توفر افضل امكانيات التحرير، ومن هنا لا يكون غريبا مانلاحظه من أن مشكلة فلسطين تزداد حدة كلما تحققت في الوطن العربي خطوة تحررية. وان الصراع ضد الصهيونية يصبح اكثر شراسة كلما تحققت خطوة تقدمية. وان قواها العربية تفرز وتتبلور. رويدا رويدا، في القوى القومية التقدمية. ألم نر كيف انها الآن سنة ١٩٧١ أكثر حدة من سنة ١٩٤٨. وان اسرائيل قد اصبحت اكثر شراسة من ذي قبل. وانها تدخر قوتها الضاربة وتعدها وتستعملها لهدم كل تقدم بناء في الجمهورية العربية المتحدة، حيث يعيش ثلث الامة العربية، وحيث تقوم اكثر الجهود جدية في البناء الاجتماعي . ويبدو الامر من تتابع العدوان وتوقيته كما لو كان الاسرائيليون يضعون خطط الهدم على أساس خطط التنمية في الجمهورية العربية المتحدة . عدوان يهدم ، ثم فترة ليتفرغ فيها الشعب العربي لاعادة البناء ويبذل في كل هذا ما يتجاوز طاقته من تضحيات بشرية ومادية ومالية، وعندما يقارب البناء مرحلة الاثمار، أي في تلك اللحظة المنتقاة حيث يكون الشعب العربي على وشك ان يذوق ثمار جهده ، تختلق الذرائع ويأتي عدوان اسرائيلي جديد ليهدم ... وهكذا. ألم نر كيف تحول الصراع منذ سنة ١٩٦٧ من معركة تهزم فيها القوات أو تنتصر ثم تنفض الى سباق حياة أو موت بيننا وبين اسرا ئيل

. ولم تستطع اسرائيل – هذه المرة- أن تضرب ثم تعود فتسرح قواتها وتعد نفسها لجولة قادمة. بل اضطرت للبقاء في ساحة المعركة والدفاع حتى الموت عن وجودها بان تفرض حتى الموت ذلك الوجود والاعتراف به قبل ان تكمل القوى القومية في الوطن العربي مسيرتها التقدمية.

كل هذا صحيح وواقعي .

ولكنه يقوم على مستوى اسلوب الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين . انها مشكلات ولدتها المشكلة الاصيلة، تنصب مضامينها على متطلبات الصراع وعدة النصر فيه. فهو لا يطغى على مشكلة فلسطين ولا يغيرمن حقيقتها ولا يقوم بديلا عنها. ولو كانت اسرائيل تعلم ، أو حتى تتوهم ، ان التقدم الاجتماعي في أية دولة عربية، لن يبنى لها من بين ما يبنى، القبرالذي تدفن فيه، لما همّها في كثير أو قليل ان تقوم بجوارها دولة نامية تتبادل معها السلع والخدمات والخبرات. أو لما بلغ اهتمامها حد القتال لهدم البناء التقدمي في الدول العربية. انما هي تهدم لانها تعلم ان ذلك البناء أحد اساليب النصر في الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين. وهكذا تبقى مشكلة فلسطين، كما هي ، مشكلة اغتصاب الارض العربية بصرف النظر عن الدولة أو الدول التي كانت قائمة، والقائمة، والتي قد تقوم على تلك الارض. ذلك لان الأرض التي تقوم عليها الدول العربية ليست أرضا خاصة بتلك الدول أو بشعوبها . ان للشعب العربي في كل دولة حقا بينها مشتركا بينه وبين باقي، الشعب العربي خارج حدودها السياسية. ومن هنا لا نستطيع أن نفهم ، من الموقف القومي، كيف يمكن أن يكون اغتصاب أو احتلال أية ارض عربية هو مشكلة " خاصة " بين المعتدين وبين الدولة أو الدول العربية التي تلقت ضربة العدوان . فلا نفهم ان يكون اغتصاب الارض العربية سنة ١٩٤٨ واحتلال مزيد من الارض والمياه الاقليمية في سنتي ١٩٥٦، ١٩٦٧ وما بينهما مشكلات اقليمية قائمة بين اسرائيل والدول العربية " المعنية " كما يقولون . وعندما لا نفهم المشكلات على هذا الوجه الزائف نرفض- من ناحية- ان تتنازل أية دولة عربية عن أرض فلسطين المغتصبة سنة ١٩٤٨ فتعترف باسرائيل ولو في مقابل استردادها للارض المحتلة في سنة ١٩٦٧. ونرفض- من ناحية ثانية- أن تتنازل أية دولة عربية عن ذرة من الارض التي تقوم عليها لاسرائيل ولو في مقابل استرداد ما يتبقى من ارض محتلة. ونرفض- من ناحية ثالثة- ان تكون مسؤولية تحرير الارض المحتلة والارض المغتصبة واقعة على عاتق جزء من الشعب العربي دون الشعب العربي كله من المحيط الى الخليج . كما نرفض ان تساوم بعض الدول العربية على جزء من الوطن العربي لتسترد جزءا منه، نرفض ان يهرب جزء من الشعب العربي من المعركة ليتحمل جزء منه مسؤولية الامة العربية كلها .

مشكلة فلسطين اذن مشكلة قومية وليست مشكلة اقليمية.

واذا كان الصهاينة وحلفاؤهم يزعمون ولا يكفون عن ترديد مزاعمهم بأن مشكلة فلسطين هي مشكلة حدود آمنة واعتراف متبادل بين اسرائيل وجاراتها من الدول العربية فذلك ما يقوله المعتدون وحلفاؤهم ليكسبوا به جولة الصراع حول وجود اسرا ئيل وليبدأوا بعده مراحل بناء دولة الصهاينة، حربا حربا، ما بين الفرات والنيل . وعندما ننزلق نحن فننسى أن مشكلة فلسطين هي مشكلة اغتصاب ارض فلسطين (أليس هذا بدهيا؟...) ونطرحها كما لو كانت مشكلة توسع على حساب دولة أو اكثر من الدول العربية نكون قد سلمنا للصهيونية بما اغتصبت من الارض العربية قبل سنة ١٩٦٧. وعندما ينسى الاقليميون الامة العربية التي ينتمون اليها والواقع القومي الذي تثور فيه المشكلة ويرددون كالببغاوات العجماء ان لكل دولة " عربية " شعبها الخاص وأرضها الخاصة وتاريخها الخاص ومصيرها الخاص... ويناقضون القومية بالاقليمية، يناقضون الكل بالجزء، يناقضون الشامل بالمحدود، يناقضون العام بالخاص، فيفتعلون بكل هذا تناقضات غير قائمة، انما يخفون التناقض الحقيقي القائم بين الشعب العربي والوجود الاسرائيلي، وينتصرون فيه للصهيونية وحلفائها بترديد دعاواهم الزائفة. اذ عندما ينحرفون الى المواقع الاقليمية ويزعمون ان لكل دولة عربية وجودا ومصيرا خاصا مستقلا يواجهون بأن الاستقلال علاقة ذات طرفين . استقلال بالنفس عن الغير. والغير هنا هو شعب فلسطين وارضه المغتصبة. ويصبح تدخلهم في مشكلة فلسطين تجاوزا لاستقلالهم واعتداء ، أو تطفلا ، على ا ستقلال الاخرين يستحق الردع أو يستحق السخرية. ويسخر العالم كله فعلا من الذين يدعون انهم مستقلون بوجودهم ومصيرهم عن فلسطين ثم لا يتركون فلسطين لمصيرها. وعندما تطرح مشكلة فلسطين على الذين يرددون المنطلقات الاقليمية لا يكون امامهم الا الاحتكام الى القواعد الدولية التي تنظم علاقة الجوار فيها بين الدول : الاعتراف المتبادل وتبادل التمثيل السياسي ودعم الصداقة... أو- على الاقل- قبول حماية الدول لحدود دولهم لتضيع أرض فلسطين الواقعة خارج تلك الحدود. فهل يقبلون ما تنتهي اليه منطلقاتهم أم هي اخطاء غبية؟

الخطأ الثاني المتداول فيما يطرح عن مشكلة فلسطين ليس الا " تطبيقا خاصا " للخطأ الاول . انه الزعم بأن مشكلة فلسطين هي مشكلة خاصة بشعب فلسطين . يقولون ان شعب فلسطين هو الذي كان يعيش على الارض المغتصبة. وهو الذي طرد منها . وهو الذي ما يزال مشردا " بدون أرض وبدون هوية " . وهو الذي سيعود الى الارض عندما تسترد . فهي مشكلته الخاصة. هل يستطيع أحد أن ينكر أن اغلب الذين كانوا يعيشون على الأرض المغتصبة هم الذين

طردوا منها بالامس ، المشردون خارجها اليوم، العائدون اليها غدا؟... لا أحد. ان ا حتجوا بالواقع غير المنكور ترسي القومية له أسسه العقائدية : " ان وحدة الوجود القومي تعني اختصاص الشعب بالوطن . ولما كان الشعب امتداداً من البشر على الارض فان وحدة الوجود القومي لا تناقض ولا تلغى ولا تنفى ولا تحول دون اقامة جزء من الشعب على جزء من الوطن . فتلك هي الممارسة الفعلية التي تجسد وحدة الوجود القومي " . عودة المطرودين المشردين الى الارض المغتصبة ليست- اذن- مجرد استرداد للمزارع والمصانع والمتاجر والمنازل، ليست مجرد عملية انقاذ لسكان المخيمات ، انها اكثر من هذا عمقا وضرورة . انها الممارسة الفعلية التي تجسد وحدة الوجود القومي . ومع هذا فليست مشكلة فلسطين مشكلة " خاصة " بشعب فلسطين . اذ ان هذا هو الوجه الثاني من عملة الاقليمية الزائفة فحيث لا تتوافر لهم شجاعة الكشف عن الوجه الخاص بهم ليقولوا ان مشكلة فلسطين ليست مشكلتنا الخاصة، يكشفون الوجه الاخر فنقرأ " مشكلة فلسطين هي مشكلة خاصة بشعب فلسطين " ويسترون هذا الخداع بأكثر الصيغ عطفا على شعب فلسطين : رفع الوصاية عن شعب فلسطين، عدم التدخل في شئون شعب فلسطين ، حق تقرير المصير لشعب فلسطين ، الحقوق " القومية " لشعب فلسطين ، التحالف مع شعب فلسطين ، بطولة شعب فلسطين... الى آخر تلك الصيغ الزائفة مهما تكن عاطفية. اذ ان حصيلتها النهائيه ان اذهب شعب فلسطين وربك فقاتلا انا هنا قاعدون .

عندما يصدر هذا كله أو بعضه من الاقليميين الذين لم يطردوا ولم يشردوا من ارض فلسطين ولن يعودوا اليها ولو كانت خالية من اسرائيل يكون مفهوما تماما. انها الاقليمية الهاربة من الصراع من اجل استرداد ارض لا تعتبرها ارضها ، المتطلعة الى الافلات من مشكلة لا تعتبرها مشكلتها. والتي لا مانع لديها في كل الحالات ان يقبل المطرودون التعويض بدلا من العودة. ان يبيعوا ارض الوطن لمن يستطيع ان يدفع الثمن ، ثم تبقى اسرائيل . اما ان يصدر هذا كله او بعضه من المطرودين المشردين أنفسهم فذلك أمر غريب مريب . ان يقل المطرودون المشردون من الارض المغتصبة أن مشكلة فلسطين هي مشكلة خاصة بشعب فلسطين لا يفعلون شيئا سوى ابتلاع الطعم المسموم الذي القته الاقليمية في افواههم . ويكون عليهم ان يتمثلوا نتائجه القاتلة حتى النهاية : السماح للاقليميين بالهروب من المعركة، وصد القوميين عن الاسهام في المعركة، ومحاولة استرداد الارض الخاصة بهم من مواقعهم في الارض التي تخص غيرهم . وعندما يواجهون الاقليمية المخاتلة تقول لهم استردوا ارضكم كما تشاءون ولكن لا تمسوا سيادتنا على أرضنا ، وتدفعهم بالعطف المخادع أو بالقوة الغاشمة الى أن يقبلوا جزءاً من الارض المغتصبة

ليقيموا عليها " دولة فلسطينية " تكون بمجرد قيامها اعترافا حيا بدولة اسرائيل... حينئذ سيشعرون ببرودة الموت الذي دفعتهم اليه الأقليمية. فهل يقبلون ما تنتهي اليه منطلقاتهم أم هي اخطاء غبية؟.

ليس ثمة أمة تخلو من الخونة. ولكنا لا نستطيع أن نسند الخيانة الى أي عربي لا نملك على خيانته دليلا غير قابل للشك. فقد علمتنا القومية أن مصيرنا مرتبط – بمصير أبناء امتنا حتى الاغبياء منهم والمخطئين . فلنقل اذن انهم لا يقبلون ما تنتهى اليه منطلقاتهم . كل هؤلاء الذين يشوهون مشكلة فلسطين، أو اغلبهم، فيطرحونها كما لو كانت مشكلة دينية، أو مشكلة نظم اجتماعية، أو مشكلة دولية، أو مشكلة اقليمية... لا يقبلون الوجود الاسرائيلي في فلسطين ويجتهدون- بحسن نية- لحل مشكلة لم يفهموها فهما قوميا فلم يفهموها فهما صحيحا، فتأتي الحلول خاطئة. انهم اذن يخذلون انفسهم وتلك قمة الغباء . الا يقولون جميعا ان مشكلة فلسطين مشكلة " عربية " ويستغيثون بالمائه مليون عربي بدون أن يقولوا انها مشكلة " قومية " ثم لا يفطنون الى ان العروبة التي لا تعني الانتماء الاجتماعي والمصيري الى الامة العربية. هي كلمة " فارغة " من أي مضمون لا يقوم عليها التزام بغاية. الا يقولون انه صراع ديني ولا يفطنون الى ان الوطن العربي هو مصدر الاديان وان حركة التقدم العربي في تاريخها الطويل قد جمعت الاديان جميعا. الا يتذكرون أن الصهيونية قد اعتدت أولا والنظم العربية عميلة للاستعمار، واعتدت ثانيا والنظم العربية متحررة، واعتدت اخيرا والنظم العربية تقدمية وفي كل مرة كانت تستهدف الارض لتخليها من البشر ثم يقولون انه صراع بين النظم الاجتماعية؟... الا يعرفون ان الدول الاستعمارية هي التي كانت وما تزال تصنع القرارات الدولية، بالقوة، ومع ذلك يحتجون بالقرارات الدولية؟... ألا يعلمون انه عندما وضعت الصهيونية مخططات اقامة دولتها على الارض، العربية واختارت فلسطين بداية في مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ لم تكن ثمة أية دولة عربية قائمة في الوطن العربي، لا في فلسطين ولا في غير فلسطين، بما تعنيه الدولة من سيادة على الارض، بل كان الوطن العربي اما جزءا من الدولة العثمانية واما أجزاء يحتلها المستعمرون الاوروبيون ، ثم يزعمون ان الصهيونية تقصد بالعدوان هذي أو تلك من الدول العربية... الا يرون أن " الممارسة " الفعلية للصراع بين الشعب العربي والحركة الصهيونية حول الارض المغتصبة في فلسطين يثبت ان مشكلة فلسطين مشكلة قومية، فتدخل حلبة الصراع الذي تثيره اجيال متعاقبة من الشعب العربي، من كل مكان في الوطن العربي، من كل دين، من كل طبقة، من كل دولة، بدون توقف على القرارات الدولية.. ولا يسمح الصراع ذاته لاي جيل عربي، أو أي جزء من الشعب العربي ، أو

أية " طبقة " أو أية دولة ان تهرب من حلبته فيقتحم العدوان الصهيوني واثاره المخربة كل مكان في الوطن العربي لا يمنعه الهرب ولا تصده القرارات الدولية؟... فلماذا هذا الاصرار الغبي على انكار القومية وهي العلاقة الوحيدة التي تفسر الممارسة وتبررها وتمكننا من النصر فيها فلا تخذلهم ولا تهزم غايتهم ان كانوا- حقا- لا يقبلون الوجود الاسرائيلي في فلسطين؟..

ان كان كل هذا غائبا عن " فطنة " الذين يشوهون مشكلة فلسطين ، وعجز الموقف القومي عن ان ينبههم الى ما يخذلون به أنفسهم فلعلهم ينتبهون اليه عندما يعرفون الموقف الصهيوني من مشكلة فلسطين . لعلهم ، ان كانوا عاجزين عن تحديد مواقفهم " عقائديا " من مشكلة فلسطين أن يأخذوا الموقف المضاد لاعدائهم بعد أن يعرفوه، ولو عرفوه ثم أخذوا منه موقفا مضادا لوجدوا أنفسهم في الموقف القومي وان كانوا قد وصلوا اليه كرد فعل لا كفاعلين .

٣- الموقف الصهيوني :

نشأت الصهيونية في اوربا نتيجة عدة عوامل متفاعلة.

اولها: ان " التوراة " التي يتداولها اليهود، وهي كتاب ظهر لاول مرة في عهد الملك يوشا بعد وفاة موسى بن عمران بسبعة قرون كاملة (سفر الملوك الثاني ، اصحاح ٢٢) ، علمت وتعلم اليهود انهم " شعب الله المختار " وتضعهم في موقع العزلة الممتازة من الشعوب الاخرى . وتسند التوراة هذا الاختيار الى اعجاب الله بقوة يعقوب ولذلك تحدد لليهود مضمون امتيازهم على الاخرين بانهم أقوى من غيرهم . ذلك لان الله قد اختارهم واسمى يعقوب ، جدهم الاعلى ، باسم " اسرائيل " على أثر مصارعة جسدية قامت بين يعقوب وهو في طريقه الى ارض كنعان وبين الله ذاته ، لم يهزم فيها يعقوب فاعجب به الله وباركه واختاره (سفر التكوين ٣٢٢ اية ٢٥- ٢٩) وهكذا استقر في اذهان اجيال متعاقبة من اليهود، " ايمان " بانهم شعب قوي ممتاز اختاره الله فاختصه برعايته دون البشر اجمعين ، وحذره من الاختلاط بالشعوب الاخرى حتى لا تلوث نقاءه . " اني ادفع الى ايديكم سكان الارض فتطردوهم من امامك . لا تقطع معهم ولا مع الهتهم عهدا. لا يسكنوا في ارضك لئلا يجعلوك تخطىء " (سفر الخروج، اصحاح ٣٣ آية ٢٢،٢٣) . وقد ادت تلك الاساطير القبلية الى ان اصبحت اليهودية، بالنسبة الى المتدينين من اليهود ، تتضمن " عنصرية " مقدسة تجمعهم على عداء " مقدس " للشعوب .

ولم يكف كهنة اليهودية عن تغذيتها بحيث اصبحت القيم اليهودية ذات حدين، فبينما تفرض على اليهود التزامات وثيقة بالتضامن الاجتماعي فيما بينهم تبيح لهم ان يعاملوا الشعوب

الاخرى بدون قيد اخلاقي أو اجتماعي . قال حكماء صهيون : " اضربوهم وهم يضحكون . اسرقوهم وهم لاهون . قيدوا ارجلهم وانتم راكعون . ادخلوا، بيوتهم واهدموها. تسللوا الى قلوبهم ومزقوها " . أما " يهو" الاله الخاص ببني اسرائيل فقد وعد شعبه المختار بان يقوده " الى مدن عظيمة لم تبنها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وآبار محفورة لم تحفرها، وكروم زيتون لم تغرسها، (سفر التثنية. اصحاح ٦ اية ١١) وتكمل الاساطير البناء الاجتماعي القبلي فتقدم الى اليهود وحدة الاصل لتؤدي وظيفتها في التضامن الاجتماعي الداخلي فتقول ان كل اليهود، في كل مكان من الارض، ومن أي جنس، وأي لون ، هم سلالة الاسباط الاثنى عشر ابناء يعقوب (اسرائيل) بن اسحاق بن ابراهيم، ووحدة الرمز (الطوطم) في جبل صهيون الذي دارت فوقه المصارعة التي اثبتت قوة اسرائيل (يعقوب) التي لا تقهر .

اننا نتعرف في كل هذا على خصائص الطور القبلي الذي مرت به كل المجتمعات : الاله الخاص، والاصل الواحد، والتضامن الداخلي ، والعدوان الخارجي ، وتمجيد القوة . وهو طور كان سائدا في جميع انحاء العالم يوم ان ظهرت التوراة لاول مرة في اوائل القرن الخامس قبل الميلاد . وعلى هذا فان اليهود لم يكونوا بدعة قبلية لا في تكوينهم ولا في اساطيرهم يوم ان كانوا طرفا في الصراع القبلي الذي كان يدور في كل مكان من الارض والذي انتصروا فيه مرات وانهزموا فيه مرات ثم انتهى بهزيمتهم النهائية عسكريا بالغزو الروماني وفكريا بظهور المسيحية. ثم جاءت مرحلة الاستقرار على الارض بالفتح الاسلامي فدخلت بقايا القبائل اليهودية في شرق وجنوب البحر الابيض المتوسط مع غيرها من القبائل والشعوب الاخرى ، مرحلة التكوين القومي واصبحوا عربا. ولعل مثل هذا التطور أن يكون قد حدث في كل مكان عاش فيه اليهود، الا اوربا .

ففي اوربا عاش اليهود قرونا منعزلين في احياء مقصورة عليهم عرفت باسم " الجيتو " حتى نهاية القرون الوسطى . ولم يكن أي " جيتو" الا مجتمعا قبليا مغلقا على اصحابه حبس تطور الجماعات

اليهودية في اوربا عند الطور القبلي لا يتجاوزونه. وكان مرجع ذلك الى ان اليهود في اوربا كانوا محاصرين بتعصب كنسي يظن ان له عند اليهود ثأرا قديما : صلب المسيح . من اجله طردهم فيليب اوجست من مملكته. ومن إجله أمر البابا أنوسنت الثالث بأن يميز اليهود بعلامات توضع على ملابسهم.. ومن اجله احرقت كتب اليهود في الميادين العامة. وقد يكون وراء كل هذه الاساطير ذلك السلاح الاستغلالي الفتاك الذي يجيده اليهود : الربا . فبينما كانت الكنيسة

تحرم الربا، كانت اليهودية تأخذ منه موقفها القبلي، فى تحرمه فيها بين اليهود وتبيحه إذا كان ضحيته غير يهودي وعن طريقه موّل اليهود في اوربا أمراء الاقطاع في حروبهم التي لا تنتهي وفي ترفهم الذي لا يشبع فسيطروا عليهم وسيطروا على الشعوب من خلالهم وكان رد الفعل تحديد اقامتهم في اماكن خاصة وتحريم كثير من أنواع النشاط المنتج عليهم .

أيا ما كان الأمر فان اليهود في اوربا ظلوا حتى نهاية القرون الوسطى في الطور القبلي بكل خصائصه التي عرفناها. ثم جاءت الثورة الليبرالية فاطاحت بالتعصب الكنسي، وانهت قضية الثأر القديم، بل وادت ، على المستوى الديني ذاته ، الى لقاء بين المسيحية واليهودية في المذهب البروتستنتي، وتجسد كل هذا في اعلان حقوق الانسان الذي اصدرته الثورة الفرنسية التي حرصت على الغاء كلمة الدين من أية وثيقة دستورية ، وكانت في كل هذا نموذجا للثورات التحررية التي عمّت اوربا وانهت عهد الاقطاع . وهكذا، بعد تخلف حضاري طويل، فتح باب التطور واسعا امام اليهود ليغادروا الطور القبلي ويندمجوا في المجتمعات الاوربية التي يعيشون فيها . وقد غادرته الكثرة الغالبة منهم خاصة في- اوربا الغربية حيث اصبحوا افرادا عاديين في مجتمعاتهم ، وتخلفت عن الركب الحضاري قلة قبلية متناثرة في اوربا الشرقية المتخلفة بدورها. وقد كان من الممكن أن ينتهي الامر بتلك القلة- الى ان تتطور وينتهي عهد العصبية اليهودية لولا ان الليبرالية التي جاءت بالتسامح الديني في ظل " الاخاء والحرية والمساواة " قد جاءت أيضا بالنظام الرأسمالي .

بقانون المنافسة الحرة واطلاق الافراد من أي التزام من قبل المجتمع الذي ينتمون اليه. ثم بعدم تدخل الدولة في النشاط الفردي على أساس ان " مصلحة المجتمع ستحقق حتماً وتلقائيا من خلال تحقيق كل فرد مصلحته " بحكم القانون الطبيعي . واخيرا باباحة الكذب والغش والخديعة والتعسف والربا والغبن والاكراه الاقتصادي والادبي طبقا للقاعدة القانونية الليبرالية الشهيرة : " القانون لا يحمي المغفلين ". فاتاحت الرأسمالية للعنصرية اليهودية المتخلفة اوسع الفرص لتجسد- ايجابيا- عداءها القبلي " المقدس " للشعوب بوسائل اصبحت مشروعة في ظل الليبرالية. وتحول كل "جيتو" الى وكر تآمر وتخطيط وتعبئة نشيط ومعادٍ لكل ما ومن ليس يهوديا . وانطلقت العنصرية اليهودية بذهنية " المؤمنين " بامتيازهم في مجتمعات يرفضون الانتماء اليها، في ظل نظم تبيح لهم الاستغلال، ليفرضوا سيطرتهم على الشعوب بكل الوسائل . ولم يكن غريبا ان ينتهي كل هذا الى ان يصبح اليهود في المجتمعات الرأسمالية هم سادة " المال " المسيطرين على ارزاق الناس من خلال البنوك. ان هذا أمر جدير بالتأمل . لماذا يفضل اليهودي

عنصر المال ليكون مجال نشاطه وأداة سيطرته كما لو كان مثله الاعلى هو " تاجر البندقية " ؟ .. ألأن تلك هي الصنعة التي احتكروها فاتقنوها في ظل الاقطاع ؟ أم لأن عنصر المال هو، في التحليل الاخير، مناط السيطرة في الاقتصاد الرأسمالي؟... أم لان " الفائدة " اكثر ضمانا من " الربح " ؟.. قد يكون السبب واحدا أو اكثر من هذا كله ، وقد يكون هذا كله مجتمعا في تقاليد " حرفية " كما كان الامر بالنسبة الى الصناعات الاخرى في ظل الاقطاع حيث تتجمع كل طائفة من الناس حول " حرفة " واحدة يحتكرونها ويتوارثونها ، ولكنه ما بقى بعد انقضاء عهد الحرفيين الا لأنه يتفق مع العنصرية القبلية الموروثة. ذلك لأن النظام الرأسمالي في نشأته كان نظاما تقدميا بالنسبة الى النظام الاقطاعي الذي كان سائدا في اوربا في قبله. وقد استطاعت الرأسمالية أن تحول المجتمعات الاوربية الزراعية الى مجتمعات صناعية وان ترسي أسس حضارة مادية وعلمية معا حققت قدرا من التقدم الاجتماعي يمثل الجانب الايجابي البناء من اثارها. ويبدو ان الخلفية المعادية للشعوب التي كانت ثمرة الجمود العنصري الذي تربت عليه اجيال متعاقبة من اليهود في اوربا ، حالت دون ان يجد اليهود في البناء الاقتصادي وما يصاحبه من تقدم اجتماعي ما " يغريهم " فاختاروا البنوك كأدوات للسيطرة على المجتمعات ولم يختاروا " المصانع " لانها أدوات البناء الاجتماعي . وسيختارون بعد ذلك ا لصحافة والاعلام عندما تصبح أدوات للسيطرة . وسيختارون الارهاب المسلح ويتقنون استعماله كما اتقنوا استعمال المال والصحافة والاعلام في المجتمعات التي عاشوا فيها . كل ذلك لسبب بسيط هو انهم لا يعتبرون تلك مجتمعاتهم ليسهموا في بنائها بل يعتبرونها اعداءهم فعليهم بأمر "يهو" أن يسيطروا عليها أو يخربوها. ان هذا يفسر- فيما نعتقد- الصورة الاوربية لليهودي الجبان الذليل الخائن.. وليس الجبن وقبول المذلة والخيانة لصيقة بأي دين وعلى وجه خاص ليست واجبا دينيا على اليهود الذين يعلمهم دينهم الشراسة ويمجد العدوان ويقيم امتيازهم على القوة الجسدية التي من اجلها اصطفاهم الله شعبا مختارا . انما كان الجبن والخيانة وقبول المذلة تعبيرا عن- رفض اليهودي مخاطر المغامرة الايجابية وضريبة الوطنية من اجل المجتمع المرفوض اصلا . وكان قبول المذلة تحايلا على المجتمع الاقوى " قيدوا ارجلهم وانتم راكعون " . باختصار يلتزم اليهودي قيمه القبلية الخاصة ويرفض الالتزام بقيم المجتمع الذي يعيش فيه فيبدو شاذا في مجتمعه لانه يرفض الاندماج فيه، ولا يرى هو في موقفه شذوذا لان الانعزال عن " الغرباء " والعداء لهم فضيلة قبلية.

على أي حال ، عندما انتبهت الشعوب الاوربية الى الاستغلال الرأسمالي الذي ابتلع أو كاد المكاسب التي كانت مأمولة من وراء ثورات التحرر من الاقطاع التفتت الى تلك " الطائفة القبلية " التي تقاوم التطور الحضاري وتجسد الكراهية. والاحتقار لكل من لا ينتمي اليها ، وتتآمر خفية فتصنع لها لغات خاصة لا يعرفها غيرها (اليبدش في شرق اوربا وهي مشتقة من الالمانية واللادنيو في غرب اوربا وهي مشتقة من الاسبانية) ، وقبل هذا وفوقه تموّل النظام الرأسمالي وتدير حركته الاستغلالية من مقاعدها في البنوك. وكان للمستغلين الرأسماليين من غير اليهود مصلحة لا شك فيها في ان يوجهوا غضب الجماهير المقهورة بعيدا عن النظام الرأسمالي الاستغلالي فاشتركوا بوسائل شتى في تركيز الانتباه على العنصرية اليهودية ، وحملوها وحدها مسئولية الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي الذي تعانيه الشعوب، حتى تخرج الرأسمالية بريئة. وهكذا تعاظمت موجة كراهية اليهود واحتقارهم واضطهادهم التي عرفت بـ " معاداة السامية " . اما لماذا السامية مع ان يهود اوربا ليسوا ساميين ، فلأنهم لو اسموها اسما " معاداة اليهودية " لفضحت دعاوى التحررية والعلمية التي تروجها الرأسمالية المنافقة. وهكذا نمت مشكلة اليهود في اوربا من بذور عنصرية طائفية متخلفة تغذت من عفن الرأسمالية المستغلة.

ولم يكن حل المشكلة خافيا حتى على الاغلبية الساحقة من اليهود الذين تحرروا من البداوة القبلية واندمجوا في مجتمعاتهم . فقد كان الحل يقتضي ان تتحرر الاقلية اليهودية من اساطيرها الخرافية وان تتجاوز الطور القبلي لتندمج في المجتمعات التي تعيش فيها كما فعلت الاكثرية . وكانت الاشتراكية المطروحة افكارها بقوة خلال القرن التاسع عشر تمثل الامل الاجتماعي الذي تنتهي به، والى الابد، كل أنواع القهر . كان ذلك هو الحل التقدمي لمشكلة اليهود في اوربا ومشكلة المجتمعات الاوربية بما فيها من يهود . وضد هذا الحل بالذات تحالفت اقلية يهودية متخلفة تقاوم حركة التطور وتتحالف مع الرأسمالية الاستعمارية التي تستغل البشر جميعا بما فيهم الاقليات المتخلفة.

وشهد عام ١٨٩٧ مولد منظمتين من العنصريين اليهود. كل منهما منظمة " صهيونية " . ستحاول المنظمة الاولى افساد حل المشكلة اشتراكيا فتفشل . ينجح الحل ويهرب العنصريون . وتقوم الثانية بالتحالف مع القوى الاستعمارية فتنتجح الى حين فتقوم في الأرض العربية دولة عنصرية في سنة ١٩٤٨.

أما المنظمة الاولى فهى " الاتحاد العام للعمال اليهود في روسيا وبولندة " (البوند) . ويلاحظ منذ البداية انها منظمة لليهود دون غيرهم في كل من روسيا وبولندة أي بدون اعتداد بالانتماء القومي لأي من الامتين الروسية والبولندية لانها تعتبر أن " اليهودية " رابطة ثالثة وذلك هو مميزها العنصري . ومن ناحية ثانية انها منظمة عمالية تستهدف الاشتراكية وقد اصبحت جزءا. من "حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي " القائم على منطلقات فكرية ماركسية. فقد تشكل " البوند " سنة ١٨٩٧ كواحد من المنظمات العديدة التي كانت تكون ما عرف باسم الحركة الاشتراكية الديموقراطية في شرق اوربا. وقد اجتمعت تلك المنظمات في منسك سنة ١٨٩٨ واتفقت على أن تتوحد في " حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي " الذي تم انشاؤه فعلا في المؤتمر الثاني (التأسيسي) الذي انعقد في بروكسل ثم في لندن سنة ١٩٠٣. وفي ذلك المؤتمر التأسيسي اقترح ممثلو " البوند " أن يكون هو الممثل " للبروليتاريا " اليهودية داخل اطار " حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي " الذي يجب أن يقوم على أساس فيدرالي . ولم يقبل المؤتمر رأيهم استنادا الى أن " الفيدرالية " تضعف قوة الحزب المركزية فانسحب ممثلو " البوند " من المؤتمر، وحدث الانشقاق بين البلشفيك والمنشفيك ، ولكن البوند ، والبلشفيك، والمنشفيك، كلهم بقوا اعضاء في الحزب حتى المؤتمر الرابع (التوحيدي) الذي انعقد في استوكهلم سنة ١٩٠٦. وفيه حصل " البوند " على اعتراف الحزب بوضعه الخاص كممثل للماركسيين اليهود، في ذلك الوقت كان الحزب يضم عديدا من المنظمات و " الشلل " التي تتنازع المعرفة بالماركسية وتمثيل الطبقة العاملة، وكان " البوند " وا حدا منهم ، ولم يكن البلاشفة بزعامة لينين الا شلة أخرى لم تنتصر بعد في الصراع الايديولوجي الذي كان ثائرا فيما بينهم ودار اغلبه حول ماعرف باسم " المسألة القومية". ولما لم تكن ثمة " نظرية ماركسية في القومية " (٤) ، وكان الامر متروكا للاجتهاد من خلال الممارسة لم يجد الماركسيون تناقضا بين أن يكون اليهود عنصريين وماركسيين معا. ولقد كانت الممارسة سنة ١٩٠٦ تقتضي وحدة كل الماركسيين والاشتراكيين لأن الثورة ضد القيصرية كانت قد بدأت سنة ١٩٠٥ لتنتهي بالفشل سنة ١٩٠٧. ولقد شن النظام القيصري ، بعد فشل الثورة، حرب ابادة وحشية ضد كل الذين حرضوا عليها أو قادوها أو اسهموا فيها أو رحبوا بها. وكانت مجزرة. هاجر على اثرها جانب كبير من اليهود كما هاجر لينين نفسه ثم يعود لينين سنة ١٩١٧ ليقود الثورة مرة أخرى وينجح . ويخوض الماركسيون ابتداء من سنة ١٩١٧ حربا اهلية شرسة ضد الثورة المضادة فتهاجر دفعة أخرى من اليهود "الاشتراكيين". اولئك الذين قدموا لنا امثال ويزمان وبن جوريون وشاريت . ولنا هنا ثلاث ملحوظات . الاولى ما قيل من أن حرب الابادة التي شنها القيصر بعد فشل ثورة

١٩٠٥ كانت موجهة ضد اليهود لان القيصر كان من أعداء السامية ، وهو غير صحيح . فقد كانت ثورة مضادة لتصفية قوى ثورة ١٩٠٥ ولم يكن اليهود ولا " البوند " نفسه هم القوى الاساسية أو الوحيدة في ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . الملحوظة الثانية ان كل القوى التي هاجرت بعد فشل الثورة أو نفيت الى مجاهل سيبيريا لم تتوقف عن الكفاح ولم تلبث أن اجتمعت في ساحة ثورة ١٩١٧ المنتصرة ، الا العنصريون اليهود من اعضاء البوند. فما ان غادروا أرض الوطن حتى نسوا الماركسية والاشتراكية والطبقة العاملة وتحالفوا مع القوى الاستعمارية. الملحوظة الثالثة ان الكثرة من اليهود المتحررين من العنصرية الذين بقوا في الاتحاد السوفيتى بعد نجاح الثورة واسهموا في بناء الاشتراكية قد اندمجوا في مجتمعهم بيسر ذي دلالة قوية على أن مشكلة اليهود في اوربا هي مشكلة العنصرية والاستغلال وليست مشكلة افتقاد ارض يعيش عليها اليهود . فما ان يتحرر اليهود من التخلف القبلي ويتحرر المجتمع من الاستغلال الرأسمالي حتى تنتهي المشكلة . وليس ادل على هذا من ان الاتحاد السوفيتى يضم " جمهورية خاصة باليهود (بيروبيجان) لم تعد عنصرية. يقيم غير اليهود فيها كما يقيم اليهود في كل مكان من الاتحاد السوفييتى بدون أن توجد مشكلة . وهكذا افسدت العنصرية اليهودية على اصحابها أفضل الحلول التي قدمتها اوربا لمشكلة اليهود . كيف اذن كان العنصريون اليهود ماركسيين واشتراكيين ، وكيف انهم في الارض المغتصبة يقيمون المزارع الجماعية، ويعيشون في جماعات متماسكة، وينتهجون الاسلوب الجماعي في الانتاج ؟... كيف يتفق أن يكونوا عنصريين ما يزالون في مرحلة الطور القبلى وهم – فيما يبدو- ماركسيون أو اشتراكيون؟...

هذه هي الخدعة التي لا يمكن اكتشافها من منطلق مادي على ضوء تطور اساليب الانتاج . ولكنها تصبح واضحة اذا نظرنا اليها من منطلق انساني قومي " ينظر الى المجتمعات خلال حركتها الجدلية التي لا تتوقف من الماضي الى المستقبل " ٠ ان بين المجتمع القبلي العنصري اليهودي والمجتمع الاشتراكي تقاربا في اسلوب الانتاج الجماعي . ولكن علاقات الانتاج الجماعي مرتبطة بالطور الذي يمر به المجتمع ولا تكون تقدمية بذاتها. والماركسيون أول من يجب أن يعرفوا هذا فعندهم يبدأ التطور الاجتماعي بالشيوعية الاولى وهي أكثر مراحله انحطاطا وينتهي بالشيوعية الاخيرة وهي أكثر مراحله تقدما . وفي كليهما تتشابه علاقات الانتاج الخالية من الملكية الخاصة ومع ذلك لا ينخدع أحد في الفارق الحضاري بينهما . فاذا كان اليهود في الارض المغتصبة يقيمون المزارع الجماعية ويعيشون في جماعات متماسكة فلأن اسلوب الانتاج الجماعي هو اسلوب الانتاج القبلي . ويمكن التمييز بين ما اذا كان اسلوبا قبليا أو اسلوبا

اشتراكيا من خلال موقف اصحابه من المجتمعات الاخرى . فعندما يكون مصحوبا بالانغلاق الداخلي والعداء للغير يكون اسلوبا قبليا متخلفا حتى عن اسلوب الانتاج الفردي ، وعندما يكون انسانيا سليما فهو متجاوز اسلوب الانتاج الفردي الى الاسلوب الجماعي الاشتراكي . طبقا لهذا المقياس لا نكون في شك من حقيقة العلاقات الجماعية السائدة في الارض المغتصبة، انها القبائل اليهودية قد انتقلت من " الجيتو" الى أرض فلسطين لتعيش ذات علاقاتها القبلية المتخلفة : التضامن بين افراد القبيلة والعداء للاخرين. والكابوتز المسلح هو القبيلة التي ما تزال تعيش في القرن العشرين . وفي افريقيا الاف من هذه الجماعات القبلية تعيش معا حياة اكثر جماعية من اليهود في فلسطين ولا يقول احد بانها مجتمعات اشتراكية. ولا يغير من هذا ان المجتمع القبلي في اسرائيل يستعمل ارقى أدوات الانتاج تطورا في هذا الزمان . فمن قبل تعلمت قبائل الهنود الحمر استعمال ارقى أدوات القتال في زمانها ومع ذلك ظلت في طورها القبلي . وتستعمل كل الشعوب - الان- أدوات انتاج متشابهة في تقدمها الفني ومع ذلك تختلف حضارة وتطورا . لان " كما يكون الناس يكون تطورهم الاجتماعي " (فقرة ١٨) . ثم ان " التفرقة العنصرية" المعترف بوجودها في مجتمعات تبلغ فيها أدوات الانتاج أرقى ما وصل اليه العلم ليست الا المميز القبلي للمجتمعات التي تعيش في ذلك الطور المتخلف وتستعمل أدوات القرن العشرين . ان الجماعية - اذن- هي التي كا نت تغري كثيرا من العنصريين اليهود باعتناق الماركسية، ولكن الماركسية ليست عنصرية. وعندما تتستر العنصرية بالماركسية يكون على كل ماركسي أن ينظر الى المجتمعات نظرة اشمل من أدوات الانتاج وعلاقاته، عندئذ سيتبين بوضوح ان العنصريين في الارض العربية المغتصبة يعيشون في الطور الاجتماعي اللاحق للشيوعية البدائية وليس الطور الاجتماعي السابق على الشيوعية الاخيرة ، وانهم — بالتالي عندما يتطورون سيدخلون الطور الرأسمالي . ويقدم تطورهم منذ سنة ١٩٤٨ حتى الان دليلأ واضحا على انهم يدخلون مرحلة الفردية. وآيتها الكثرة غير المتناسبة مع عددهم من الاحزاب وهو ما نلاحظه في مراحل الليبرالية الاولى - ويدخلون مرحلة الرأسمالية وآيتها التحالف الذي يزداد يوما بعد يوم مع الرأسمالية الغربية وهذا لا ينفي ان جماعات من الرأسماليين المتحررين من القبلية اليهودية تعيش في اسرائيل أو تحالف الصهاينة خاصة منذ ان اصبحت لهم دولة لتستغل العنصرية الصهيونية ودولتها معا. ولكن ان يكون - في الارض المغتصبة عنصري واشتراكي معا، أو ان يعيش الاشتراكيون في ظل الروابط القبلية التي نسجتها الاساطير والخرافات ، فتلك مقولة لا تستحق الا السخرية .

المهم ان الاشتراكية في الإتحاد السوفيتي قدمت للعنصريين اليهود افضل الحلول التقدمية ليغادروا الطور القبلي . قدمت لهم الارض والامن وفرص الانتاج وعدالة التوزيع . فرفضوها. لماذا؟

هنا يأتي دور المنظمة الثانية التي ولدت عام ١٨٩٧ أيضا وتحالفت مع القوى الاستعمارية. انها المنظمة " الصهيونية " التي تأسست في مؤتمر بال وحددت هدفها بانه اقامة دولة لليهود في فلسطين، وجمعت العنصريين اليهود في اوربا الغربية. وهي المنظمة التي سينضم اليها اصحاب تجربة " البوند" والتي ستحقق نجاحا مطردا في مخططاتها فتقيم دولة اسرائيل في سنة ١٩٤٨. انها المنظمة التي جمعت شتات " القبائل " اليهودية لتقيم منهم دولة قبلية على ارض فلسطين . واول سؤال تطرحه تلك المنظمة علينا هو لماذا نجحت؟.. وقبل ان نجيب ينبغي أن نذكر ان المجتمعات الاوربية بالرغم . من تقدمها ما تزال عامرة بالجماعات المتخلفة التي لم تتجاوز الطور القبلي . لا نضرب قبائل الغجر مثلا ، بل نضرب مثلا قبائل اللابيين الذين يعيشون في السويد والنرويج وفنلندا وروسيا . ان هذه ظاهرة متكررة في كل الامم ولنا منها نصيب لا ينكر. ومصير كل هذه الجماعات- المتخلفة ان تدرك تطور مجتمعاتها. اذن ، فمهما تكن اساطير العنصرية اليهودية كان التطور الاجتماعي في اوربا كفيلا في النهاية بان ينتزعها من روابطها القبلية لتلحق بمجتمعاتها ، لولا ان " قوى " أخرى كان لديها دور تبحث له عمن يؤديه . تلك هي القوى الاستعمارية .

ففي اواخر القرن التاسع عشر كان الاستعماريون قد استولوا على العالم كله وبدأت مهمة المحافظة على مواقعهم فيه. ومن اجل هذا انعقد في لندن سنة ١٩٠٧ مؤتمر استعماري ليوصي بما يراه كفيلاً بالمحافظة على السيطرة الاستعمارية. وقد قدم عدة توصيات كان نصيب الوطن العربي منها ما يلى: " ان اقامة حاجز بشري وقريب على الجسر البري الذي يربط اوربا بالعالم القديم ويربطها معا بالبحر الابيض المتوسط بحيث يشكل في هذه المنطقة على مقربة من قناة السويس قوة معادية لشعب المنطقة، وصديقة للدول الاوربية ومصالحها هو التنفيذ العملي للوسائل والسبل المقترحة " .

وفي سنة ١٩٣٧ نشر في فرنسا كتاب تحت عنوان " الله اكبر" يتضمن تقريرا كان مقدما الى احد قادة الحركة الصهيونية في النمسا هو الدكتور فولفجانج فايست يقول كاتبه : " ان خلاصة الاسباب

الجدية للكفاح من اجل الارض المقدسة هو موقعها الاستراتيجي وتأثيره في مستقبل المنطقة. فلو عادت فلسطين الى دولة عربية موحدة تضم مصر لقامت هناك قوة عربية مسلحة تستطيع أن تتحكم في قناة السويس والطريق الى الهند . أما اذا ظلت فلسطين مستقلة، أو اصبحت دولة يهودية، فانها ستقوم عقبة في سبيل انشاء هذه الدولة الكبرى حتى لو تمت الوحدة بين دولة عربية وأخرى على جانبي فلسطين - ان دولة صغيرة " حاجزة " تقوم على ١٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع على ضفتي نهر الاردن ستحمي كل دولة عربية ضد تدخل أية دولة عربية أخرى ... ان توازن القوى حول قناة السويس يتوقف اذن على استقلال فلسطين عن العالم العربي . يتوقف على دولة في فلسطين تكون مثل سويسرا عند ملتقى القارات الثلاث . ان هذا الاستقلال يتفق تماما مع طموح الاستعمار اليهودي، ذلك لان اليهود وحدهم هم الذين ستكون لهم مصلحة في هذا الاستقلال وليس العرب، اذ ان هؤلاء سيكونون من الدعاة المتحمسين للاندماج في دولة عربية كبرى (٥). وهكذا حالت القوى الاستعمارية دون أن تذوب العنصرية اليهودية في حركة التطور الاجتماعي في اوربا، وغذت تلك العنصرية بادوات القوة وسهلت لها ان تغتصب ارض فلسطين لتكون هناك حارسة لقناة السويس وحائلة دون الوحدة العربية . وضمت صفحات التاريخ اكبر كذبة شهدها التاريخ . اليهود يغتصبون ارض فلسطين فرارا من اضطهاد الدول الاوربية ولكن بمساعدة الدول الاوربية و خدمة لمصالحها.. ابعد ما يكون عن الحقيقة اذن ان يقال ان اليهود ما جاءوا الى فلسطين الا لانهم يفتقدون وطنا يعيشون فيه. انما جاءوا ليغتصبوا الارض العربية ويقيموا دولة حارسة للمصالح الاستعمارية تحول دون أن تحقق الامة العربية كل ما هي قادرة عليه من تطور اجتماعي في ظل دولة الوحدة. جاءوا بمساعدة القوى التي لا تريد لهذا الشعب العربي أن يعيش بما يملك. لم يجيئوا لانهم يهود، ولا لانهم اشتراكيون ، ولا لانهم يريدون الاعتداء على دولة عربية معينة ، ولا لأن المجتمع الدولي كان في حاجة - حتى يسود قانونه- الى وجودهم في فلسطين، بل ليقيموا على الارض العربية مخفرا مسلحا يكرس تخلفها ويمنع وحدتها.

هذي هي الصهيونية كما نراها من الموقف القومي وطبقا لنظريتنا القومية. ولو كنا قد استوعبنا نظريتنا هذي لادركنا من ابعاد مشكلة فلسطين ومخاطرها المقبلة اكثر مما يدرك سوانا. انها نذر على اكبر قدر من الجدية تنذرنا بها نظريتنا القومية التي علمنا أن الامة تدخل مرحلة التكوين القومي باستقرار الجماعات القبلية (تحمل كل منها لغتها وثقافتها وتقاليدها) على أرض معينة ومشتركة وبها تحل مشكلة الهجرة وتتميز بالاستقرار على الارض عن الطور

القبلي . ثم تبدأ في التكون وتحدد خصائصها خلال مواجهة المشكلات المشتركة والمشاركة في حلها. اذن ، ولينتبه الشباب العربي، أن الصهيونية تحاول منذ ١٩٤٨ أن " تصنع أمة " من اشتاتها القبلية بأن تستحوذ على ارض تكون خاصة بها. ولا بد لكي تنجح من أن " تستقر" على الارض "وتختص " بها فترة زمنية كافية تبني فيها حضارتها الخاصة وتصبح بها أمة. وقد كان عام ١٩٤٨ هو البداية ولكن الزمان أمامهم ما يزال طويلاً، فان الامم لا تتكون في عشرات السنين فلا نجزع . ان الولايات المتحدة الامريكية ذاتها ما تزال، منذ الا ستقلال ، أمة في دور التكوين ولكن الصهاينة دا ئبون على تنفيذ مخططاتهم، ولقد اغتصبوا الارض ولكن لم يستقروا عليها. وعلى أرضها يعيش ثلاثة ارباع مليون عربي واكثر فهي ليست خاصة بهم داخليا ، وقد قطعت معركة ١٩٦٧ كل استقرار سابق. ولكنهم على أي حال استطاعوا أن يحيوا لغتهم الميتة فاصبحت لهم لغة مشتركة. ولو سمح الشعب العربي للصهاينة بالاستقرار على الارض حتى تكون خاصة بهم ويبنوا عليها حضارة خاصة، فانهم سيصبحون أمة، شاء الشعب العربي أم لم يشأ، لان فعالية قوانين التطور حتمية ولا تتوقف على رغبات أحد، والماضي يمتد تلقائيا في المستقبل اذا لم يتدخل الناس ايجابيا لتغييره ، ويوم أن يصبح للصهاينة أمة في فلسطين لن يستطيع أحد ان ينتزعها منهم مرة أخرى . لعل هذا أن يكون واضحا. فانه يحدد لنا التزامات عينية داخل الارض المغتصبة وخارجها حتى قبل أن تزول دولة اسرائيل. هذا ما نقوله نحن .

فماذا تقول الصهيونية عن نفسها؟.

اذا كنا سنعود الى الاساطير الخرافية مرة أخرى فلعل هذا لا يصدم المعجبين " بالتقدم الحضاري " لاسرائيل ذلك لاننا لا نسند الى الصهاينة غير ما يقولون . ولا نستند من بين ما يقولون الا الى الصهاينة العلماء، الماديين، الذين لا نظن انهم يرعون شرائع الدين اليهودي . انهم - كما لا بد نتوقع- لا يقولون ان الصهيونية حركة عنصرية قبلية متخلفة. بل يقولون انها حركة قومية. والصهيونية هي ذاتها القومية. اما الامة فهم اليهود في كل انحاء الارض ومن جميع الاجناس والالوان . ثم انهم لا ينكرون ان ليس لليهود لغة واحدة وانهم لم يعيشوا منذ عشرات القرون على ارض واحدة، ولم يشتركوا في بناء حضاري واحد. كل هذا لا ينكرونه. ولكنه عندهم غير لازم لتكون الامة امة. فالنظرية الصهيونية في الامة والقومية تقوم على أساس ان وحدة الثقافة، والتاريخ الثقافي هو المميز الاساسي للأمة. فاذا قيل ان اليهود المثقفين قد شاركوا في كل ثقافات العالم، وكل منهم اسم بقدر ما استطاع في ثقافة مجتمعه الذي يعيش فيه، قالوا ان العبرة بالاتصال التاريخي للثقافة وهذا متوافر في الثقافة الدينية لليهود منذ الشتات الى الان،

فهم- اذن- امة. هل هي امة ممتازة؟.. لا. ان تعبير " شعب الله المختار" هو للتمييز وليس للامتياز. فليكن. فليس لكل هذا من آثار فيما يعنينا في هذا الحديث . اذ ان الذي يعنينا هو عنصر الارض . ان كنتم أمة الان ، وكنتم دائما امة، وانتم تعيشون فعلا على الارض وسط مجتمعاتكم فلماذا تتركون " اوطانكم " ؟.. لان تلك المجتمعات لم تقبلنا قط ، انها رفضت انتماءنا اليها وما تزال ترفض وقد تعرضنا في تاريخنا الطويل لكل أنواع الاضطهاد الظاهر وما " يزال هذا الاضطهاد مستترا. حتى الذين اندمجوا- كما يقال- في مجتمعاتهم يشعرون بالغربة واذا كانوا يرفضون الانتماء علنا الى الحركة القومية (الصهيونية) فلأنهم يخشون ان ينفجر العداء الكامن ضدهم فهم يساعدونها خفية أو علنا تبعا للظروف. واذا كانت الحركة الصهيونية لا تضم الا القلة من اليهود فلان تلك هي القلة الواعية انتماءها القومي فهي الطليعة المنظمة التي تقود الحركة القومية ، وآجلاً أو عاجلاً ، سينضم اليها كل اليهود. اذا كان الامر كذلك فلماذا لا تقاومون الاضطهاد في مجتمعاتكم ولو بالتحالف مع باقي المضطهدين هناك بدلاً من الفرار؟.. لا فائدة ان الحل الوحيد أن تكون لنا أرض خاصة نقيم عليها مجتمعنا ونعيش فيها حياتنا. لماذا اذن لم تقبلوا الاقامة في الارض الخالية التي عرضت عليكم في اوغندا؟... لاننا نريد أرض فلسطين .

لماذا فلسطين بالذات؟...

هنا يعود المثقفون العلماء، المتحضرون ، الماديون ، التقدميون الى الاساطير . اننا نلخص ما قالته نخبة مختارة من هؤلاء جميعا ونشره سارتر في عدد خاص (٩٩١ صفحة) من مجلة " الازمنة الحديثة " في يونيو سنة ١٩٦٧. قالوا ان الثقافة اليهودية التي هي مناط التكوين القومي للامة اليهودية قائمة على عدة اساطير دينية وميتافيزيقية . هذا صحيح . ولسنا نحتج بصحتها العلمية. وانما نحتج بالاثار الاجتماعية التي احدثتها تلك الاساطير في الجماهير اليهودية وصاغت بها تكوينها الاجتماعي . فمثلا تلقى اليهود من الله وعدا بان تكون لهم أرض فلسطين . هكذا جاء في التوراة " لنسلك اعلى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات " (سفر التكوين، اصحاح ١٥، آية ١٨) . ومنذ ذلك الحين انقضت عشرات القرون . لا ننكر اننا خلالها لم نكن نعيش على أرض فلسطين، وان شعباً عربياً هو الذي كان يعيش عليها، ولكن هذا لا يغير من الواقع شيئا. والواقع انه طوال تلك القرون يعيش اليهود في الشتات على أمل العودة الى ارض " الميعاد " كأثر من آثار ايمانهم الديني بان تلك هي الارض التي وعدهم الله بها . وبصرف النظر عن الجانب اللاهوتي فان الاثر الاجتماعي كان وما يزال قائما يصوغ حياة اليهود نفسيا واجتماعيا ويرددونه في اجتماعاتهم وفي صلواتهم ويذكرون به في كتبهم ويقوم محورا في

ثقافتهم القومية : ان ارضنا تمتد من الفرات الى النيل هي ارضهم . هذا هو الذي ابقاهم أمة لم يذوبوا في الامم الاخرى بالرغم من توالي الاجيال وهم في الشتات. وهذا هو الجانب المهم من الاسطورة لأننا قد نكذب الاسطورة ولكنا لا نستطيع أن ننكر أو نتجاهل أثرها الاجتماعي . وقد أخذ علينا الناس ما قاله بعضنا من ان فلسطين أرض بلا شعب فلا بد من أن تعطى لشعب بلا ارض . ولو فهمونا لما أخذوا علينا ما نقول . فالعبرة عندنا ليست بالصلة المادية التي تتمثل في اقامة شعب " غريب " في ارضنا ولكن العبرة بالصلة الروحية بيننا وبين الارض . ومهما تكن الارض عامرة بمن يقيم فيها فانها خالية بالنسبة الينا الى أن نعود اليها نحن أصحابها. ان تلك الصلة لم تنقطع أبدا فلم ينسى أي يهودي أرض فلسطين والعودة اليها. ولا يقال لنا ان ذلك ايجابا ذاتيا من ناحيتنا فان القبول الذي تتم به الصلة قد جاء من الارض ذاتها. فلو راجعنا التاريخ لتبين لنا على وجه لا يمكن انكاره حتى لو لم يستطع العلم اثباته ان ارض فلسطين لم تمنح كل عطائها الا لنا نحن اليهود الموعودين بها. وهكذا لن تستطيع الامة اليهودية أن تسهم بكل ما هي قادرة عليه في التقدم الحضاري الإعلى أرض فلسطين، ولا تغني عنها أرض اخرى . كما ان ارض فلسطين لن تقدم كل ما تنطوي عليه من عطاء الا للشعب اليهودي ، ولا يغني عنه شعب اخر. انما تثور المشكلة لأن الدول العربية لا تريد أن تقبل المهاجرين من ارضنا في اراضيها الواسعة التي هي في اشد حاجة الى مزيد من البشر. وبدلا من هذا تبقي عليهم في المخيمات، وتستعملهم " كورقة سياسية " في مناوأة دولتنا لانها لا تريد أن تعترف بوجودنا في حدود آمنة وفي ظل علاقة جوار نتبادل خلالها الخبرات لنحقق التقدم الاجتماعي في " منطقتنا ". وما هي حدود دولتكم طبقا لدستورها ؟ صمت مطبق . لان اسرائيل "الدولة العلمانية المتحضرة ".. تستغني بالتوراة عن الدستور . وهي دولة مسالمة فلا تريد أن ترسم لذاتها حدودا اكتفاء بما نقلته على جدار الكنيست من اساطير التوراة " من الفرات الى النيل ". أما عن مهمة خدمة المصالح الاستعمارية والتحالف مع الامبريالية، فان الصهيونية تتحالف مع من يحالفها مرحليا ولكنها لا تخدم الا غاياتها ولولا عناد الدول العربية ورفضها الاعتراف باسرائيل وتهديدها بالقاء اليهود في البحر لما استمر تحالف اسرائيل مع الامبريالية. فما على العرب الا ان يعترفوا باسرائيل ويقبلوا التعامل معها حتى تستطيع " القوى التقدمية " فيها أن تحرر اسرائيل من ذلك الحلف لتتحالف مع القوى التقدمية العربية في سبيل مستقبل أكثر تقدمية للجميع . هذه الخلاصة الاخيرة منقولة مما كتبه الذين يدعون الاشتراكية هناك .

هذا ما يقوله الصهاينة " العلمانيون " بعد عشرين عاما من قيام اسرائيل على الارض العربية. أما ما يقوله الصهاينة المتدينون فهو أقل علما بكثير. ومع هذا فهم لا يختلفون جميعا فيما يهمنا.. وما يهمنا هنا هو أن نعرف نوايا ومخططات الصهاينة بالنسبة، الى أرضنا العربية ؛ فكلاهما يرى :

اولا: ان اليهود في جميع أنحاء العالم أمة، وان الصهيونية قومية، وان الحركة الصهيونية حركة قومية غايتها استرداد أرضها الخاصة من الشعب العربي ، ويكون علينا ان نستنتج انهم يريدون الارض خالية من البشر لانها لازمة لاقامة الشعب اليهودي . وهذا مارسوه فيما اغتصبوه من أرض حتى الان . وهم يريدونها لاستقبال الشعب اليهودي كله الذي يبلغ ١٢ مليونا. وهذا ما ارسوا قاعدة ممارسته بقا نون " العودة " الشهير الذي يمنح كل يهودي الجنسية الاسرا ئيلية بمجرد الاقامة في اسرائيل . وبالتالي فهم يريدون ارضنا خالية من البشر تتسع لسكنى الشعب اليهودي كله فهي لا بد ان تمتد الى اضعاف اضعاف ارض فلسطين . وهذا يمارسونه بقدر ما يستطيعون . ولما كانت الارض التي يريدونها ليست محددة بقدرتها على استيعاب الصهاينة الذين يهاجرون الى اسرائيل ولكن محددة على أساس انها " الوطن القومي " للامة اليهودية فان حدودها لا بد من ان تكون مطابقة " للحدود التاريخية " لارض اسرائيل . وهذا ما سيمارسونه مرحلة مرحلة ولن يتوقفوا دونه قط طالما كانوا قادرين . نريد أن نقول انه طبقا لذات " النظرية" الصهيونية التي يلتقي عليها الصهاينة ويلتزمون بها في الممارسة ويحتكمون اليها عند الاختلاف ويثيرون تحت لوائها مشكلة فلسطين، فان مشكلة فلسطين، كما ينبغي أن نفهمها حتى من نوايا اعدائنا، هي مشكلة ارض عربية يريدونها خالية من الفرات الى النيل .

ثانيا: ان الطرف الاصيل الذي نصارعه ليس هو اسرائيل الدولة، بل هو الصهيونية المنظمة. وليست اسرائيل الا الاداة الرسمية المنفذة لارادة المنظمة الصهيونية. وبالتالي لا ينبغي أن نعول كثيرا على القرارات والمواقف التي تأخذها اسرا ئيل والتي قد تضطر اليها تحت تأثير المجتمع الدولي . ان تلك القرارات قد تلزم دولة اسرائيل التي كانت قائمة يوم ان قررتها ولكنها لا تلزم المنظمة الصهيونية التي لن تكف عن محاولة اقامة اسرائيل أخرى ، اسرائيل الكبرى .

ثالثا : ان الحركة الصهيونية ذات منطلقات خاصة وغايات خاصة وأساليب خاصة. ولكنها بحكم تخلفها القبلي تفضل القوة وتمجد العنف فهي عدوانية من حيث هي عنصرية. ومع هذا فمما يدخل في نطاق أساليبها أن تتحالف مع القوى التي تتفق معها في الغايات ولو مرحليا.

وهي القوى العنصرية، أو الاقليمية، أو الاستعمارية طبقا لما يخدم غايات الصهيونية. ولكنها تظل مستقلة بمنطلقاتها وغاياتها عن تلك القوى ومستعدة دائما الى الاحتكام للسلاح . فاذا كانت قد تحالفت مع القوى الاستعمارية المتفوقة، مع المانيا اولا ثم مع بريطانيا ثم مع الولايات المتحدة الامريكية فلان المانيا كانت ذات مطامع استعمارية في الشرق العربي لم يمنعها منها الا الاستعمار البريطاني الذي حلت محله- بالاتفاق- الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب الاوربية الثانية. ان العداء للامة العربية وتحررها ووحدتها وتقدمها هو الذي يجمع بين الصهيونية وحلفائها في حلف تلتقي فيه المصالح ويتم من خلاله تبادل الخدمات ولكن يبقى لكل حليف قدر من استقلاله. فلا الصهيونية أداة للاستعمار الامريكي ولا الاستعمار الامريكي أداة للصهيونية ، انهما عدوان متحالفان ضد عدوهما المشترك : الامة العربية وهذا الحلف يتسع لكل قوى أخرى بقدر ما تشترك معه في غاياته حتى لوكانت قوى عربية لها منطلقاتها الخاصة ولها غاياتها الخاصة ولكن تلتقي مع الصهيونية – مرحلياً – في موقفها المعادي لحرية الأمة العربية ووحدتها القومية وتقدمها الاجتماعي .

فهل يرى الذين يشوهون مشكلة فلسطين إلى أي منزلق ينزلقون ؟

٤- الحل القومي : -

استرداد الأرض العربية للشعب العربي . كل الأرض العربية لكل الشعب العربي . أما كيف فهذا سؤال يتصل بالاسلوب وسنعرف الاجابة عليه فيما بعد.- المهم هنا أن ندرك باكبر قدر من اليقين بان حل مشكلة فلسطين هو استرداد الارض المغتصبة من قبضة الصهيونية التي تسميها "اسرائيل " واعادتها الى الشعب العربي . لو بقيت دولة للصهيونية ولو في " تل ابيب " وحدها فإن المعركة لن تكون قد انتهت لأن منظمة القوى المعاد ية ما تزال هناك في اوربا والولايات المتحدة واطراف كثيرة من الارض . ومن تل ابيب ستعود فتنقض . هذا بالاضافة الى أن كل ذرة تراب من الارض العربية هي ملك للشعب العربي لا بد من ان تسترد . وعندما تسترد الارض ، كل الارض ، ستحل مشكلتنا ومشكلة اليهود معا . نسترد نحن أرضنا ونضعهم هم أمام الحل الصحيح لمشكلتهم . ولا شك انهم عندما يعرفون بالرغم من كل شيء أن الصهيونية حركة فاشلة سيعيشون في مجتمعاتهم ويندمجون فيها ويتطورون . وهكذا يكون استرداد الارض العربية هو الحل التقدمي الصحيح لمشكلة فلسطين المغتصبة ومشكلة اليهود الهاربين من مجتمعاتهم .

أليس هذا تبسيطا للامور؟

ان في اسرائيل جيل سابق على قيام الدولة لم يعرف له وطنا الا فلسطين . وفي اسرائيل جيل ولد بعد قيام الدولة لا يعرف له مجتمعا الا اسرائيل . فما الذي سيكون من أمر هؤلاء فيما لو استردت الارض المغتصبة؟... كثيرون يشغلون انفسهم بالاجابة على هذا السؤال كما لو كان سؤالا جادا. وينفعلون في الحديث ويسودون الكتب ويقترحون " فلسطين الديمقراطية " كما لو كانت الصهيونية

قد انهزمت ودولتها قد زالت ، وعاد الاباء الى اوطانهم وبقيت مشكلة الجيل الجديد من ابنائهم؟.. ومع ذلك فعلينا ان نجيب. فلعل للسؤال وجها جادا نراه من الموقف القومي ولا يراه السائلون. بمجرد أن نكون قوميين نتطهر تماما، فكريا وحركيا، من خطيئة التمييز العنصري ونسترد كامل انسانيتنا، ويعودإلينا الوضوح في رؤية المشكلات ، أية مشكلات، وحلولها الصحيحة. عندئذ سننسى " حتما " كلمة يهودي ونتحرر نحن أولا من رد فعل عنصري تحاول أن توقعنا في شباكه المضللة الحركة الصهيونية فتجرنا من حيث لا ندري الى منطلقاتها ومواقفها. لو فعلنا لرأينا ، الحل القومي واضحا صريحا . فالقومية لا تقبل الاستقلال الاقليمي لفلسطين عن الامة العربية. وفلسطين الاقليمية فاشلة من الان في حل مشكلة الاقامة فيها . فهي " دويلة " يواجه فيها مليونان من المجنى عليهم مليونين من الجناة حول جسم الجريمة : الدار المهجورة وقد سكنت والارض المغتصبة وقد زرعت، والاموال المنهوبة وقد اصبحت اموال الاخرين . ثم يقال لهم لا تذكروا ما كان وعيشوا "ديمقراطيين " كأن الديمقراطية تعويذة سحرية تطهر النفوس بأمر من ا لقائلين ١٠ لقومية لا تقبل الا دولة الوحدة ودولة الوحدة أكثر رحابة من فلسطين . وفي دولة الوحدة مكان لكل الذين يريدون أن يعيشوا آمنين . وسيكون من شأن دولة الوحدة أن تعترف بالمواطنة أو بالاقامة لمن يريد أن يقيم في رحابها ممن لا ينتمون اليها أصلا كما تفعل كل الدول بدون أن يكون في هذا مساس بسيادتها. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فان للأمة العربية أبناء من اليهود في فلسطين وفي كثير من الارض. اولئك العرب اليهود. انهم لسبب أو لاخر . يحملون الهوية الاسرائيلية أو هويات أخرى اجنبية. وهم لسبب أو لآخر قد انتقلوا الى فلسطين أو غادروا الوطن العربي الى اماكن أخرى وبعضهم مجندون في المنظمة الصهيونية أو في قوات اسرائيل المسلحة . كل هؤلاء عرب بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية. وأسلاف كل هؤلاء عاشوا عربا واسهموا بما استطاعوا في تطوير أمتهم العربية. ولكل هؤلاء حق قومي في أن يقيموا في رحاب أمتهم وعلى وطنهم العربي " المشترك " في فلسطين أو في غير فلسطين . ولكل هؤلاء حق في أن تكون دولة الوحدة دولتهم القومية التي تحميهم ضد التعصب وتوفر لهم الأمن واسباب التقدم

الاجتماعي . وكل هؤلاء مطالبون بأن يعبروا عن ولائهم لأمتهم وان يرتفعوا بوعيهم إلى مستوى المسؤولية القومية وأن يعرفوا أن أرض فلسطين هي جزء من وطنهم العربي الكبير وأن لهم حق الإقامة فيها سواء كانوا فيها من قبل أو كانوا وافدين إليها من أقطار عربية أخرى وأن من حقهم أن يعودوا إليها أو إلى أي مكان في الوطن العربي ان كانوا قد غادروا أرضهم العربية . بل انهم في القومية سواء مع اخوتهم العرب الذين اكرهوا على مغادرة فلسطين لا فضل لأحد منهم علىالآخر إلا بقدر ما يجسد فكراً ومسلكاً ولاءه القومي لأمته العربية . حتى الذين تورطوا منهم فوجدوا أنفسهم في مواقع الخيانة لأمتهم . ويقتلون أخوتهم العرب طاعة لسادتهم الصهاينة ، فإن جزاءهم سيكون معادلاً لما كان لهم من حرية الاختيار وعلى ما يكون لهم من موقف يختارونه في الصراع العربي ضد الصهيونية المغتصبة. وقد تغفر لهم أمتهم كل ما تقدم لو حرروا أنفسهم من سيطرة الغاصبين الاجانب لجزء من وطنهم العربي فاسهموا في استرداده وتحريره . ولكنهم في كل الإحوال لن يكرهوا على مغادرة الارض العربية ولن يفتقدوا رعاية دولة الوحدة .

هكذا نرى الحل من الموقف القومي . من موقف تتسق صلابته وانسانيته مع انتمائنا إلى أمة عريقة ذات قيم حضارية لا يمكن أن يتدنى أبناؤها إلى القيم القبلية التي تجسدها الصهيونية . اننا أمة وهم مجتمع قبلي فلا ينبغي لنا أن نفهم المشكلات كما يفهمون أو أن نحلها كما يريدون أو أن تكون مواقفنا ردود أفعال لمواقفهم . اننا ، باسم القومية العربية ، نصر على معاملة اليهود العرب معاملة عادلة وطنهم العربي وما على الامم الاخرى الا أن توفي بمسؤولياتها فتحمي ابناءها اليهود من التعصب ضد السامية.

ان نظريتنا القومية، اذن، تحملنا مسؤولية تحرير العرب اليهود من القهر العنصري المفروض عليهم في أرض فلسطين . ومسؤولية عودة اليهود العرب الذين غادروا وطنهم العربي وتعويضهم عن أي عسف لم يحترم انتماءهم القومي للامة العربية.

أما الذين خانوا اوطانهم فهجروها وجاءوا غزاة للوطن العربي فلا مكان لهم في الارض العربية. وعليهم ان يلحقوا بأممهم حيث كانوا. ولسنا مطالبين أن ندفع لهم ثمن الخيانة أو ان نقدم لهم مكافأة على العدوان . لسنا مسؤولين على أي وجه عن ارضاء التعصب الاوربي ضد اليهود أو التعصب الصهيوني ضد البشر جميعا، بأن نقيم للصهيونية دولة في ارضنا سواء في فلسطين أو حتى في الربع الخراب من الصحراء القاحلة. لا أحد يملك هذا ولا أحد يستطيعه.

ومشكلة فلسطين هي النموذج لكل مشكلة اغتصاب ارض عربية ، أيا كان المغتصبون (٦) .

هوامش

(١) " كتاب نظرية الثورة العربية " فقرة " ١٨" .

(٢) المصدر السابق فقرة " ٢٩ " .

(٣) عندما قبلت الولايات المتحدة الامريكية ان تتعامل مع الصين الشعبية قبلت هيئة الامم المتحدة دولة الصين الشعبية عضواً فيها وكان ذلك بعد كتابة هذا الحديث

(٤) نظرية الثورة العربية فقرة ١١

(٥) " من السويس الى العقبة " تأليف بيتر ديستريا " بالفرنسية " ص ٥٦.

(٦) من كتاب " نظرية الثورة العربية " ١٩٧١.

(١)

منذ أن اغتصب الصهاينة جزءا من الارض العربية في فلسطين سنة ١٩٤٨، رفع في الوطن العربي شعار يقول " ان الوحدة هي الطريق الى تحرير فلسطين " ، على أساس من القول بأن دولة الوحدة هي القادرة- وحدها- على أن توفر المتطلبات المادية والبشرية والاستراتيجبة الكافية لتصفية دولة اسرائيل في معركة قصيرة تضع فيها العالم أمام الامر الواقع . وكان لا بد من أن تتحرر الدولة العربية أولا حتى تقيم الوحدة فتحرر فلسطين . وهكذا كانت هزيمة ١٩٤٨، التي عرفت باسم " النكبة " محركا أول لقوى التحرر العربي التي استطاعت خلال العشر سنوات " التالية " أن تجلي الجيوش المحتلة عن كثير من أجزاء الوطن العربي . ومع كل خطوة تحررية كان يبدو كما لو كان موعد الوحدة قريبا، وان الارض المغتصبة من فلسطين في طريقها الى الحرية. وبلغ التفاؤل ببعض العرب حد دراسة تفاصيل الوحدة التي هي الطريق الى تحرير فلسطين فقيل انها تلك التي تقوم فيما بين الدول العربية المحيطة بالارض المحتلة واسموها " دولة الوحدة الطوق ". وظل ذاك الشعار سائدا الى أن تحققت الوحدة بين مصر وسورية سنة ١٩٥٨.. وا نتظرت الجماهير العربية في كل مكان أن توفي دولة الوحدة بمسؤولياتها فتكمل الطوق أو تحرر فلسطين . وطال الانتظار الى أن وقع الانفصال سنة ١٩٦١. وقع سهلاً بدون مقاومة. وقبل سريعا بدون انتظار. وثبت من كل هذا أن الامل الذي عقد على وحدة ١٩٥٨ في تحرير فلسطين كان أملاً غير واقعي ومتسرعاً معاً ، إذ أن وحدة ١٩٥٨ لم تفشل في تحرير فلسطين فحسب، بل فشلت حتى في الحفاظ على وجودها. ومنذ سنة ١٩٦١ التقت اغلب القوى في الوطن العربي ، وفي العالم، على محاولة دفن قضية الوحدة وقضية تحرير فلسطين معا تحت ركام من الصراعات الدولية والاقليمية. الى أن جاء حزيران (يونيو) ١٩٦٧ فاذا بالقدر الاكبر من القوة العربية يقاتل متراجعا في صحراء سيناء بينما كان قد تقدم اليها دفاعا عن دمشق .

وكان ما كان .

وكان طبيعيا أن تعصف هزيمة حزيران (يونيو) بكثير مما كان سائدا في الوطن العربي من افكار واتجاهات، وأن تثير الشك في مبررات وجود كثير مما كان موجودا من قوى ونظم ، وأن تشيع اضطرابا شديدا في المقدرة على رؤية المستقبل الذي كان يبدو- حينئذ- حالك السواد .

غير اننا الآن . وبعد ما يقارب ثلاث سنوات من الهزيمة نستطيع أن نرى بوضوح أن ليس كل ما كان في حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ كان سيئاً .

لقد كان اسوأ ما فيه ان الامة العربية، ذلك الطرف الاصيل الذي لم يكن ممثلا في المعركة، قد دفعت من ارضها، وابنائها، وكرامتها، ثمنا فادحا لاخطاء القوى الاقليمية. غير انه في مقابل هذا كشفت الهزيمة العاجلة للدول العربية عن عجزها الذي لا مفر منه عن تحرير فلسطين . وأدى هذا الى أن دخلت الجماهير العربية ساحة المعركة في يومي ٩ و ١٠ حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ لتفرض الصمود أولا . ثم لتستمر في القتال بعد هذا في شكل منظمات جماهيرية مسلحة. وهذا كسب لا شك فيه . فلأول مرة في التاريخ المعاصر توجد في الأرض العربية قوة مقاتلة لا تحمل هوية أية دولة عربية .

(٢)

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى انهار الركام الذي حاولت قوى كثيرة أن تدفن تحته قضية تحرير فلسطين . لم يعد أحد يذكر الاسباب التي كانت ذرائع القتال في حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ ، ونسي الناس خليج العقبة وحق المرور فيه ، وتجاوزت المعركة إزالة آثار العدوان ، وفرض على الدول العربية ألا تسترد أرضها إلى أن تحدد لها موقفاً صريحاً من تحرير فلسطين . وهكذا برغم كل شيء ، برغم المناورات ، وبرغم التآمر ، وجد جميع الأطراف أنفسهم وجهاً لوجه أمام حقيقة المعركة : أما الوجود العربي وأما الوجود الاسرائيلي في فلسطين ، وهو كسب لاشك فيه . كسب من حيث اننا قد عرفنا ، ولو بعد دفع ثمن فادح للمعرفة ، أن أحداً في الوطن العربي لايستطيع ان يزعم لنفسه الحرية قبل أن تتحرر فلسطين ، أو أن يحلم أحلام الرخاء في جوار الوجود الاسرائيلي في فلسطين.

وعندما فرضت معركة تحرير فلسطين ذاتها على الناس ، عاد الحديث عن علاقة الوحدة بتحرير فلسطين . ورفع في الساحة شعار مختلف يقول : " ان تحرير فلسطين هو الطريق الى الوحدة العربية وليست الوحدة العربية هي الطريق الى تحرير فلسطين " وزاد أصحابه فأسموه " استراتيجية " .

وهو قول غير واقعي ، ومتسرع معاً .

أما انه غير واقعي فلأن القوى المعادية هي التي بدأت معركة احتلال جزء من الارض العربية في فلسطين سنة ١٩٤٨ وفي غيبة دولة الوحدة . وهي التي بدأت معركة تأمين الوجود الاسرا ئيلي سنة ١٩٥٦ وفي غيبة دولة الوحدة . ثم انها هي التي بدأت معركة فرض الاعتراف بدولة اسرائيل سنة ١٩٦٧ وفي غيبة دولة الوحدة أيضا . فحتى لو كانت هزيمة الدول العربية في حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧، ورفض الجماهير العربية للهزيمة واستمرارها في القتال ، قد حول المعركة مما أراد بها الصهاينة الى معركة لتحرير فلسطين ، فإن هذا لا يغيَر شيئا من حقيقة ان العدو هو الذي اختار وحدد تاريخ المعركة، وفرضها في الوقت الذي ا ختاره وحدده . وعلى هذا يمكن القول بأن القوى المعادية قد استعجلت معاركها سنة ١٩٤٨، وسنة ١٩٥٦، وسنة ١٩٦٧ لتثبيت الوجود الاسرائيلي "داخل حدود آمنة ومعترف بها" في غيبة دولة الوحدة لان تلك القوى تعرف ان الوحدة العربية هي الطريق الموثوق الى تصفية الوجود الاسرائيلي وتحرير فلسطين ، وان غيبة دولة الوحدة تقدم لها اكثر الظروف ملاءمة لتحقيق غاياتها العدوانية.

ان هذا يبدو لنا اكثر اتفاقا، واتساقا ، مع الواقع الذي نعرفه، من الزعم الذي يوحي بان القوى العربية، أو أية قوة عربية، هي التي اختارت أن تبدأ وتخوض المعركة القائمة من أجل تحرير فلسطين وفي غيبة دولة الوحدة تنفيذا " لاستراتيجية " أعدت من قبل على أساس ان " تحرير فلسطين هو الطريق الى الوحدة العربية وليست الوحدة العربية هي الطريق الى تحرير فلسطين".

وهو قول متسرع ، لان اصحابه لم يصبروا على انفسهم ، ولا على الظروف حتى يتبينوا : اولا- ما اذا كان النضال القائم في سبيل تحرير فلسطين سيحقق غايته في غيبة دولة الوحدة أم أن، تطورات المعركة . المسلم بأنها طويلة ومعقدة . وصعبة . ستضعهم – ربما أقرب بكثير مما يتصور الكثيرون – أمام خيار حيوي : فإما إقامة دولة الوحدة التي توفر لهم العمق الاستراتيجي اللازم لمواصلة القتال واما هزيمة أخرى . وحتى يتبينوا- ثانيا- ما اذا كان بعض المناضلين في سبيل تحرير فلسطين سيكفون عن القتال ليقيموا على الأرض المتحررة دولتهم الفلسطينية المسماة "ديموقراطية " أم انهم سيواصلون القتال الى أن تقوم دولة الوحدة الديموقراطية .

ذلك لانه اذا كانت المعركة تدور الان في ظل تأييد ودعم " حلف الخرطوم " الذي ا نعقد بين الدول العربية في آب (أغسطس) ١٩٦٧ من اجل " ازالة آثار العدوان " فان هذا الحلف موقوت- على أحسن الفروض- بغايته، وعندما تنتهي مرحلة " إزاله آثار العدوان "، على أي وجه تكون نهايتها، يكون الحلف قد استنفذ اغراضه فينفض . حينئذ تبدأ " فعلا" معركة تحرير فلسطين .

ولم يقل لنا أحد- بعد- كيف تستمر المعركة وقد كفت العربية ، راغبة أو كارهة ، عن دعم المعركة، واغلقت حدودها، وصفت أو حاولت تصفية قواعد المناضلين ؟ .. نقول كيف تستمر الا اذا سقطت الاقليمية العربية المتراجعة واقيمت على انقاضها دولة عربية توفر للقتال أسباب الاستمرار حتى النصر. انها عندئذ دولة الوحدة النواة أو نواة دولة الوحدة .

ومن ناحية أخرى ، لم يقل لنا أحد- بعد- كيف يكون تحرير فلسطين طريقا الى الوحدة العربية خاصة اذا كان ذلك الشعار المسمى " استراتيجية " متضمنا كهدف اقامة دولة فلسطين المسماة "ديموقراطية " كيف تكون تلك الدولة الاقليمية طريقا الى الوحدة العربية؟.. ماهي المعطيات الجديدة المتوافرة أو التي يمكن أن تتوافر لدولة فلسطين ، ولم تكن متوافرة لدول عربية كثيرة تحررت ولم تتوحد . ان كل ما نعرفه من المميزات الخاصة بدولة فلسطين المسماة " ديموقراطية " هو ان نسبة اليهود غير العرب فيها ستكون اكبر منها في أية دولة عربية أخرى . فهل يصلح هذا سببا جديدا لتكون طريقا الى الوحدة ؟.

ان هذه اسئلة لا تكفي النوايا- ولو كانت حسنة - للاجابة عليها .

أين الحقيقة اذن؟

هل ثمة علاقة بين الوحدة العربية وتحرير فلسطين ؟ وان وجدت فما هو مضمونها، واين تقع، وكيف تتجسد في هذه المرحلة التاريخية التي يمر بها النضال العربي؟

في الاجابة على هذه الاسئلة نجتهد بقدر ما يطيق هذا الحديث المحدود.

عندما يكون الحوار دائرا بلغة واحدة ثم لا ينتهي الى اتفاق فلابد من ان يكون ثمة خلاف في مضامين الكلمات التي يستعملها المتحاورون . وتكون الخطوة الاولى ان نعرف ما يعنيه كل طرف بالكلمات التي يقولها. والحوار حول علاقة الوحدة بتحرير فلسطين يدور بين الذين لا ينكرون الوحدة ولا ينكرون تحرير فلسطين، فلا بد إذن من أن يكون ثمة خلاف بين ما يعنيه كل منهم "بالوحدة العربية " أو " بتحرير فلسطين " .

ونحن نعتقد ان مرجع الغموض وعدم التحديد في هذه العلاقة الى الذين يتحدثون عن الوحدة العربية او انهم هم المسؤولون عن القدر الاكبر منه. ولولا هذا لما رأينا ان كل الناس- فيما يقولون- راغبون في الوحدة العربية ومن دعاتها ، ومع ذلك ما تزال الوحدة ابعد الاهداف

العربية عن التحقق . بل ان اغلب الناس لا يعرفون كيف تتحقق وما هو الطريق اليها، ولو عرفوا لعرفوا موقع تحرير فلسطين من هذا الطريق .

وآية هذا ان كثيرين اولئك الذين يتحدثون أو يكتبون عن الامة العربية. وعن القومية العربية . وعن الوحدة .. الخ . حديثا يبدو كالمناجاة الذاتية. ويعز معه الحوار. لا ننا لا نستطيع أن نعرف مما يقولون كيف عرفوا ما يتحدثون فيه الا ان يكون عن طريق شعورهم بالانتماء القومي اي حالتهم النفسية. والشعور بالانتماء القومي دلالة صحيحة على وجود امة ينتمي اليها المتحدث، ولكنة لا يصلح منطلقا الى تحديد اهداف المستقبل ونحن نعرف هذا - مثلا من قول مطروح ومتردد في الادب القومي العربي، في كل الادب القومي العربي تقريبا كما لو كان بديهيا . ذلك هو القول باننا ما دمنا امة عربية واحدة " فيجب " ان تكون لنا دولة سياسية واحدة . او اننا ما دمنا امة عربية واحدة " فيجب " ان نساهم جميعا في تحرير فلسطين . والشعور بالانتماء القومي يبرر اننا امة عربية واحدة ، اما لماذا " يجب " ما بعد هذا فلا جواب . او ان ثمة اجابات غير وافية. او اجابات غير صحيحة وان كانت هي ذاتها غير مبررة قوميا . مثل تلك الاجابة التي تقول " يجب " ان تقوم الوحدة لانها الطريق الى تحرير فلسطين، لان دولة الوحدة - وحدها هي القادرة على توفير المتطلبات اللازمة لتحقيق نصر عسكري ضد الصهيونية . وهو قول صحيح . ولكن المسألة هي كيف عرفنا انه صحيح . ان كنا عرفناه عن طريق ممارسة القتال الفاشل عشرين عاما ضد اسرائيل ، فان هذا يبرر قيام الوحدة ، في الحدود والى المدى ، وبقدر ما توفر لنا اسباب التفوق العسكري لهزيمة اسرائيل ، لا اكثر . ثم تنفض الوحدة بعد ان تكون قد ادت مهمتها. وفي هذه الحالة . تكون الوحدة غير لازمة بالنسبة الى الدول التي لا تحيط باسرائيل ، بل وتكون الوحدة العسكرية"بين الدول التي تحيط بها بديلا صالحا من الوحدة السياسية لانها توفر المتطلبات اللازمة للتفوق العسكري او يمكن ان توفرها.. بل نزيد فنقول ان الوحدة العسكرية لا تكون لازمة لو احسنت بعض الدول العربية استخدام امكانياتها المتاحة ماديا وبشريا . اذ لو احسنت لكانت قادرة على هزيمة اسرائيل . وفي كل الاحوال ستكون علاقة الوحدة بتحرير فلسطين موضوعا من "صلاحية" العسكريين، قادة المعركة، الذين يقررون مضمون تلك العلاقة، واين تقع، وكيف تتجسد طبقا لتطورات استراتيجية او تكتيك القتال ضد اسرائيل .

اما اذا كنا قد عرفنا ان "الوحدة العربية" لازمة لتحرير فلسطين عن طريق البحث العلمي في تلك الظاهرة الاجتماعية التي تسمى " امة " واكتشاف العلاقة الموضوعية بين الوجود القومي والوحدة القومية. فان الوحدة تكون لازمة لزوما موضوعيا . فنلتزمها غاية في معركة

تحرير فلسطين، وفي غير معركة تحرير فلسطين، ولا نعفي منها احدا مهما يكن بعيدا عن ساحة معركة فلسطين، ولا نتراجع عنها حتى بعد ان تتحرر فلسطين .

هنا يكون موقفنا من الوحدة وتحرير فلسطين موقفاً عقائدياً، وليس موقفا انتهازيا .

(٣)

والموقف العقائدي القومي يقوم- باختصار- على خمسة اسس متكاملة : -

اولا : ان الامة جماعة بشرية تكونت تاريخيا من جماعات وشعوب كانت مختلفة لغة وتراثا ومصالح ومتصارعة ومتفاعلة خلال ذاك الصراع ، انتهت بعد مرحلة تاريخية طويلة من المعاناة الى ان تلتحم لتكون شعبا واحدا ذا لغة مشتركة وتراث مشترك ومصالح مشتركة. وهذا لا خلاف عليه. انما الخلاف حول الارض الخاصة والمشتركة كعنصر من عناصر التكوين القومي . ونحن نرى أن الاختصاص برقعة مشتركة من الارض هو العنصر الجوهري المميز للأمة. ذلك لان كافة العناصر الاخرى مثل وحدة اللغة التي تركز عليها النظرية الالمانية، ووحدة المصالح الاقتصادية التي تركز عليها النظرية الماركسية. أو وحدة الثقافة التي تشيد بها الكتابات العربية ، أو حتى وحدة الارادة التي تركز عليها النظرية الفرنسية... الخ . كل هذه عناصر ممكن أن تتوافر، وان تجتمع لجماعات بشرية لا ترقى الى مستوى " الامة " كالمجتمعات القبلية مثلا. انما تجاوزت المجتمعات الطور القبلي ودخلت طور التكوين القومي بالاستقرار على أرض معينة، ثم اكتملت تكوينا باختصاصها بتلك الارض المشتركة، وبهذا اصبحت أمة.

ثانيا: يترتب على هذا ان الامة تكوين واحد من الناس (الشعب) والارض (الوطن) معا. فنحن عندما نقول ا ننا أمة عربية ثم نتحدث عن الوطن العربي لا يكون حديثنا عن شيئين منفصلين بل عن الكل (الامة) الذي يتضمن الجزء (الوطن) . فالشعب العربي (الناس) والوطن العربي (الارض) يكونان معا الامة العربية، التي ما تحولت من شعوب لا تختص شعبا بعينه الى أمة الا عندما التحم الشعب العربي بالوطن العربي واختص به ليكونا وجودا اجتماعيا واحدا هو الامة العربية . من هنا ندرك انه عندما يتعرض الوطن العربي كله أو بعضه، للابادة أو الطرد من أرضه، وعندما يتعرض الوطن العربي كله أو بعضه للغزو الاستيطاني أو الاقتطاع أي عندما تقوم أية محاولة لفصل الناس (الشعب) عن الارض (الوطن) لا تكون بصدد خطر يتهدد بعض أبناء الشعب العربى يمكن تعويضهم عنه أرضا بأرض، ولا بصدد خطر يتهدد جزءا من الوطن العربي يمكن الاستغناء عنه أو المساومة عليه، بل نكون بصدد خطر يتهدد الوجود القومي العربي ذاته.

وهكذا تقدم لنا القومية أول ضوابط الموقف العقائدي من الغزو الصهيوني لفلسطين .

ثالثا: ثم انه لما كانت الامة تكوينا تاريخيا فان اشتراك الشعب في الوطن هي مشاركة تاريخية تحول من ناحية دون الشعب وأن يتصرف في وطنه أو جزء منه في أية مرحلة تاريخية معينة لأن الوطن شركة تاريخية بين الاجيال المتعاقبة. وتحول من ناحية أخرى دون أي جزء من الشعب وان " يتصرف " في الاقليم الذي يعيش عليه أو في جزء منه بالتنازل عنه للغير أو تمكين الغير من الاستيلاء عليه (علاقة خارجية) وتحول من ناحية ثالثة دون أي جزء من الشعب وأن يستأثر بأي اقليم عن بقية الشعب (علاقة داخلية) .

ومن هنا نصل الى عدة نتائج هامة وملزمة قوميا.

اولها : ان فلسطين كجزء من الوطن العربي اقليم مملوك ملكية مشتركة للشعب العربي كله وليس ملكا خاصا لشعب فلسطين .

ثانيها: ان الشعب العربي كله، ومن باب اولى شعب فلسطين وحده ، لا يملك الحق في التنازل ، أو التفريط ، أو المساومة، على حرية فلسطين .

ثالثها: ان مسؤولية تحرير فلسطين واقعة على الشعب العربي كله وليس على شعب فلسطين وحده.

رابعا: ان كل الاتفاقات ، أو المعاهدات أوالقرارات ، والدساتير، والقوا نين ، والمواقف ، والتصريحا ت ، سواء كانت صادرة من دول اجنبية أو دول عربية، في الماضي أوالآن أو في المستقبل، تمس حرية فلسطين، غير مشروعة قوميا، فهي ليست حجة على الامة العربية ولا قيدا على حقها في تحرير فلسطين .

را بعا: ان الامة كتكوين تاريخي لم تتكون اعتباطا أو مصادفة بل تكونت من خلال بحث الناس عن حياة افضل . فاذا كنا قد بلغنا خلال المعاناة التاريخية الطور القومي، أي ما دمنا أمة عربية واحدة فإن هذا يعني أن تاريخنا ، الذي قد نعرف احداثه وقد لا نعرفها قد استنفذ خلال بحث اجدادنا عن حياة افضل كل امكانيات العشائر والقبائل والشعوب قبل ان تلتحم معا لتكون أمة عربية واحدة وانها عندما اكتملت تكوينا كانت بذلك دليلا موضوعياً غير قابل للنقض على ان ثمة " وحدة موضوعية" قد نعرفها وقد لا نعرفها بين كل المشكلات التي يطرحها واقعنا القومي ، أيا كان مضمونها، وانها بهذا المعنى، مشكلات قومية لا تجد حلها الصحيح الا

بامكانيات قومية، وقوى عربية، في نطاق المصير القومي . قد يحاول من يشاء ان يحل مشكلاته الخاصة بامكانياته القاصرة ، ثم يقنع بما يصيب ولكنه لن يلبث ان يتبين، في المدى القصير أو الطويل، ان الحل الصحيح المتكافىء مع الامكانيات القومية المتسق مع التقدم القومي، قد اخطأه عندما اختار ان يفلت بمصيره الخاص من الوحدة الموضوعية للمشكلات التي تشكل حلولها المصير القومي الواحد .

وهكذا بينما احتاج الاقليميون الى الهزيمة المرة في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ليتعلموا أن احدا لا يستطيع أن ينتصر في معركة التحرر ما دامت فلسطين محتلة لا يحتاج القوميون الى تجارب مريرة ليعرفوا ان أحدا لن ينتصر في معركة تحرير فلسطين ما دام للاستعمار قدم وقاعدة في الوطن العربي ، وان فلسطين لن تتحرر بغير امكانيات قومية ، وقوى قومية ، في نطاق معركة التحرر العربي واطار المصير القومي .

خامسا: واخيرا، فان هذه الوحدة الموضوعية بين المشكلات التي يطرحها الواقع القومي بما نعنيه من أن حلولها الصحيحة المتكافئة مع المقدرة القومية غير قابله للتحقق الا بامكانيات وقوى قومية في اطار المصير القومي ، تفرض الوحدة العربية كأداة يستحيل بدونها وضع كل الامكانيات والقوى القومية ، وا ستعمالها، في سبيل حل كل المشكلات العربية، وتحقيق المصير العربي الواحد. ان هذا لا يعني أن الاقليميين ودولهم عاجزون تماما عن تحقيق أي نجاح في مواجهة- المشكلات التي يتصدون لها، بل يعني تماما انهم لا ينجحون الا مؤقتاً وانهم لن يلبثوا أن يتبينوا، في المدى القصير أو الطويل ، ان الوحدة لازمة لاطراد النجاح أو الحفاظ عليه .

وهكذا نعرف من الان . ان فلسطين لن تتحرر في غيبة دولة الوحدة ، وانها حتى لو تحررت لن تستطيع أن تحافظ على تحررها الا في ظل دولة الوحدة . كيف اذن فشلت وحدة ١٩٥٨ في تحرير فلسطين؟.. لأسباب بسيطة. لانها كانت استجابة قومية ولكنها لم تكن وحدة قومية فشلت في أن تنحول الى وحدة قومية. كانت اشتراكا بين اقليمين في الرئاسة وفي الحكومة، وبقي الاقليمان منفصلين جماهيريا واقتصاديا، وماليا، وعسكريا فلم تكن تجسيدا لوحدة المصير داخلها. ثم انها اقتنعت بالاقليمين وتوقفت عن الامتداد ، فارتضت التجزئة ولم تجد وحدة المصير خارجها وهكذا انقلبت الى دولة اقليمية في اقليمين ، بدلا من أن تكون دولة الوحدة النواة ففقدت أساسها العقائدي ومضمونها القومي ، ففشلت .

(٤)

الى هنا نكون قد عرفنا الموقف القومي العقائدي من الوحدة . وعلاقتها بتحرير فلسطين . غير ان هذا لا يكفي، لان الموقف القومي العقائدي تعبير سلبي في مواجهة الواقع ، ويبقى ان نعرف كيف يحدد قوانا . ويضبط حركتها الايجابية، اي كيف تتحول القومية من وعي على الواقع الى حركة لتغيير الواقع واين تقع العلاقة بين تحرير فلسطين والوحدة العربية في تلك " الحركة " .

وارجو الا يكون غائبا عنا ان حقيقة المشكلة التي نعالجها آخذة في الوضوح خلال الحوار فنحن الآن لسنا أمام القضية الشكلية الأولى : ايهما الطريق الى الآخر، الوحدة أم تحرير فلسطين ، بل نحن أمام الحقيقة الموضوعية لتلك القضية، علاقة النضال من اجل الوحدة بالنضال من اجل تحرير فلسطين .

ولما كانت الحركة النضالية، اية حركة لتغيير الواقع تتضمن خمسة عناصر هي : المنطلق والغاية، والقوى ، والاستراتيجية، والتكتيك ، فسنرى فيما يلي - باختصار شديد - كيف تحدد لنا القومية العناصر الخمسة للحركة القومية وموقع معركة تحرير فلسطين منها .

(١) اما عن المنطلق فهو محدد بالوجود القومي ذاته ، بالامة كواقع موضوعي، وبواقع الامة في مرحلة الانطلاق . وفي الواقع العربي وقائع كثيرة اولها اننا امة واحدة ولكن مجزأة وان فلسطين جزء من الامة العربية ولكن مغتصبة ، من هنا تكون البداية .

(٢) اما عن الغاية فهي محددة بوحدة الوجود القومي التي تعني اختصاص الشعب العربي كله بالوطن العربي كله، فما يتفق مع تلك الوحدة يبقى وما لا يتفق معها يجب ان يزول . ولما كانت الصهيونية تغتصب جزءاً من الوطن العربي وكانت كل دولة عربية تستأثر بجزء من ذلك الوطن . وكان هذا وذاك لا يتفقان مع وحدة الوجود القومي، فان غاية النضال القومي تكون استرداد الارض العربية من غاصبيها، والغاء تجزئتها واقامة دولة عربية واحدة عليها، بما فيها فلسطين.

(٣) أما عن القوى فمحددة بوحدة المصير القومي. ولما كانت وحدة المصير القومي تعني ان الحل الصحيح لا يمكن ان يتحقق الا بامكانيات قومية وقوى قومية . فان القوى المناضلة من اجل

الوحدة لن تكون قادرة على النصر النهائي الا اذا كانت قوى قومية . اي الا اذا كانت مجسدة في ذاتها هدف الوحدة. وهي لا تكون كذلك اذا قبلت التجزئة الاقليمية فيها، اي اذا قبلت ان تكون قوى اقليمية ولو كانت متحالفة.

وهكذا تكون وحدة القوى القومية شاملة المناضلين في معركة فلسطين ، ولكنها تنفي تجزئة القوى الى قوى قومية وقوى فلسطينية.

(٤) اما عن الاستراتيجية فهي محددة بالوحدة الموضوعية للمشكلات التي يطرحها الواقع القومي فلا بد من ان تكون استراتيجية واحدة تصل بين الواقع القومي والمصير القومي . ولما كانت الوحدة العربية الشاملة لا تقوم الا بعد التحرر الكامل لكل اجزاء الوطن العربي فان التحرر يشكل المرحلة الاولى من استراتيجية النضال من اجل الوحدة . وهي استراتيجية ملزمة للمناضلين في كل جزء: التحرر كمرحلة اولى من نضال غايته الوحدة . وهكذا تدخل معركة تحرير فلسطين في نطاق المرحلة الاستراتيجية الاولى من النضال القومي من اجل الوحدة العربية : مرحلة التحرر. ويصبح القول بان تحرر فلسطين هو الطريق الى الوحدة . بشرط ان نفهمه على ا نه طريق دخول "فلسطين" الى دولة الوحدة العربية .

ومن ناحية أخرى فان وحدة الاستراتيجية تعني انه كلما انتصرت القوى القومية في ساحة معركة القت بقوتها في الساحات الاخرى الى ان تتحقق الوحدة العربية الشاملة . وهكذا يكون النضال القومي ملتزماً بسحق الاقليمية وإلغاء التجزئة في الأجزاء المتحررة وإقامة دولة الوحدة النواة ثم الدخول بها معارك تحرير وتوحيد باقي الأجزاء وتضاعف المقدرة على النصر – هنا – لاشك فيه ، ولكنه ليس مصدر الالتزام بتحقيق الوحدة النواة والدخول بها معركة التحرير ، بل مصدره الموقف القومي العقائدي . وعلى هذا يصح القول بان الوحدة هي الطريق الى تحرير فلسطين بشرط ان نفهمه على انه طريق الوحدة النواة الى الوحدة الشاملة.

(٥) أما عن التكتيك فلا يتوقف على القوى القومية ، ولكن على ظروف المعارك، وقوى الاعداء، واساليبهم ، وغايتهم : والقوى القومية مطالبة في هذا بان تلتزم الاسلوب العلمي في المواقع التكتيكية لهزيمة القوى المعادية . ولكن - وهذا بالغ الاهمية والخطورة - في نطاق الالتزام الاستراتيجي أي الا تترك للقوى المعادية فرصة استدراجها من خلال المناورات التكتيكية الى خارج خطها الاستراتيجي ، أو ان تندفع الى قبول أي نصر تكتيكي يكون على حساب الغاية

الاستراتيجية . وهكذا لا يجوز ان نتنازل ، أو نتراجع عن هدف الوحدة العربية من اجل النصر التكتيكي في أية معركة ولو كانت معركة تحرير فلسطين .

وهكذا يستقيم لنا- كما ارجو- فهم العلاقة بين الوحدة وتحرير فلسطين في هذه المرحلة، على وجه يمكن تلخيصه في جملة قصيرة :- التحام القوى القومية في قوة مناضلة واحدة تخوض معركة تحرير فلسطين وتفرض الوحدة في الاجزاء المتحررة ثم تدخل بها المعركة لتأمين النصر النهائي في معركة تحرير فلسطين حتى تستطيع ان تكسب فلسطين لدولة الوحدة.

فهل هي علاقة صحيحة ؟

هنا يأتي دور الممارسة لتكون محكا لاختبار صحة المعرفة العلمية.

فماذا تثبت الممارسة؟

(٥)

أما على الجانب العربي فلم يكف أي قادر على الكلام ، منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ عن القول بان معركة تحرير فلسطين معركة عربية، وان مسؤولية تحرير فلسطين تقع على الامة العربية كلها، وان التعامل مع " الواقع الملموس "- كما قالت إحدى النشرات الصادرة من الجبهة الشعبية اثبتت انه: " من الواضح ان النضال من اجل تحرير فلسطين ليس مهمة الشعب الفلسطيني وحده بل مهمة الشعوب العربية كلها وان ا نجاز هدف التحرير وتصفية الكيان الاسرائيلي لا يمكن أن يكون الا حصيلة نضال الشعوب العربية كلها في حرب شعبية طويلة الامد ضد الامبريالية والصهيوذية على امتداد الارض العربية " . وانه ما لم تتم تعبئة طاقات الجماهير العربية كلها فان سحق العدوان الاسرائيلي وتدمير جذوره يبقى حلما غير قابل للتحقيق (الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين- حركة المقاومة الفلسطينية في واقعها (الراهن).... كلهم كل المساهمين في المعركة، قادة، وقواعد، وحكومات لا يكفون عن الاستغاثة بالمائة مليون عربي، وتحميلهم مسؤولية معركة التحرير التي لا يمكن أن يتم النصر فيها بغير قوة الجماهير العربية. حتى الاقليمية الفلسطينية تدعو الجماهير العربية الى ان تحشد نفسها في جبهة مساندة .

اذن " فالواقع الملموس " قد اثبت ان النصر لا يتم الا بالتحام الجماهير العربية وفاء لمسؤولياتها عن تحرير فلسطين . وهو صحيح .

ولكن الذين يستغيثون بالامة العربية، وبالمائه مليون عربي . ويحملونهم مسؤولية تحرير فلسطين لم يقولوا شيئا عن حقوق المائة مليون عربي في فلسطين (المتحررة) أو في ازالة آثار العدوان . لم يقل أحد كلمة وا حدة اجابة عن السؤال الذي يهم الجماهير العربية : لماذا يموتون من اجل تحرير فلسطين؟ اليست المسؤولية هي الوجه الاخر للحق؟ فاين حق الامة العربية في فلسطين، وكيف يتجسد؟ ان من اغرب ما قرأنا في هذا ما قاله اولئك الذين اصدروا نداءهم المنشور عن حلم التحرير الذي لا يتحقق الا بنضال الشعوب العربية تبريرا لدخول الجماهير معركة التحرير. قالوا: لان الجماهير الكادحة لا تملك شيئا تخسره . كأن الجماهير الكادحة لا تملك الحياة . مع انها تملك مع الحياة أمل الوحدة والتقدم . ويستغيثون بالجماهير العربية دفاعا عن الكرامة العربية. والكرامة العربية عزيزة وتستحق القتال دفاعا عنها . ولكنها ليست كلمة فارغة. انها تعني حياة كريمة مطهرة من المذلة ولا بريد احد أن " يعد " الجماهير العربية حتى بالحياة الكريمة المطهرة من المذلة ولو بعد التحرير، ربما لأنهم يعرفون أن ذلك لا يتحقق الا في دولة الوحدة العربية وهم لا يريدون أن يلتزموا بوعد الوحدة بعد التحرير. ان الجماهير العربية ليست بلهاء وقد كان لها في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ عبرة لا تنسى، فاذا كان أحد يظن انها ستقاتل حتى الموت الى ان تتحرر فلسطين لمجرد أن يعود الامر في الوطن العربي الى ما كان عليه قبل حزيران (يونيو) ١٩٦٧ فسيتعلم ان الغباء لا ينفع صاحبه ابدا . والغباء وباء في الاقليمية العربية . بدليل انهم ما زالوا يتصرفون على أمل ان كل شيء سيبقى كما كان . بل ان منهم من هو مشغول عن المعركة بمخططات التوسع بعد المعركة فهو يدخر قواه ليبني في الارض العربية امبراطوريته الخاصة. وكل هذه اوهام . لا يساويها وهما الا توقع استجابة الجماهير العربية لدعوة الالتحام من اجل الموت لا شيء اكثر، واستنفارها بالحديث عن المسؤولية بدون التزام بحقها في الارض العربية ولما كان هذا الالتحام لا يتم الا على هدف الوحدة فان هذا " الواقع الملموس " يقدم دليلاً من الممارسة على ان النصر لا يتم الا بالتحام تحرير فلسطين بالوحدة العربية .

اما عن الجانب الآخر، جانب القوى المعادية فان الامر اكثر وضوحا. فهي تخوض معركتها ضد الامة العربية وليس ضد اية دولة عربية. وهذا واضح من ان الحركة الصهيونية عندما وضعت- مخططاتها لغزو الوطن العربي في مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ لم تكن هناك اية دولة عربية قائمة لا فلسطين ولا غير فلسطين . قد تصطدم الصهيونية تكتيكياً مع دولة عربية قائمة او اخرى تبعا لما تتبينه من مخاطر مؤقتة. ولكن خطتها الاستراتيجية تستهدف اقامة دولة يهودية

من الفرات الى النيل، بصرف النظر عما هو قائم على تلك الارض من دول او نظم او قوى . الغزو الصهيوني موجه اذن الى الامة العربية . فهي الطرف الاصيل في المعركة وهذا يقتضي ان تكون قواها في المعركة قوى قومية ملتحمة .

واذا كانت الحركة الصهيونية ذات اهداف محددة واستراتيجية خاصة، فان من عناصر تلك الاستراتيجية التحالف مع القوة الاستعمارية المتفوقة. تحالفت مع المانيا اولا، ثم مع بريطانيا ثانيا ثم مع الولايات المتحدة الامريكية اخيرا ، تبعا لا نتقال قيادة الاستعمار العالمي . وللاستعمار العالمي موقف عدائي لم يتغير ضد الوحدة العربية. هو الذي صنع التجزئة ابقاء للتخلف حتى يظل مسيطرا على مقدرات الامة العربية. وهو الذي يحرس التجزئة حتى لا تقوم الوحدة . وهكذا التقت المصالح الاستعمارية مع المصالح الصهيونيه لاقامة دولة يهودية على الوطن العربي تحقق اهداف الصهيونية وتحول دون الوحدة معا .

قرأنا كلنا عن تقرير كاميل بونومان سنة ١٩٠٧ الذي انتهى الى ان حماية المصالح الاستعمارية في الوطن العربي تستلزم اقامة حاجز بشري قوي وقريب يفصل المشرق العربي عن المغرب العربي ويحول دون الوحدة العربية المتوقعة. ولقد كنت مهتما بالتعرف على هذا التقرير في مصدر رسمي تحقيقا لصحة الاشارة اليه في الكتابات الخاصة ، الى ان اطلعت على ملخص له منشور في وثيقة عربية رسمية، فاصبح حقيقة تمكن الاشارة اليها. ولكنها ليست الحقيقة الوحيدة ، فقد كان من ضمن المكاسب التي تحققت بعد هزيمة (حزيران) يونيو ١٩٦٧ ان اصبح للقضية العربية انصار من الدارسين في اوربا وخاصة من الفرنسيين . وعرفنا مما كشفوه من وثائق علاقة الغزو الصهيوني بالوحدة من هذه الوثائق ما نشره بيير ديستريا في كتابه "من السويس الى العقبة" صفحة ٥٦ نقلا عن كتاب نشر في فرنسا سنة ١٩٣٧ بعنوان " الله اكبر " الفه " محمد اسعد بك " وهو اسم مستعار لاحد عملاء الصهيونية في الوطن العربي . والكتاب عبارة عن تقرير كان مقدما الى أحد قادة الحركة الصهيونية العالمية هو المستشرق النمساوي الدكتور فولفجانج فايست . يقول كاتبه :

" ان خلاصة الاسباب الجدية للكفاح من اجل الارض المقدسة هو موقعها الاستراتيجي وتأثيره في مستقبل المنطقة. فلو عادت فلسطين الى دولة عربية موحدة تضم مصر. لقامت هناك قوة عربية مسلحة تستطيع ان تتحكم في قنال السويس والطريق الى الهند . اما اذا ظلت فلسطين مستقلة، او أصبحت دولة يهودية، فانها ستقوم عقبة في سبيل انشاء هذه الدولة الكبرى حتى لو

تمت الوحدة بين دولة عربية واخرى على جانبي فلسطين . ان دولة صغيرة " حاجزة " تقوم على ١٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع على ضفتي نهر الاردن ستحمي كل دولة عربية ضد تدخل ا ية دولة عربية اخرى ..

ان توازن القوى حول قنال السويس يتوقف اذن " على استقلال فلسطين بالنسبة الى العالم العربي، يتوقف على دولة فلسطين تكون كسويسرا عند ملتقى القارات الثلاث. ان هذا الاستقلال يتفق تماما مع طموح الاستعمار اليهودي ، ذلك لان اليهود وحدهم هم الذين ستكون لهم مصلحة في هذا الاستقلال وليس العرب اذ ان هؤلاء سيكونون من الدعاة المتحمسين للاندماج في دولة عربية كبرى" .

" ان هذا الكلام القديم يبدو حديثا، لانه يعبر عن استراتيجية معادية وضعت قديما وما تزال تحكم تكتيك القوى المعادية. ومن حين الى اخر يعبرون عنها بوضوح وقوة. في تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٨ اي بعد قيام وحدة ١٩٥٨ نشرت مجلة " الاوبسر فاتوار دي مويان اوريان " مقالا بمناسبة الذكرى الثانية لحرب ١٩٥٦ قالت فيه : " ان التفوق الاسرائيلي قدم ضمانا لحماية الوضع القائم ضد المحاولات الوحدوية . لقد اصبح واضحا ان حفظ التوازن فيما بين الدول العربية المجاورة لاسرائيل والدول العربية عموما مهمة يتولاها الاسرائيليون وتدخل في نطاق واجباتهم . اننا نقوم هنا، اذا صح التعبير، على تنفيذ " مبدأ مونرو" خاص بالشرق الاوسط ان القرار الذي اتخذناه بهذا الخصوص منذ عشر سنوات (اي منذ ١٩٤٨) قد ادى الى الاستقرار والسلام بدلا من الخوف ". وفي كانون اول (ديسمبر) سنة ١٩٦٦ قال ليفي اشكول في رسالة بالراديو ان سياسة اسرائيل منذ سنة ١٩٥٨ (أي منذ الوحدة..) ان تحول ولو بالقوة دون أي تغيير يحدث في الوضع القائم للدول العربية ". وفي شباط (فبراير) سنة ١٩٦٧ قال ابا ايبان في تصريح ادلى به في لندن : " يجب ان يكون واضحا ان مصير المنطقة العربية لا يمكن ان يكون الوحدة ، بالعكس انه الاستقلال القائم على التجزئه " .

وهكذا تثبت الممارسة- ممارسة المعركة ضدنا- ان القوى المعادية قد غزت فلسطين مقدمة لغزو مزيد من الاراضي العربية لاقامة دولة يهودية وظيفتها ان تحول دون الوحدة العربية الشاملة كهدف استراتيجي لتلك القوى المعادية.

وهذا يعني ان طبيعة معركة تحرير فلسطين التي تفرض التحام الجماهير العربية تحتم ان يكون التحامها من اجل الوحدة كهدف استراتيجي للقوى العربية. وبهذا تقدم طبيعة المعركة

الدليل على صحة الموقف القومي من العلاقة بين الوحدة وتحرير فلسطين . اذا كان هذا هو الحل الصحيح، فما الذي يحول دونه؟

(٦)

أولاً: وقبل كل شيء ، عدم وفاء القوى القومية بمسؤولياتها ، فلو ارادت الوفاء لما حالت أية قوة على الارض دون أن تلتحم في قوة مناضلة لتحرير فلسطين واقامة دولة الوحدة .

ثانيا: الاقليمية العربيه، والاقليمية كنقيض للقومية تقوم على أساس أن لكل اقليم عربي تكوين اجتماعي (مجتمع) قائم بذاته مستقل بمصيره . ولما كان الاستقلال علاقة ذات طرفين أو اكثر (الاستقلال بالذات عن الغير) فان دلالة الاقليمية تتجاوز أي اقليم لتصبح علاقة قائمة على تبادل الاعتراف بتجزئه الوطن العربي تجمع الاقليميين في كل مكان، حتى الذين لا ينتمون الى دولة عربية، لتضعهم جميعا في مواجهة الشعب العربي في موقف مضاد لوحدته القومية. وتتجسد هذه الاقليمية في الموقف الاقليمي من المشكلات العربية ، ومن معركة تحرير فلسطين بوجه خاص، لان الاقليمية متصدية فعلا للمعركة دفاعا عن فلسطين أو دفاعا عن الاجزاء التي احتلت بعد ١٩٦٧ ولكن من موقف اقليمي .

وقد قلنا دائماً ونقول الآن ان الاقليمية فاشلة .

ولسنا نحتكم لتجربة الفشل في السنين الماضية، لان هناك من يتوهمون ان تغيير القيادات الاقليمية قد يكون سببا للنصر . وذلك من اوهام الاقليمية . لان فشل الاقليمية كامن في ذاتها مهما تكن نوايا قادتها . ففي معركة تحريرفلسطين مثلاً، تفتقدالاقليمية (غير الفلسطينية) حتى مبررات القتال . ان استقلال الدول الاقليمية ذاتا ومصيرا يجردها من أي حافز للقتال من اجل تحرير فلسطين .

لسبب بسيط هو ان فلسطين تقع خارج حدود الدول الاقليمية المستقلة ذاتا ومصيرا . واكثر الاقليميين امانة هم الذين يعترفون بهذا ويبحثون عن مخرج لاسترداد ما ضاع من ارضهم ثم يلقون مسؤولة تحرير فلسطين على شعب فلسطين . واذا قيل ان اسرائيل تمثل خطرا على الدول العربية فان المسألة- بمنطق الاقليمية- تكون كيف تؤمن وجودها من هذا الخطر. وهو ممكن ولو بالمساومة على ارض فلسطين ذاتها، ولو بقبول حماية واحدة أو اكثر من الدول . كل هذا ممكن بدون حاجة الى تحرير فلسطين ، واذا لم يكن ممكنا فان الاقليميين سيقاتلون دفاعا عن

أرضهم ان استطاعوا، ولكنهم لن يصلوا أبدا - ولو استطاعوا- الى حد دخول معركة تحرير فلسطين .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فان " الاقليمية " المستقلة ذاتا ومصيرا تعني اولا استئثار كل دولة عربية بالجزء الذي تقوم عليه فهي تغتصبه من الامة العربية. وتعني ثانيا حرمان الشعب العربي فيها من حقه في الارض العربية خارجه فهي تحبسه فيه وبهذا تحول - "سلبيا وايجابيا - دون التحام الجماهير العربية في قوة موحدة لتحرير فلسطين واقامة دولة الوحدة . وبهذا لا تخدم الا الغزو الصهيوني لفلسطين . ولهذا عندما يتحدث الاقليميون عن تحرير فلسطين لا يصدقهم أحد ويسخر منهم العالم كله. والعالم على حق لان الاقليمية المستقلة بمصيرها عن فلسطين تكون غير منطقية عندما لا تترك فلسطين لمصيرها المستقل . ان على الشعب العربي في كل مكان ان يفلت من شراك التضليل ولو احتراما لارواح الشهداء من ابنائه الذين راحوا ضحية التضليل الاقليمي . والحقيقة اننا ما دمنا متفقين على ان التجزئه قد سهلت غزو فلسطين ، فيجب ان نعرف ونعترف بان الغزو الصهيوني لفلسطين قد بدأ واتسع وما يزال قائما في حماية الاقليمية العربية التي تجسد تلك التجزئه. واذا كنا متفقين على أن الاقليمية العربية مشتبكة في صراع ضد الصهيونية دفاعا عن استقلالها ، فيجب ان نعرف، ونعترف بان هذا الاستقلال لا يعني انها ستخوض معركة تحرير فلسطين، بل يعني انها طالما بقيت في الوطن العربي فستحول، بكل الطرق، من- اول المغالطة اللفظية الى اخر التصفية الجسدية، دون التحام القوى القومية لدخول معركة تحرير فلسطين، أي ان استقلالها ذاته يحول دون تحرير فلسطين . وانها يجب ان تسقط لتقوم دولة الوحدة حتى تتحرر فلسطين .

أما الاقليمية الفلسطينية فلها مصلحة مؤكدة في تحرير فلسطين ولا شك في انها- ستقاتل ما استطاعت لتحرير فلسطين، ولكن الاقليمية ستخذلها . الاقليمية فيها والاقليمية خارجها. هذا لا شك فيه. ان شعار الاستقلال عن الدول العربية بمعركة تحرير فلسطين . يتضمن حتما استقلال الدول العربية عن معركة تحرير فلسطين . وليس صحيحا ان يقال انه مع ذلك لا يعني الاستقلال عن الجماهير العربية ولا يحول دون التحامها في معركة تحرير فلسطين . لان مجرد الدعوة الى التحام الجماهير العربية يعني دعوتها الى كسر القيود الاقليمية وهو أمر يمس صميم وجود الدول الاقليمية ويتناقض مع استقلالها عن فلسطين واستقلال

فلسطين عنها. ان كان هذا تكتيكا فهو تكتيك فاشل لانه ينطوي على مغالطة مكشوفة. وكل تكتيك " ناجح يجب ان يكون منضبطا عقائديا واستراتيجيا والا فهو مغامرة أو مقامرة .

(٧)

الحل القومي، اذن، هو الحل الصحيح لمشكلة تحرير فلسطين . فهل هناك موضع في هذا الحل لمشكلة الاقامة في فلسطين المتحررة . تلك المشكلة التي يقدمون لها صيغة فلسطين المسماة "ديموقراطية " حلا يرضي- فيما يقولون - الرأي العام العالمي؟... ان حلها القومي واضح وصريح . اذ بمجرد ان ننسى التمييز الديني والعنصري تقدم لنا " القومية" الحل الصحيح . فالقومية لا تقبل . الاستقلال الاقليمي لفلسطين عن الامة العربية. وفلسطين الاقليمية فاشلة من الان في حل مشكلة الاقامة فيها . فهي " دويلة " يواجه فيها مليونان من المجنى عليهم مليونين من الجناة حول جسم الجريمة : الدار المهجورة وقد سكنت، والارض المتروكة وقد زرعت، والاموال المنهوبة وقد اصبحت اموال الاخرين . ثم يقال لهم لا تذكروا ما كان وعيشوا " ديموقراطيين " كأن الديموقراطية تعويذة سحرية تطهر النفوس بأمر من القائلين . ان فلسطين مهما تكن ارض السلام- ستضيق بمن فيها و تنتهي حرب التحرير لتبدأ الحرب الاهلية في ارض فلسطين . القومية لا تقبل الا دولة الوحدة ودولة الوحدة اكثر رحابة من فلسطين . وفي دولة الوحدة مكان لكل الذين يريدون ان يعيشوا آمنين . هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فان للامة العربية، أبناء من اليهود في فلسطين المحتلة وفي اماكن كثيرة من الارض . اولئك العرب اليهود. انهم يحملون لسبب أو لاخر الهوية الاسرائيلية أو هويات أخرى اجنبية . وهم لسبب أو لاخر قد انتقلوا الى فلسطين أو غادروا الارض العربية الى اماكن أخرى . كل هؤلاء عرب بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية . ولكل هؤلاء حق قومي في ان يقيموا في رحاب أمتهم وعلى وطنهم العربي في فلسطين أو في غير فلسطين . ولكل هؤلاء حق في أن تكون دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية دولتهم القومية التي تحميهم ضد التعصب وتوفر لهم الامن واسباب التقدم الاجتماعي . وكل هؤلاء مطالبون بان يعبروا عن ولائهم لامتهم، وان يرتفعوا بوعيهم الى مستوى المسؤولية القومية، وان يعرفوا ان ارض فلسطين هي أرض أمتهم العربية، وان لهم حق الاقامة فيها سواء كانوا فيها من قبل، أو كانوا وافدين اليها من اقطار عربية أخرى . وان من حقهم ان يعودوا اليها، أو الى أي مكان من الوطن العربي ان كانوا قد غادروا ارضهم العربية. بل انهم في القومية سواء مع اخوتهم العرب الذين اكرهوا على مغادرة فلسطين، لا فضل لاحد منهم على الاخر الا بقدر ما يجسد فكرا ومسلكا ولاءه القومي لامته العربية. وحتى الذين تورطوا منهم فوجدوا انهم في مواقع الخيانة

لامتهم ، ويقتلون اخوتهم العرب طاعة لسادتهم الصهاينة فان جزاءهم سيكون متعادلا مع ما كان لهم من حرية في الاختيار، وعلى ما يكون لهم من موقف يختارونه في الصراع العربي ضد الغزو الصهيوني . ولكنهم في كل الاحوال لن يكرهوا على مغادرة ارضهم العربية ولن يفتقدوا حماية دولة الوحدة .

أما الذين خانوا وطنهم فهجروها، وجاءوا غزاة للوطن العربي فلا مكان في الارض العربية وعليهم ان يلحقوا بأممهم حيث كانوا ولسنا مطالبين ان ندفع ثمن الخيانة او ان نقدم لهم مكافأة على العدوان .

ذلك هو الحل السلمي الوحيد المقبول قوميا .

وهو حل لا نبتكره نفاقا لدفاع السلام . انما نقدمه دليلا على سهولة الاهتداء الى الحلول السلمية الصحيحة من الموقف القومي العقائدي لأنه الموقف الصحيح . وليس أدل على أنه الحل السلمي الصحيح من ان المهاتما غاندي كان رمزا خالصا للسلام الانساني مع انه لم يكن عربيا قوميا قال غاندي في ١٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٤٦:

" ان فلسطين للعرب بذات المعنى الذي تعتبر فيه انجلترا للانجليز وفرنسا للفرنسيين . انه لخطأ بيّن، وامر غير انساني، ان يفرض اليهود على العرب. ان ما يجري في فلسطين اليوم لا يمكن ان يوجد له مسوغ من اي قانون اخلاقي للسلوك.. انها لجريمة ضد الانسانية ان يقبر العرب الاعزاء لكي يتخذ اليهود كل فلسطين او جزءا منها وطنا قوميا لهم . ان التصرف الامثل هو الاصرار على معاملة اليهود معاملة عادلة في اي مكان ولدوا ونشأوا فيه "

ونحن باسم القومية العربية نصر على معاملة اليهود العرب معاملة عادلة في وطنهم العربي وما على الامم الاخرى الا ان توفي بمسؤولية السلام فتحمي أبناءها اليهود من التعصب ضد السامية. وبهذا تحل المشكلة ويسود السلام .

ان دعوتنا القومية اذن دعوة سلام في جوهرها. وأننا لمسؤولون قوميا عن تحرير العرب اليهود من القهر العنصري المفروض عليهم في ارض فلسطين . ومسؤولون قوميا عن عودة العرب اليهود الذين غادروا وطنهم العربي وتعويضهم عن اي عسف لم يحترم انتماءهم القومي للامة العربية. ولكنا غيرمسؤولين على اي وجه عن ارضاء التعصب الاوربى ضد اليهود او التعصب الصهيوني ضد البشر جميعا. بان نقيم للصهيونية دولة في ارضنا، سواء في فلسطين او حتى في

الربع الخراب من الصحراء القاحلة. لا أحد يملك هذا ولا احد يستطيعه فان جنحوا الى السلم جنحنا. وان اصروا على البقاء اكرهناهم على العودة الى اوطانهم، ونعد لهم ما نستطيع من قوة.

أهي عودة الى شعار القائهم في البحر؟

ان هذا لا يتوقف علينا، ولكن على الطريقة التي يختارونها للجلاء عن الارض العربية. وعلينا ان نكف عن النفاق باسم الانسانية فان الحرب ليست مباراة رياضية بل هي صراع وحشي ومجزرة بشرية. واذا كان ثمة من يدعي الانسانية نفاقا فليبحث اولا عن المسؤول عن المجازر البشرية والعرب لم يكونوا ابدا مسؤولين .

في اواخر الحرب الاوربية الثانية كانت اغلبية اليهود الالمان في سجون النازية. وكانت النازية في مأزق اقتصادي وعسكري لا يمكنها من الابقاء عليهم . فاتفقت النازية والصهيونية في "مفاوضة مباشرة جرت في سويسرا على ترحيلهم من المانيا. وعرض الامر على الحلفاء، فاحالوه الى لجنة برئاسة اللورد موين الانجليزي . ثم استقر الرأي على انه بالرغم من مخاطر الابادة الجديدة التي تعدها النازية للتخلص منهم الا ان ترحيلهم من المانيا سيخفف عنها بعض متاعبها ويعوق انتصار الحلفاء وقرروا جميعا ترك اليهود للموت فأبيدوا بالوحشية التي نذكرها. ونذكر ايضا ان الحركة الصهيونية طاردت من اجل هذا اللورد موين حتى قتلته في شوارع القاهرة.

انها الحرب والصهاينة أول من يعلمون هذا ويعاملوننا وفقا له.

فاذا كان واحد من العرب قد قال - اخيرا- اننا سنلقى الاسرائيليين في البحر فليتذكر المنافقون ان الزعيم الصهيوني وايزمان قد قال : " لا أذيع، سرا اذا قلت اننا اتفقنا مع بريطانيا على تسليمنا فلسطين خالية من العرب قبل نهاية الانتداب " وان الزعيم الصهيوني جابوتنسكي قال : " ان فلسطين يجب ان تكون لليهود أما العرب فلهم الصحراء . ان اتباع سياسة اللين مع العرب للتوصل الى اركان الوطن القومي اليهودي في فلسطين ثم اجلاء العرب عنها تدريجياً مع الزمن سياسة مملة يطول شرحها ، لأنه أصبح معروفاً لدى العرب ماهي الغايات التي يسعى إليها اليهود ولذلك بات من الضروري مجابهة العرب بالأمر الواقع وافهامهم ضرورة الجلاء إلى الصحراء " . وأن الزعيم الصهيوني اسرائيل زانكويل قال : " ان فلسطين وطن بلا شعب فيجب أن تعطى لشعب بلا وطن ، وواجب اليهود في المستقبل أن يضيقوا الخناق على سكان فلسطين العرب حتى يضطروهم إلى الخروج منها " . وأن الزعيم الصهيوني سيملانسكي قال : " ان فلسطين يجب أن تكون وطناً للشعب اليهودي وأنه من الممكن نقل أهل فلسطين العرب إلى الأقطار العربية

المجاورة " . وان الزعيم الصهيوني مناحم بيغن قال " ان مذابح الأسر العربية عمل رائع من أعمال الاستراتيجية العسكرية " . وان الزعيم الصهيوني بن غوريون قال : " علينا ان نتلقن الدرس بأن الهزائم العسكرية في حد ذاتها لا جدوى من ورائها ما لم يعقبها اجراء فعال وعلينا أن نستخدم الانتصارات العسكرية كأساس للتوطن السكاني الذي لايمكن إغفاله " وانه فيما بين يومي ١٩٤٨/١١/١١ و ١١/١٧ / ١٩٦٦ أصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة ثمانية عشر قراراً بعودة الشعب العربي إلى فلسطين فقال الزعيم الصهيوني ابا إيبان " حتى لو صوتت الأمم المتحدة بنسبة ١٢١ إلى واحد فلن نقبل قرارها " .

فهل فقدوا بهذا كثيراً من الرأي العام العالمي ؟

لنكف اذن عن " النفاق " باسم الانسانية فإن النفاق لايخدع أحداً ان الاوروبيين الذين يريدون كسبهم نفاقاً هم الذين ألقوا باليهود في الأفران الموقدة وليس في البحر . وهم الذين أهلكوا من أنفسهم خمسين مليوناً في حربين خلال ربع قرن دفاعاً عما يعتقدون انه حق . وتعلموا من كل هذا ان دعوة الحق التي تهرب من حلبة الصراع دفاعاً عنه دعوة منافقة .

ولنقلها صريحة قاطعة : إذا فرض علينا العالم أن نختار بين ان يذهب العرب إلى جوف الصحراء ، أو ان يذهب الصهاينة إلى أعماق البحر فليذهب الصهاينة إلى أعماق البحر ، ولن نكون المسؤولين ، بل العالم هو المسؤول .

محاضرة القيت في نادي المحامين في عمّان (الاردن) يوم ١٠ آذار (مارس) ١٩٧٠ .

الحرب الاخيرة

الآن وقد مضى اكثر من عام على حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ وهدأت الانفعالات الايجابية والسلبية التي اثارها النصر المحدود الذي تحقق . اصبح من الممكن الحديث عن الحرب التي مضت من اجل الحرب القادمة حديثاً هادئا وموضوعيا نضعه تحت انظار جميع الاطراف المعنية، ونوجهه الى جماهير أمتنا العربية الاصيلة الغائبة.

ما الذي حدث في حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣.

في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ اشتبكت جيوش مصر وسوريا مع جيوش العدو الصهيوني في حرب رابعة اكثر ضراوة من الحروب الثلاثة السابقة (١٩٤٨- ١٩٥٦- ١٩٦٧) وان كانت تكرارا لها من حيث هي اسلوب . واستطاعت القوة العربية ان تقتحم القناة وان تدمر خط بارليف وان تطارد جند الصهاينة الى ان توقف القتال بناءً على قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ الصادر في ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ . وكما حدث من قبل لم يستجب العدو للقرار الى ان كسب أرضا جديدة انسحب منها بعد ذلك نتيجة مساع دبلوماسية ووقف الامر عند الحد الذي هو عليه الان.

في خلال تلك الحرب تلقت الدول العربية المحاربة اقصى تأييد. ممكن من باقي الدول العربية. لم تتخلف دولة عربية واحدة عن الاسهام في المعركة بما تستطيع وتقبل . وبلغ التعاون العربي ذروته. وثبت من كل هذا ان الدول العربية قد اختارت اكثر الظروف ملاءمة لمعركتها الرابعة. نجحت تماماً في بناء قواتها المسلحة وتدريبها وتسليحها فأنزلت بالصهاينة خسائر فادحة واوقفت التفوق " العسكري الاسرائيلي وحطمت هيئة المؤسسة العسكرية الصهيونية وجرعت الآباء والامهات في اسرائيل كؤوس الاحزان التي كانت حتى ذلك الحين مقصورة على شاربيها من العرب. ونستطيع ان نقول انها دست في افئدة كثير من الاسرائيليين بذور الشك في الحل الصهيوني لمشكلاتهم . ثم انها نجحت تماما في كسب الرأي العام العالمي لمعركتها . الصين معها وتتجاوزها. الكتلة الاشتراكية معها وهو كسب قديم . دول اوروبا الغربية على الحياد عامة وهو كسب كبير. دول افريقيا تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل تباعا وهو كسب على اي

حال . ولم تبق الا الولايات المتحدة الامريكية التي وضعت ثقلها العسكري في ميزان القوى في ميدان القتال فاعتدل شيئا ما لحساب اسرا ئيل حتى لاذت بحلفها مع الاتحاد السوفيتى تأمران بايقاف اطلاق النار فوقفت النار. والوضع ان لم يكن في صالح الدول العربية تماما ، فهو في غير صالح اسرائيل على وجه اليقين . وهو كسب جديد للدول العربية بالقياس الى الحروب السابقة. ونجحت الدول العربية تماما في استثمار العلاقات فيما بينها وبين الدول الاجنبية، فقدمت الدول العربية كل ما استطاعت وقبلت من عون مالي وزادت دول البترول فقررت تخفيض الانتاج وحجبه عن امريكا وهولنده.... والحصيلة النهائية انها كسرت جمود الموقف السابق على ٦ تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣وجعلت من عام ١٩٧٣ عامها هي بدلا من عام اوروبا فتلقت وعداً مضمونا من الثنائي السوفيتي الامريكي بتطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وما تزال تنتظر الوفاء بالوعد المضمون .

في ظل الظروف الدولية والعربية التي وقعت فيها حرب تشرين (اكتوبر) انتصرت الدول العربية على اسرائيل. انتصرت بمعنى انها خططت واعدت وقاتلت وحققت ما تريد من القتال . وهذا نصر بالنسبة الى صاحبه. انه النصر الممكن منسوبا الى الدول العربية. وهذا يعني بوضوح انه اذا كان ثمة من لا يرضيهم ما تحقق في ساحة القتال او على المستوى السياسي فان عليهم ان يسلكوا الى ما

يريدون طرقا اخرى لا تمر بالدول العربية وقيود الاقليمية التي تكبلها . ان اي انسان على قدر من الوعي بحقائق الظروف العربية القائمة وبوجه خاص حقائق الاقليمية لا يمكن ان يحمل الدول العربية اكثر مما تحتمل موضوعيا او ان يتوقع منها اكثر مما تستطيع .

والدول العربية في واقعها الاقليمى لا تستطيع الا ان تستثمر امكانياتها المتاحة ماديا وبشريا ودوليا باكبر قدر من الكفاءة . ولا تستطيع ان تحقق من الغايات الا ما يقع في حدود امكانياتها. سواء كان هذا في ساحة القتال أو في مجال التعاون المتبادل فيما بينها أو في خضم الصراعات الدولية وموازينها الثقيلة. وقد استثمرت الدول العربية امكانياتها بأكبر قدر من الكفاءة . كفاءتها هي وحققت من الغايات ما يتفق مع تلك الامكانيات الموضوعية والذاتية فلا يمكن ان ينكر عليها احد- بحق نصرها الذي تم .

نقول هذا لنؤكد امرا ونطرح امرا ثانيا .

الامر الاول انه لم يحدث من الدول العربية تقصير جسيم كان كفيلاً - لو لم يقع- بتغيير النتائج النهائية تغييرا كبيرا سواء في ساحة القتال او في النتائج السياسية التي ترتبت عليه. ان الجزئيات هنا غير ذات اهمية كبيرة في تحديد الصورة النهائية للموقف. فلا ينبغي أن نتجاهل الموقف العام لنسند الى فرد أو مجموعة من الافراد أو دولة أو مجموعة من الدول اخطاء. قد تكون صحيحة ولكنها على اي حال ليست حاسمة. ما وقع كما هو يمثل غاية طاقة الدول العربية المحاربة كما هي في احسن ظروفها. حتى الدول العربية التي لم تحارب لم يكن موقفها السلبى من القتال المسلح بخلا بأرواح رعاياها ولكنه كان تجسيدا لواقعها الموضوعي . انها ببساطة عاجزة موضوعيا عن القتال المسلح. وبالتالي لا محل لفتح أبواب الاوهام الاقليمية من جديد. لو كان فلان غير فلان، لو كان اولئك مكان هؤلاء- لو وقفت هذه الدول ذلك الموقف لاستطاعت الدول العربية ان تحقق اكثر مما حققت. ابدا ما كان يمكن تحت اي ظرف ولن يكون ممكنا تحت أي ظرف ان تحقق الدول العربية اكثر مما حققت في ظروفها الدولية القائمة. لانها- في الواقع - قد حققت ما حققت في افضل الظروف توقيتا وتسليحا وقتالا وتعاونا ودبلوماسية .

ان القومية ليست مثالية. والموقف القومي ليس موقفا مثاليا وابعد ما يكون عن الموقف القومي ذلك الموقف المثالي الذي يتوقع من الدول العربية الاقليمية اكثر مما حققت : تحرير فلسطين مثلا او تحدي ارادة الدول الكبرى مثلا آخر... او الا ستمرار في القتال بعد ان صدر اليها امر مجلس الامن مثلاً ثالثا... الخ .

ثم يأتي الامر الثاني الذى نطرحه ونتمنى ان يحظى بالعناية من كل الجماهير العربية التي ما تزال تحتفظ بولائها لامتها العربية.

التسوية السلمية التي تتضمن الاعتراف بالوجود الاسرائيلي او بضمان امنها لن تتم . بالرغم من كل المحاولات التي يبذلها المجتمع الدولي عامة وكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية خاصة وبالرغم من كل النوايا الخفية والمعلنة التي تسعى الى مثل تلك التسوية وبالرغم من كل الاغراءات والانتصارات التي تقدم- او تحققها ثورة الشعب العربي في فلسطين فان الاعتراف بالوجود الاسرائيلي أو ضمان امنها أو فتح المياه العربية لعملها.. الى اخر ما جاء في القرار ٢٤٢ لن يتم . ان لهذا التأكيد اكثر من سبب وتتصل الاسباب بجميع الاطراف

المعنية كما تتصل اساسا بقوى قادرة تماما على ان تحول دون تلك التسوية. وا نه لمن مصلحة جميع الاطراف ان يكونوا على يقين من هذا .

الحرب الخامسة اذن قادمة.

قد تشنها اسرائيل تحاول ان تحقق فيها نصرا محدودا يعوض الاثار الداخلية المتردية التي سببتها هزيمتها المحدودة . وقد تشنها دول المواجهة العربية لكسر الجمود السياسي الذي تدفن فيه رويدا رويدا قضية ازالة اثار العدوان . في هذه الحرب المتوقعة ستلقي الدول العربية- مرة أخرى- بخلاصة الشباب من أمتنا العربية في أتون المعركة. وستستنزف- مرة أخرى- أغلب الطاقات الاقتصادية المتاحة لتحقيق نصر محدود جديد كل غايته أن يمنح من دماء عشرات الالوف من الشهداء، وعشرات الملايين من الجنيهات ، " حقنة" تقوية لبعض المتسابقين العرب في مضمار المناورات السياسية. كل غايته أن يغذي اوهام الامل في تحرير فلسطين على ايدي الدول العربية ويمد في حياتها حتى يحين حين الجولة السادسة.

لا .

اني اقولها لكل الذين رخص عندهم الانسان العربي الى الحد الذي يدفعون به الى الحروب لا من اجل النصر لامته ولكن من اجل تقوية مراكزهم في المساومات الدبلوماسية. لا . ان حياة جماهيرنا العربية أغلى بكثير من أن نكون مجرد ورقة في لعبة المناورات السياسية . لا . يكفي الدول العربية ما بددت من طاقات وما أنفقت من أموال وما أهدرت من دماء بحجة أنها تريد تحرير فلسطين . لا . يكفي الدول العربية ما فرضت من قهر على جماهيرنا وما استنزفت من طاقاته وما أقتطعت من قوته بحجة أنها تشتبك في صراع مع الصهيونية من أجل تحرير فلسطين . لا . اننا لانريد أن تحكم إسرائيل جماهيرنا العربية بطريقة غير مباشرة عن طريق " اعتذار" الدول العربية بالصراع ضد اسرائيل لتغطية ما ترتكبه في حق جماهيرنا العربية من جرائم .

ان من حق شعبنا العربي أن يوقف هذه اللعبة المدمرة والتي كان هو ضحيتها دائماً . من حقه أن يحول بكل قوته دون أن تبقى إسرائيل أداة لاستنزاف طاقاته دورياً ، فكلما بنى هدمت ، وكلما نشأ له جيل جديد دخل به حرباً جديدة ، وكلما حاول أن يتقدم توقف ليقاتل معاركه المحدودة . من حق شعبنا العربي أن تكون الحرب الخامسة هي " الحرب الأخيرة " ليتفرغ بعدها لبناء الحياة التقدمية رخاء وحرية .

ان هذا يعني أن تكون غاية " الحرب الأخيرة " ليس مجرد تحريك للقضية على المستوى الدبلوماسي ، ولا إزالة آثار عدوان ١٩٦٧ ، ولكن استرداد أرض فلسطين للشعب العربي . إذ من وجهة النظر القومية لا نفهم ما يقال له الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني إلا استرداد أرضه المغتصبة . وبمنتهى الوضوح لايتم هذا إلا بتصفية دولة اسرائيل ، أما ما يتلو هذا من قضايا فرعية مثل مصير البشر الذين جمعتهم الصهيونية على أرض فلسطين أو كيفية التعايش بين الأديان على الأرض العربية فكلها مشكلات ثانوية أو سهلة الحل وليس في التقاليد العربية ما يحول دون الوقوف منها موقفاً انسانياً وحضارياً . المهم أن تكون الغاية الثانية للحرب الخامسة تصفية " الدولة – المؤسسة " التي تجسد السلطة الدخيلة وتحرم الشعب العربي من دولته التي تجسد سيادته المشروعة على ارضه .

واضح ان اسلوب الدول العربية الذي مارسته منذ سنة ١٩٤٨ وحقق اقصى عطائه في حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ لن يحقق تلك الغاية لاسباب موضوعية لا يجدي تجاهلها أو المزاودة عليها. اذن فان تغييراً حاسما وجذريا يجب أن يتحقق في الوطن العربي كشرط سابق للنصر في الحرب الخامسة. أول عناصر هذا التغيير واهمها أن تدخل الجماهيرالعربية ذاتها الحرب الخامسة. ان تكون صاحبتها جندا وقيادة وان ترسم هي استراتيجيتها وتخوض هي مواقعها التكتيكية وتعبىء هي مواردها وتوظفها في سبيل أن تكون الحرب الخامسة التي هي حربها الاولى، حربها الاخيرة.

ليست هذه دعوة الى ما يسمى حرب التحرير الشعبية . ان حرب التحرير الشعبية مستحيلة على الارض العربية لسبب بسيط هو أن جيوش الدول العربية تحول- بالقوة- دون حرب التحرير الشعبية ولكنها دعوة الى قيام دولة واحدة جماهيرية تخوض الحرب الخامسة والاخيرة. دولة واحدة تضم اقاليم مصر وسورية والاردن وفلسطين . نعم فلسطين . ان هذا هو الاستثمار القومي التقدمي الامثل للاعتراف العالمي بان منظمة تحرير فلسطين هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. انها الان تملك أن تدخل في وحدة فتصبح فلسطين المحتلة جزءاً من دولة عربية واحدة من حقها تحرير قطعة من ارضها . نقول ان مثل هذه الدولة كفيلة بتحقيق النصر النهائي الحاسم في الحرب الخامسة- الاخيرة- ان هذه الدولة لا تحل فقط مشكلات الموازين الدولية الضاغطة ومشكلات التسليح الاسرائيلي الكثيف ، بل ستحل ايضا مشكله " الناس " الذين سيتخلفون على الارض العربية بعد تصفية دولة اسرائيل ، ولن يكون حل مشكلاتهم حينئذ على حساب الشعب العربي الفلسطيني وحده .

ضد هذه الدعوة ستقدم الدول العربية وأجهزتها الاعلامية مئات الحجج من اول الحساسيات الشخصية الى ضرورة أن تسبق الوحدة دراسات متأنية لاثارها على التجارة والنقد ومناهج التعليم والنظم الاقتصادية... الخ . عندئذ تتبين الجماهير العربية حقيقة موازين الدول العربية. ليس لدى الدول العربية مانع من أن تقاتل بأبناء أمتنا عشرين سنة في معارك محدودة النصر محدودة الهزيمة، وتستنزف طاقاته عاما بعد عام وتحكمه بحجة تحرير فلسطين . ولكن لديها موانع كثيرة من أن تفتح حدودها وتستغني عن مقاعد السلطة فيها وتقبل " هزة " في نظمها التجارية وسعر عملتها ولو من أجل النصر النهائي على الصهيونية. ليس لدى حكام العرب مانع من أن يموت من كل جيل عربي عشرات الالوف من الشباب ، وان يسخر عائد الانتاج العربي في شراء الاسلحة، وان يجوع الشعب العربي ويقهر سياسيا واقتصاديا وفكريا من اجل تحرير فلسطين ولكن لديهم ألف مانع من أن يفقدوا مراكزهم كحاكمين ولو كان ذلك هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين .

لا .

فلتقل الدول العربية ما تشاء فان دعوتنا ليست موجهة إليها . انها دعوة الى الجماهير العربية في أن تختار بين حروب محدودة متكررة كل عشر سنوات أو اقل أو بين حرب أخيرة تتفرغ بعدها لحياة الحرية والرخاء. ان تختار بين الوحدة وبين التجزئة بين القومية وبين الاقليمية. وهي اذ تختار انما تختار بين النصر والهزيمة. فلتختر الجماهير العربية الوحدة ، طريق النصر، من أجل أن تكون الحرب الخامسة هي الحرب الاخيرة .

مقال نشر في جريدة " السفير " البيروتية يوم ١٩٧٥/١/٢٠ م .

الحياد.. المستحيل

لا تكاد توجد في العالم- الآن- قوة نشيطة ليست طرفا في قضية فلسطين . فبالاضافة الى جماهير الامة العربية- الطرف الاصيل الغا ئب- ومنظمة تحرير فلسطين، والدول العربية، ودولة الصها ينة ومنظمتهم العالمية، والدولتين المسماتين " الا عظم " ، تشارك كل دول العالم الآخر، واحزابها، ومؤسساتها الاقتصادية والاعلامية والثقافية في محاولة ايجاد حل لمشكلة فلسطين .

وسيكون من غير الواقعي توهم أن فلسطين بذاتها كموقع جغرافي قليل المساحة على الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، أو منظمة تحرير فلسطين أو فصائلها المقاتلة هي التي جذبت الى الساحة كل تلك الاطراف أو أجبرتها على المشاركة في الصراع الدائر حولها. الواقع غير هذا الواقع أن السمة القومية الموضوعية لفلسطين مشكلة وحلاً قد فرضت نفسها على كل الاطراف. أعني أن كون فلسطين جزءا من الوطن العربي وكون شعبها جزءا من الامة العربية، وما يعنيه هذا من وحدة موضوعية غير قابلة للانفصام بين الجزء والكل قد فرض على العالم كله ان يكون المدخل الى فلسطين مشكلة وحلا مدخلا عربيا وان يكون المدخل الى الامة العربية سياسيا أو اقتصاديا أو ماليا أو- على الاخص - بتروليا من خلال فلسطين المشكلة وفلسطين الحل . من هنا نجد ان كل من له مصلحة حالة أو يأمل أن تكون له مصلحة في أي مكان من الوطن العربي من الخليج الى المحيط يجد أن فلسطين المشكلة قائمة على الطريق الى مصالحة وان فلسطين الحل جزء لا يمكن تجاهله من حل مشكلاته الخاصة التي يبحث لها عن حل في الارض العربية. باختصار ان جاذبية الامة العربية هي التي فرضت على كل قوة نشيطة في العالم أن تكون طرفا في قضية جزء منها هي فلسطين . أو فرضت عليهم أن ينظروا الى مشكلة فلسطين في اطارها القومي العربي الصحيح .

والغريب ان هذه الرؤية الموضوعية الصحيحة لمشكلة فلسطين اكثر وضوحا خارج الوطن العربي منها في داخله.

فكل القوى العالمية، دولية أو سياسية أو اقتصاد ية أو دعائية أو حتى عسكرية، تأخذ الامة العربية ككل وتتحدث عن " العرب " كمجتمع واحد ، وتخطط وتتحرك على أساس انها تتعامل مع " أمة وا حدة " . وحتى عندما تحاول التركيز على تجزئتها، وا ثارة الخلاف أو تعميقه بين دولها ، فهي تنطلق من التسليم بوحدتها الاجتماعية ووحدة مصيرها محاولة تفتيتها . ويحملون العرب- كعرب- مسؤوليات دولية بترولية مع أن البترول غير متواجد الا في بعض الدول العربية . ويشهرون بالنمو المالي العربي بينما اغلب الشعب العربي يعيش في دول تعاني من الندرة المالية. ويهددون بغزو العرب بدون أن يسموا دولة بعينها للغزو . وقد اصبح كل هذا الطابع المميز لموقف دول العالم الى حد ان قد اختفت أو كادت تختفي في العالم كله ، دلالة الانتساب السياسي الى أية دولة عربية. لم يعد العالم يفهم من المصري ، والسوري ، والكويتي ، والليبي ، والجزائري ... إلى آخره ، إلا أنه أولاً وأخيراً عربي ويعاملونه على هذا الأساس .

هذا في حين ان الحكومات العربية ما تزال فرحة بأعلامها المزوقة ، وبحدودها المصطنعة وباستقلالها الذي لا تستطيع حمايته . وبثرواتها التي لم تصنعها ، ويساوم بعضها البعض وينافس بعضها البعض، ويكيد بعضها للبعض، ويحاول كل بعض منها أن يفلت من المصير المشترك عن طريق الاحتماء بمن يظن أن في يده المصير. ثم إنها كلها تردد بدون ملل، وتعلن ما تردده على العالم كله مؤكدة في كل مرة وكل مناسبة، أن تقرير مصير فلسطين هو مسؤولية شعب فلسطين وحده، وانها وقد اعترفت بمنظمة تحرير فلسطين ممثلا وحيداً للشعب الفلسطيني، فان على المنظمة أن تكون طرفا اصيلا في أية تسوية، وان تحدد هي وحدها ماهية الحقوق المشروعة لشعب فلسطين. وان تقبل ما تقبل وأن ترفض ما ترفض ، وانهم معها في القبول والرفض ومهما يكن مضمون ما تقبله أو ترفضه وعليها وحدها في النهاية أن تتحمل مسؤولية الموقف الذي تختاره.. ويا أيها العالم " الغبى " لا تحملوا كل دولة عربية الا مسؤولية موقفها من " وطنها " وعلى وجه خاص لا تحملوها مسؤولية الموقف الذي يختاره شعب فلسطين .. فنحن لسنا- كما تظنون- أمة واحدة .

يمكننا أن نقول أن ليس العالم هو الغبي وان أحدا لن يفلت من مصير أمته. ولكن هذا ليس ما نريد أن نقول .

انما نريد هنا أن نخاطب، من مواقعنا ومواقفنا القومية، كل القوى التي تنشط مشاركة في قضية فلسطين وتبحث لها عن حلول . وخطابنا موجه- في الا ساس- الى الدول " الصديقة

" عامة والى الدول العربية بوجه خاص . وبكل اخلاص نتمنى أن ينتبه من نعنيهم الى ما نقول حتى نجنب علاقاتنا مع أصدقائنا مخاطر النكسات وحتى نجنب أمتنا العربية مزيدا من التضحيات. وقد أعذر من أنذر كما يقولون...

ان الصراع العربي الصهيوني دار ويدور منذ اكثر من ربع قرن حول موضوع رئيسي واحد : من هو صاحب الحق في ارض فلسطين؟ هل هو الشعب العربي الذي كان يقيم فيها منذ عشرات القرون وطرد منها بالقوة منذ عام ١٩٤٧ وما بعدها، أم هم الصهاينة الذين غادروا أوطانهم وتجمعوا على أرض فلسطين وطردوا الشعب العربي منها بالقوة وأ قاموا فيها دولة أسموها "اسرائيل "؟.

هذا هو جوهر الصراع . انه صراع على الوطن .

والوطن هنا ليس- ولم يكن أبدا - كلمة رومانسية فارغة من مضامينها الحياتية والحضارية. الوطن هو الارض بما فيه من ثروات كامنة، هو المزارع وحاصلاتها، هو المصا نع ومنتجاتها، هو امكانية تقسيم العمل في مجتمع مستقر تتكامل جهود ابنائه لتنميته، هو الامن والسلام والاستقرار الدي يسمح للشعب بأن يتفرغ لتوظيف موارده المادية والبشرية المتاحة في وطنه من اجل التقدم الاجتماعى والاقتصادي والثقافي لشعبه. الوطن ليس محل اقامة بل امكانية تقدم مطرد. وعندما يفقد أي شعب وطنه يتحول الى افراد مشردين ويفقد كل امكانيات التطور. من هنا لا يكون الصراع من اجل الوطن مجرد محافظة على تحفة اثرية موروثة من الماضي أو استجابة لشعارات عاطفية بعيدة عن واقع الحياة ، بل هو صراع من أجل امكان الحياة السوية والتقدم الاجتماعي ، وحتى الكلمات الكبيرة المتداولة- بكثرة- في الحديث العربي عن الوطن والوطنية، مثل العزة والكرامة والعار وما اليها ليست الا رموزا لحياة اجتماعية ذات مضامين عينية اقتصادية واجتماعية وثقافية يمثل الوطن وعدأ بتحقيقها لكل مواطن فيه . اذن فعندما يسلب الوطن لا يكون السلب واقعا على ما كان لنا في الماضي فحسب، بل يكون- فوق هذا- سلباً لما يمكن أن يكون لنا في المستقبل من فرص التقدم الاجتماعي . انه سلب للمستقبل أكثر منه سلب للماضي، ولهذا يستحق الدفاع عن الوطن ثمنه الفادح: الحياة نفسها...

في هذا الوعد المستقبلي للتقدم رخاء وحرية المرتبط بالوطن تصبح كل ذرة من تراب الوطن ذات قيمة أصيلة ومتساوية مع كل ذرة أخرى . تستوي في صدق هذا الوعد الجبال الجرداء

مع المزارع الخضراء، بعضها يستمد قيمته من واقع ما يمنح لابنائه وبعضها يتضمن في احشائه اجابات غير محددة عن دوره الحضاري المقبل .

لهذا يستحيل على أي شعب في الارض أن يفرط في أي جزء من أرضه. ومن قبل ا ندلعت شرارة الحرب الاوروبية الثانية من قرية دانزج واليوم ا نشق صف المعسكر الاشتراكي وتواجه قوات الصين الشعبية حشود الاتحاد السوفيتي على الحدود بينهما من اجل كيلومترات محدودة من الارض الجرداء .

وكما ينطبق هذا على كل الاوطان ينطبق على فلسطين .

ان هذا لا يعني أن المسألة تكون دائما معروضة في ساحة الصراع الفعلي على هذا الوجه فالاغلب أن يلف الصراع ويدور ويناور حول فرعيات أو مفردات الحق في الوطن : الحدود، الامن، الاقامة، نظام توظيف الموارد، المنافسة على موارد اضافية، الاستقرار الانساني ، السلام... الخ. أي ان الصرأع يدور عادة حول موضوعات تكتيكية أو جزئية أو مرحلية . ولكنه لا يحسم نهائيا الا بحسم مضمونه الاستراتيجي . وفي مشكلة فلسطين بالذات استهلكت كل المناورات التكتيكية والقضايا الجزئية خلال الاحداث الدامية التي لم تتوقف منذ ربع قرن ، وأصبحت مفضوحة- الآن- كل محاولات العودة بالصراع الى تلك الساحات على حساب ماهيته الاصيلة، واقتربت كل القوى من مواجهة المشكلة على مستواها الاستراتيجي، وهكذا اصبح المطروح على كافة القوى ان تحدد موقفها من اصل المشكلة وتجيب على السؤال، الاساسي: لمن تكون ارض فلسطين، أللعرب- كما يسمونهم اليوم- أم للإسرا ئيليين؟ واصبح كل طرف – عربي بوجه خاص- يريد أن يثير احدى القضايا الجانبية أو الفرعية كقضايا الحدود أو الامن أو السلام مطالبا بأن يحدد موقفه بوضوح من خلال الاجابة على هذا السؤال الاساسي .

وفي الاجابة على هذا السؤال : لمن تكون ارض فلسطين؟ يسقط الموقف المحايد . انه مستحيل. فالصراع قائم بين طرفين يدعي كل طرف منهما انه- وحده- صاحب الحق في ذات الارض . ومن هنا فان الاعتراف بان الارض من حق الشعب العربي ينفي نفيا صريحا، حتى لو كان غير معلن، حق الطرف الأخر فيها، والعكس بالعكس . فالذين يعترفون صراحة أو ضمنا بأن للصهاينة حقا في أرض فلسطين ينفون نفيا صريحا، حتى لوكان غير معلن، حق الشعب العربي في ارضه. ولما كان الحياد مستحيلا فلا يملك أي طرف إلا أن يكون منحازا مع أو ضد أي من الطرفين . الاعتراف باسرائيل صراحة أو ضمنا، خفية أو علنا، ليس موقفا ايجابيا من الصهيونية

فقط ، بل هو انحياز لها ضد الشعب العربى ينقل صاحبه، - سواء أراد هذا أو لم يرد – الى موقع العداء للشعب العربي ان كان اجنبيا ويوقع صاحبه في افخاخ الخيانة للشعب العربي ان كان عربيا.

وليس الحياد مستحيلا على المستوى الذاتي فحسب، بل هو مستحيل أيضا على المستوى الموضوعي . فالحل النهائي للمشكلة يجب أن يكون موضوعيا حاسما للمشكلة حسماً استراتيجيا. أعني ان المشكلة لن تحل نهائيا . ولايسود السلام الذي يتحدثون عنه كثيرا، الا بعودة الحق في الارض الى اصحابه. أما الحلول " المحايدة" التي توفق أو تلفق بين الحق والاغتصاب وتستعلي على الصراع فتساوي بين طرفيه فانه قد يهدىء الصراع مرحليا، ولكنه سيسقط في النهاية عندما يتجدد الصراع اعنف مما كان . هذا اذا كان من الممكن اصلا توفيق أو تلفيق حل " حيادي " لمشكلة التحرر الوطني . وعندما تحل المشكلة حلها الصحيح بعودة الارض الى اصحابها يمكن حينئذ وحينئذ فقط وليس قبل هذا- حل المشكلات الفرعية ومنها مشكلة اقامة البشر والامن والحدود والجوار وتوظيف الموارد... الخ . أما قبل هذا فمستحيل . وفي هذا الاطار يمكن فهم الطرح العربي لحل مشكلة الاقامة في فلسطين المتحررة الذي حمل عنوان " دولة ديموقراطية " انها دولة عربية اولاً ، تعد، أو تلزم، بأن تكون ديموقراطية غير عنصرية، ولكنها ليست دولة اسرائيلية ديموقراطية وليست دولة مشتركة بين العرب والصهاينة ولو كانت ديموقراطية. وكل تفسير آخر لهذا الحل الذي قدمته الثورة الفلسطينية لمشكلة الاقامة على فلسطين المتحررة وعلى وجه خاص، كل تحايل باسم الديموقراطية على الموقف الوطني هو محاولة للحياد وهي فاشلة ومعادية ان كانت من مصدر اجنبي وهي خيانة ان جاءت من مصدر عربي .

على ضوء هذا نستطيع أن نرى ان كل القوى النشيطة التي تبحث عن حل لمشكلة فلسطين متجهة الى الالتقاء في موقع الفشل المحقق، لانها جميعا تتجه الى حل حيادي مستحيل.

أما على المستوى الدولي، ففيما عدا بضعة دول على رأسها الصين الحليفة المجيدة للشعب العربي كانت الاجابة منذ سنة ١٩٤٧ على سؤال لمن تكون ارض فلسطين : انها لاسرائيل وهو ما يعني تماما انها ليست للعرب. وضد هذا الموقف بالذات ناضل الشعب العربي وبذل تضحيات هائلة الى ان استطاع ان ينجح في أن يفرض على دول العالم جميعا حقا في الارض يتحدثون عنه من منطلق الاعتراف به ولكن بدون تحديد ماهيته ومع الاصرار- في الوقت نفسه- على ان

لاسرائيل حقا في ذات الارض. فهو موقف قائم على محاولة ايجاد " حل وسط حيادي " ينهي المشكلة- كما يتوهمون- بتقسيم ارض فلسطين بين اصحابها ومغتصبيها.

أما على المستوى العربي ففيما عدا موقف قديم للرئيس بورقيبة- لم يصر عليه - كانت الاجابة منذ سنة ١٩٤٧ ان ارض فلسطين، للعرب وهو ما يعني تماما انها ليست للصهيونية ومؤسساتها السياسية المسماة دولة اسرا ئيل . وضد هذا الموقف بالذات ا ستعملت كل القوى الدولية- فيما عدا الصين المجيدة وبضعة دول اخرى- كل ما استطاعت من وسائل التأثير الثقافي والدعائي والاقتصادي والسياسى لتقنع العرب، او تفرض عليهم، قبول الامر الوا قع- كما كانوا يقولون- دولة اسرائيل على ارض فلسطين. وفي نطاق تحقيق هذا الهدف طرح " الاصدقاء " بدائل من الصداقة والدعم والمساندة وسيلا من دروس الثقافة الواقعية. ولجأ الاعداء الى اقصى أنواع الردع فشنوا على الدول العربية ثلاثة حروب هزموها فيها (١٩٤٨- ١٩٥٦- ١٩٦٧) وحالوا بقوة السلاح دون اكمال نصرها في حرب ١٩٧٣. واستطاعوا ان يحتلوا مزيدا من الارض لتكون موضوعا للمساومة. وتدور المساومة الآن على الاساس الذي يطرحونه : استرداد سيناء والضفة الغربية والمرتفعات السورية في مقابل الاعتراف ، الصريح او الضمني، بالوجود الاسرائيلي على ارض فلسطين وضان امنه والتعامل معه على اساس انه احدى دول " المنطقة " . اي ان الثمن المطلوب هو تقسيم فلسطين بين اصحابها ومغتصبيها. وهو ذات الحل الحيادي الفاشل الذي تراجعت اليه الدول الا خرى .

ولا يمكن ان يخطىء اي مراقب للموقف العربي حركة الدول العربية وهي تتجه الى حيث تلتقي مع " الآخرين " من غير العرب في موقع الفشل هذا. فهي قد انتقلت، او تراجعت، من موقف يصر على ان ارض فلسطين للعرب الى موقف يتحدث عن الحقوق المشروعة لشعب فلسطين بدون تحديد ماهية تلك الحقوق . وهي قد انتقلت، او تراجعت، من موقف يطرح المشكلة على حقيقتها الاستراتيجية من حيث هي مشكلة تحرر وطني، الى موقف يستبدل بالاصل فرعياته، وبالاهداف الاستراتيجية اهدافا تكتيكية واصبح الصراع يدور ويلف ويناور حول الامن وا لحدود والضمانات الدولية والتعا يش والسلام ... بل ان التقسيم- تقسيم ارض فلسطين بين اصحابها ومغتصبيها- قد طرح كحل مقبول من اكثر من جهة عربية .

وهكذا يوشك الحل الحيادي الفاشل ان يتحقق ، او هكذا يعتقد اطرافه.

ونحن من مواقعنا ومواقفنا القومية، نحذر فنقول ان هذا الحل قد لا يتحقق اصلا كما تتوقعون فاننا لا نحسب الساحة العربية خالية من القادرين على منع تحقيقه، فلا تربطوا انفسكم بحل فاشل ان كنتم اصدقاء ولا تعرضوا صداقتكم التي نعتز بها ونريد ان ننميها للعثرات، وان كنتم عربا فلا تعرضوا امتكم لمزيد من التضحيات، ذلك لان مثل هذا الحل الوسط الحيادي لا يحسم القضية ولن يكون- اذا وقع- الا بداية صراع مرير ودام على الارض العربية.

وفي مواجهة هذا التحذير ترتفع اصوات من الجانب العربي، ومن جانب الاصدقاء أيضا- متسائلة- وبحق- اذن ماذا نفعل؟.. هل ندخل حربا ضد العالم اجمع؟.. هل نترك الارض تحت الاحتلال الاسرائيلي لتغير واقعها وتهودها؟.. هل نترك ما هو ممكن في سبيل مستقبل لا نعرف حتى ما اذا كان قابلا للتحقيق ام لا؟.. ويضيفون بعصبية ساخرة: ان هؤلاء القوميين لا يفعلون شيئا الا التشدق بالكلمات الكبيرة وترويج الاوهام وتضليل العامة من الناس ولا يقدمون حلولا واقعية لمشكلات واقعية ويجهلون جهلا تاما علم السياسة الذي هو علم تحقيق الممكن وليس علم صياغة ا لكلمات ؟

اذن ، فيا أيها الاقليميون ، استمعوا الى ما نقول، ولنهبط جميعا لنتحاور على ارض الواقع حتى لوكان مرا. أننا لن نفرض عليكم او نتوقع منكم افكارنا او مواقفنا ولن نحاول ان نقنعكم بوسائلنا لحل مشكلة فلسطين، اننا ان نفعل هذا نكون مثاليين . والمثالية كما تقولون هي ارادة غير الممكن موضوعيا.

ولكنا نقدم اليكم الحل الممكن طبقا لافكاركم انتم ومواقفكم انتم، لنثبت لكم اولا ان ثمة مواقف ممكنة بالنسبة اليكم ولكنكم لا تفعلونها، وانكم في مواقفكم الحالية لا تلتزمون حتى افكاركم ومنطقكم انتم، ثم نضع امامكم السؤال الكبير الخطير: لماذا تختارون- من بين كل الممكنات- الموقف الوحيد الذي تنحازون فيه ضد حق الشعب العربي في أرض فلسطين، ولماذا تصرون على هذا الموقف. وهو لا يتفق مبدئيا مع افكاركم ومنطقكم؟...

يقوم الموقف الاقليمي على اساس الاعتراف بتجزئة الوطن العربي الى دول وا ستقلال كل دولة منها بأرضها، وبشعبها وبسيادتها على الارض والشعب. استقلالها عن كل دولة ا خرى سواء عربية أوغير عربية. وعلى المستوى الدولي يعتبر استقلال الدول ارضا وشعبا وسيادة حجر الزاوية في البناء القانوني للعلاقات الدولية، استقلالها عن غيرها وتترتب على هذا نتائج تحدد انماط السلوك " المشروع " في العلاقات الدولية، اهمها قاعدة مستقرة- بمعنى ان احدا لا ينكرها حتى لو

حاول مخالفتها- هي ان سيادة كل دولة محدودة بالارض القائمة عليها وبالشعب الذي يحمل جنسيتها (هويتها)، وان تلك السيادة لا تمتد، ولا يجوز ان تمتد خارج تلك الحدود. ويسمون محاولة مد تلك السيادة الى خارج حدودها " عدوانا " او " تدخلا في شئون الغير "،٠٠٠ الخ ولهذه القاعدة وجهها الأخر المعبر عنه بحق تقرير المصير. فحق تقرير المصير ليس حقا " داخليا " يمنح شعبا بعينه سلطة تقرير ما يريد، بقدر ما هو حق " خارجي " يمنح كل شعب سلطة رفض التدخل في شئونه ويلزم الآخرين بعدم هذا التدخل .

في اطار هذه القواعد التي يعترف بها كل الاطراف المعنيين بحل مشكلة فلسطين يتحدد " الممكن " سياسيا ودوليا. وهو ممكن لانه- على الاقل- مشروع وتجاوزه غير مشروع . وفي اطار هذه القواعد اختارت الدول العربية للشعب العربي في فلسطين ان يكون مسئولا عن تقرير مصيره وتعلن وتكرر ان منظمة تحرير فلسطين هي الممثل الوحيد لشعب فلسطين . كما اعترفت الدول بهذا ولو ضمناً عندما استقبلت قائد المنظمة في هيئة الأمم واعطت الشعب الفلسطيني مقعد المراقب. وترتب على هذا التزامها بعدم التدخل في شئون فلسطين . اي ان الدول العربية وغالبية دول العالم اختارت واعلنت استقلال الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره، فاختارت واعلنت في الوقت نفسه استقلالها عن فلسطين ارضا وشعبا.

فليكن ما داموا يصرون .

أين هو اذن الموقف الممكن الذي يتفق مع هذا المنطق " الاستقلالي " دوليا " الاقليمي " عربيا ؟.. لا يحتاج الامر الى عناء كبير لتعرف إنه الموقف الذي يلزم كل دولة حدود سيادتها ويحول دون مدها الى ارض فلسطين . بوضوح اكثر انه موقف يتلخص في ان تكف كل الدول- اجنبية او عربية- عن " تشكيل " مصير فلسطين أرضا وشعبا وتنتبه الى مشكلاتها الخاصة وتلتزم بحدود سيادتها. فلا تتحدث عن ، ولا تساوم او تقايض على، ولا تقسم او تمنح ارضاً غير ارضها لمن تشاء في مقابل ما تريد من مصالح تحررية او اقتصادية او مالية او سياسية بأكبر قدر من الوضوح، انه في " نطاق القواعد السابقة الاستقلالية دوليا والاقليمية عربيا، لا تكون ارض فلسطين ملكا أو تحت سيادة او خاضعة لارادة اية دولة عربية او غير عربية، وبالتالي يمتنع عليها جميعا ان تدخل مصير فلسطين في حسابات مصالحها وان تمد ارادتها او سيادتها الى ارض فلسطين.

ولنترجم هذا الى موقف " عملي "...

ونخص بالترجمة الدول العربية...

ان لبعض الدول العربية ارضا تحتلها اسرا ئيل . وبكل منطق بما فيه المنطق الوطني الاقليمي لا بد لهذه الدول من ان تسترد ارضها بالوسائل المناسبة لها . الوسائل المناسبة لها اي التي تدخل اولا في نطاق حقوقها المشروعة كدولة مستقلة وتدخل . ثانيا في نطاق امكانياتها المتاحة. لا اعتراض على هذا ابدا. والتخلي عن استرداد : الارض ، او تركها ، او التنازل عنها يمثل خيانة بكل معنى الخيانة الاقليمية. وفي سبيل هذا تستطيع الدول العربية- اذا شاءت - ان تلزم نفسها بحدودها هي، وان تنزع تسليح جزء من أرضها، وان تتعهد وتقبل بكل الضمانات التى تريدها او تفرض عليها حتى لاتتجاوز حدودها عسكريا، ولا تحاصر احدا اقتصاديا ، وحتى ان تفتح مياهها او أجواءها أو حدودها لمن تشاء... كل هذا ممكن من حيث هو يتفق مع الموقف الاستقلالي دوليا الاقليمى عربيا... لان كل هذا يكون استعمالا لسيادة الدولة على ارضها وشعبها وتقع مسئولية قبوله او رفضه على شعبها.

ولكن غير الممكن هو ان تمد أية دولة ارادتها الى ما يتجاوز سيادتها فتقول ان تلك الارض التي هي خارج حدودي ليست ملكا لهذا الشعب بل ملك للآخرين مع ان كليها لا ينتميان اليها- كدولة- سياسيا. غير الممكن بمنطق الاستقلال الدولي والاقليمية العربية ان تعترف أية دولة، صرا حة أو ضمنا، بالوجود الاسرا ئيلي على أرض فلسطين . بما يعنيه هذا ويتضمنه من ان ارض فلسطين ليست من حق الشعب العربي . من غير الممكن بمنطق الاستقلال الدولي والاقليمية العربية ان تتدخل دولة في شئون فلسطين فتتجه ارادتها الى ارض خارج نطاق سيادتها فتقسمها بين اصحابها ومغتصبيها.. من غير الممكن ان تسترد اية دولة عربية ارضها، او تحصل اية دولة غير عربية على ما يحقق مصالحها الاقتصادية او السياسية او المالية او الثقافية او حتى الدعائية مقايضة على ارض خارج نطاق سيادتها هي ارض فلسطين .

لمن الارض التي تسمى فلسطين؟ أللشعب العربي أم للصهاينة؟..

الاجابة الوحيدة الممكنة بالنسبة اليكم ايها السادة الاصدقاء وايها الاخوة الحاكمون في الدول العربية، طبقا لمنطلق الاستقلال الذي تتمسكون به ، هو الا تجيبوا اصلا، اذا كنتم اصلا لا تريدون، أو لا تستطيعون في الظروف القائمة، ان تقولوا انها للشعب العربي . ولكم في هذا حجة على من يطلبه منكم هي انكم- بحجة استقلالكم - لا تستطيعون، وليس من حقكم ، التدخل في شئون فلسطين. ونشهد ان الاعتراف الصريح او الضمني باسرائيل محرم عليكم، وفيما عدا هذا

افعلوا ما شئتم لاسترداد ارضكم او تحقيق مصالحكم ولكل حكومة شعب هو المسئول النهائي عن القرارات التي تتخذها حكومته. ثم يبقى السؤال موجها لاصحابه فقط ، ويتحمل الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير التي تمثله مسئولية الاجابة عليه . وكل الاطراف التي يحرضونها الآن على ان تجيب اعترافا ضمنيا بصحة ما نقول ولكن عليها ان تتذكر . ان " الحياد" مستحيل بالنسبة اليها كما هو مستحيل بالنسبة الى غيرها، كل ما في الامر انها لا تستطيع أن تمتنع عن الاجابة وليس لها في الجواب خيار فاما ثورة حتى النصر واما الخيانة...

كل هذا والخطاب إلى كل الاطراف المعنية بحل مشكلة فلسطين، وفي نطاق افكارهم ومنطقهم ومواقفهم، اما القوى القومية التقدمية- الممثلة الوحيدة لجماهير الامة العربية - فان لها من المشكلة افكارا ومنطقا ومواقف اخرى ليس هنا موضع الحديث عنها.

مقال نشر في جريدة السفير في ١٩٧٥/٣/٣

التقدم على الطريق المسدود

- ١-

منذ حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ والثورة الفلسطينية تتقد وتكسب مواقع جديدة. على المستوى العربي تقدمت في مؤتمر الرباط فاعترفت الدول العربية بان منظمة تحرير فلسطين هي الممثل الشرعي ا لوحيد للشعب الفلسطينى وكسبت " صلا حية " تلقى ما قد يتحرر من الاراضى المحتلة وصححت التسليم " الواقعي " الذي حدث سنة ١٩٤٨ يوم أن اقتسمت فلسطين بين دول عربية وبين الصهاينة. وعلى مستوى الرأي العام العالمي أصبح مسلما- او يكاد يكون مسلما- ان أي حل لمشكلة السلام في الشرق الاوسط لا يمكن أن يتم في غيبة منظمة التحرير الفلسطينية. وان للشعب الفلسطيني حقوقا مشروعة " حتى من دون تسمية تلك الحقوق المشروعة. وتعمر صحف العالم جميعا التي كانت من قبل تنكر وجود الشعب ذاته- بنقد موقف اسرائيل، غير الواقعي الرافض المفاوضة مع منظمة تحرير فلسطين . وعلى مستوى المجتمع الدولي تقدمت " الثورة الفلسطينية فى مواقع لم تسبقها اليها أية حركة تحرير أخرى . فقد قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة دعوة المنظمة لالقاء كلمتها في المناقشة المفتوحة حول قضية فلسطين . وذهب ابو عمار والقى كلمته التاريخية وعومل معاملة رؤساء الدول طبقا " لبروتوكول " المنظمة الدولية. وتقدمت الثورة الفلسطينية فأخذت مقعد المراقب في هيئة الامم المتحدة .

بعكس ما يقال تمثل كل تلك الخطوات مكاسب حقيقية للثورة الفلسطينية وتتضح سماتها كمكاسب من خلال مقارنتها بالمواقع التي سبقتها وليس قياسا بالامال التي لا تزال معلقة على مستقبل الصراع مع القوى المعادية للثورة. ان الشعب الذي طالما انكر الصهاينة وجوده وتجاهل المجتمع الدولي ماهيته كشعب قد اسقط عنه عنوان " اللاجئين " وفرض وجوده على منكريه ومتجاهليه. والارها بيون من قبل قد اعترف لهم بانهم ثوار من اجل التحرر كما كانوا منذ البداية. والقضية التي حاولت قوى كثيرة حصرها في نطاق الامن والحدود قد فرضت حقيقتها فاعترف بانها قضية ارض ووجود.. الخ . كل هذه مكاسب وخطوات متقدمة بالمقارنة بالبداية المتواضعة لحفنة من الشباب بدأوا الثورة في مطلع عام ١٩٦٥.

من ناحية أخرى فان هذه المكاسب والخطوات المتقدمة لم تمنح للثورة الفلسطينية تبرعا من أحد . لقد قدم الشعب العربي ضحايا بشرية وا قتصادية هائلة ليفرض على كل الاطراف افساح الطريق لمسيرته المتقدمة. بل نستطيع ان نقول ان الشعب العربي الفلسطيني قدم من التضحيات البشرية حتى الان ما يتجاوز بكثير ما قدمته أية ثورة أخرى بالنسبة الى حجمه وظروفه. ولعله الشعب الوحيد الذي كانت ضحاياه من البشر في الخطوط الخلفية لثورته اضعاف ضحاياه في صدامه القتالي مع اعدا ئه في خطوطه الامامية. ومع ذلك فانها- كلها- ضحايا قدمتها الثورة من اجل ان تبقى وتنتصر.

ويجادل كثيرون في استحقاق النشاط الثوري لما كسبت الثورة من مواقع متقدمة. يقولون انما هي مغريات تقدم الى الثورة في مساومة صامتة تستدرج بها الى مواقع التسليم والتصفية . ان هذا الرأي- على اطلاقه- غير صحيح . ولكنه لا يخلو من صحة. فلا شك في ان التراجع للاستدراج الى مواقع افضل للصراع خطة تقليدية في كل صراع . ولا شك في أن القوى المعادية في الاصل للثورة، والقوى المتفقة مع الثورة مرحليا وتكتيكا ولكنها معادية لاهدافها الاستراتيجية قد ترى - معا- ان التراجع التكتيكي أمام الثورة ، أو السماح لها بكسب مواقع محدودة ، وسيلة فعالة للوصول بالثورة الى مأزق لا تملك فيه الا التنازل عن أهدافها الاستراتيجية . اعني لا تملك فيه الا قبول الهزيمة والتسليم . غير ان المكاسب والخسائر في الصراع الثوري لا تتوقف على مجرد النوا يا. لا نوايا المتقدمين ولا نوايا المتراجعين . بل العبرة في كل مرحلة بما يتحقق عينيا وواقعيا في ساحة الصراع ولكل طرف ان يحتفظ بنوا ياه أو يجترها بدون أن يكون ذلك ملزما للطرف الآخر (١).

ثم ان مجرد التجاء القوى المعادية للثورة الفلسطينية استراتيجيا الى اسلوب التراجع أمامها وتمكينها من التقدم بدلا من اسلوب التصدي لها ايجابيا ودفعها الى التراجع لا يمكن ان يكون اختياراً متبرعا به من القوى المعادية. ان اقل ما يمكن أن يقال هو ان الثورة الفلسطينية قد استطاعت ان تفرض على القوى المعادية أسلوبا جديدا يسمح لها بالتقدم ولو خطوة واحدة بدلا من الصمود أو التراجع. ويوم أن تفرض، الثورة، أي ثورة ، على ا عدائها التخلي عن اسلوب في الصراع واختيار ا سلوب آخر تكون قد كسبت وحققت تقدما لا يستهان به .

وحتى لو صدق ما يقال من أن ما حققته الثورة الفلسطينية من مكا سب على المستوى العربي والدولي، يرجع الى ارادة القوى المعادية لاهدافها الاستراتيجية استدراجها وتوريطها في

مأزق لا تملك فيه الا أن تستسلم فانه من المثالية الفاشلة ان ترتبط ارادة الثورة بارادة أعدائها ارتباط رد الفعل بالفعل الاصيل . ومن امثلة تلك المثالية الفاشلة أن يقال للثورة لا تتقدمي الى مواقع جديدة لان العدو هو الذي تراجع عنها استدراجا أو توريطا. انما على الثورة أن تتقدم وتضع قدميها في كل مكان يتسع له ثم تستثمر تقدمها المرحلي لخدمة المرحلة التالية طبقا لخطتها الاستراتيجية بصرف النظر عما تريد القوى المعادية. ان الثورات التي تستحق النصر لا يمكن أن تفقد اصالتها الثورية وتصبح في حركتها تابعة لمخططات القوى المعادية. ان الثورة فعل ايجابي دائما وهو ما يعني أن لها خططها الخاصة المنضبطة باهدافها الاستراتيجية غير المتوقفة على نوايا العدو .

من هنا نقول ان الثورة الفلسطينية قد حققت- حتى الان- مكاسب هامة وتقدمت خطوات لا يمكن انكار قيمتها قياسا على مواقعها ومواقفها، ومواقع ومواقف أعدائها، السابقة على ما تم منذ تشرين (اكتوبر). ومن يشك- بعد- في أن الثورة الفلسطينية تكسب وتتقدم عليه أن يراجع مواقف ومواقع العدو الآن ويقارنها بمواقفه ومواقعه السابقة على تشرين " اكتوبر " ١٩٧٣ فإن ابسط المقاييس هي أن كل هزيمة للعدو هي انتصار للثورة .

كل هذا- فيما نعتقد - صحيح أو يمكن الاتفاق عليه لانه واقع متعين، ثم يبقى السؤال الاهم : الثورة الفلسطينية تتقدم ، نعم، ولكن الى أين؟

ان الاجابة على هذا السؤال لا تهم الثورة الفلسطينية وحدها بل تهم الامة العربية كلها. وهو سؤال تبلغ جديته وخطورته حدا لا يسمح بتجاهله. ان تجاهله قد يؤدي الى اغراق اكثر من قطر عربي في بحور من الدماء لا يستطيع أحد منذ الان أن يتنبأ بمن سيغرقه طوفانها. وذلك لان وراء كل الاطراف النشطين على مسرح الاحداث العربية حاليا شعبا عربيا متوتر الانتباه لن يسمح لاحد ، أي احد، بأن يشتري سلامته الشخصية أو سلامة أى ارض عربية مقايضة مع العدو بأرض فلسطين أو بجزء من أرض فلسطين . ولا نبالغ اذا قلنا ان مسؤولية هذا المصير الدموي، ومسؤولية تجنيب الشعب العربي أهواله وعذابه،. يتوقف بالدرجة الاولى على موقف الثورة الفلسطينية من المستقبل القريب.

من هنا فان الشعب العربي يقف من الثورة الفلسطينية- في هذه المرحلة- موقفا واحدا ذا وجهين:

الوجه الاول: التأييد الكامل لكل خطوة دعائية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية تكسب للثورة موقعا متقدما على المستوى الدولي . انه يدعم ويبارك تقدم الثورة على طريقها الطويل ولو كان تقدمها معنويا فقط . انها كلها مكاسب لا بد من أن تؤخذ ولا يجوز التفريط فيها لاي سبب لا يتناقض مع الهدف الاستراتيجي للثورة : استرداد أرض فلسطين .

الوجه الثاني : رفض وادا نة ومنع (بالوسائل المناسبة) التنازل الصريح أو الضمني عن الهدف الاستراتيجي للثورة مقابل الحصول على انتصارات تكتيكية أو مرحلية. اعني رفض وادانة ومنع (بالوسائل المناسبة) تصفية الثورة .

ان لهذا الموقف الواحد- ذي الوجهين أسسا عقائدية لن تزعزعها كل قوى العالم ولن يستطيع أحد ان يناور عليها أو يلتف حولها. خلاصتها انه لا الشعب الفلسطيني ممثلا في منظمة تحرير فلسطين ولا الشعب العربي كله ولا الدول العربية مجتمعة أو منفردة تملك حق التصرف في أرض فلسطين . انها جزء من الوطن العربي تملكه الاجيال المتعاقبة من الشعب العربي كله ولا يملكه أحد ليتصرف أو يساوم عليه.

ثم نقول :

ان الوجه الاول من الموقف هو المطروح في هذه المرحلة. ان الثورة الفلسطينية تكسب وتتقدم وبالتالي تستحق الدعم والتأييد. ولكن الثورة الفلسطينية لم تتجاوز مكاسبها التكتيكية الى أي تنازل صريح أو ضمني عن هدفها الاستراتيجي . من هنا فاننا لا نستطيع أن نفهم موقف من يسمون أنفسهم " جبهة الرفض " الا على أساس انه موقف من " نوايا " تتصل بالمستقبل، وليس موقفا من واقع متعين في الحاضر. ولقد قلنا من قبل ان المكاسب والخسائر لا تتحقق بالنوايا ولكن بالواقع المتعين. لهذا فان الشعب العربي لا يستطيع- من ناحية- حجب تأييده لما تحققه الثورة الفلسطينية استنادا الى الاتهامات الموجهة الى " النوايا " ولا يستطيع- من ناحية أخرى- أن يقبل من الثورة الفلسطينية مجرد " النوايا " ضمانا للمستقبل .

وهذا هو بيت القصيد .

والحديث موجه الى القادة والكوادر والقواعد المقاتلة في الثورة الفلسطينية. لقد تقدمت الثورة الفلسطينية الى موقع الاعتراف العربي الكامل بمنظمة تحرير فلسطين للشعب الفلسطيني ولكن هذا الا عتراف كان مصحوبأ بتحميل الثورة الفلسطينية وحدها مسؤولية

تقرير مصير فلسطين . وهو ما يعني تماما التخلي عن مسؤولية الاسهام في تقرير مصير فلسطين بالاسلوب الذي اختارته الثورة. وتقدمت الثورة الفلسطينية الى موقع كسبت به صلاحية تلقي أي ارض تتحرر واقامة سلطة وطنية عليها، ولكن الارض المقترح تقديمها الى الثورة الفلسطينية ذات حدود مع باقي فلسطين مطلوب أن تضمن السلطة الوطنية أمنها. وتقدمت الثورة الفلسطينية الى موقع كسبت به اجماع الرأي العام العالمي على ا ستحالة استقرار السلام في " الشرق الاوسط " في غيبة الشعب الفلسطيني، ولكن هذا الرأي العام العالمي نفسه ما يزال يجمع على أن ذات السلام الذي لن يستقر في غيبة الشعب الفلسطيني لن يستقر أيضا الا بقبول الوجود الاسرائيلي في فلسطين . وتقدمت الثورة الفلسطينية فكسبت مقعدا لمراقب في هيئة الامم المتحدة وعومل قائد الثورة فيها معاملة رؤساء الدول، ولكن هيئة الامم المتحدة تعطي اسرائيل فيها مقعد العضوية لا مقعد المراقب وتعامل رئيس دولة الصهاينة- لو ذهب اليها- معاملة رؤساء الدول أيضا.

لقد فتحت الثورة الفلسطينية الطريق وتقدمت عليه وحققت مكاسب لا يمكن انكارها أو فرضت الثورة الفلسطينية على القوى المعادية أن تفسح لها الطريق فتقدمت عليه وحققت مكاسب لا يمكن أنكارها. يستويان في الحاضر ولكن المستقبل يختلف . ان ذات القوى المعادية للاهداف الاستراتيجية للثورة قد اقامت في نهاية الطريق سدا معلوما ومعلنا أساسه الاعتراف الصريح أو الضمني باسرا ئيل أو ضمان أمن حدودها، أي تصفية الثورة .

ان الثورة الفلسطينية تتقدم ولكن على طريق مسدود .

وغدا أو بعد غد، ستصل خلال تقدمها الى السد .

ولن يقول أحد انه قد فوجىء فان كل شيء مفضوح . فما الذي ستفعله الثورة حينئذ؟

انه سؤال صعب. صعب الى درجة أن قوى كثيرة تجزع من مجرد مواجهته. اعني انها تفضل التوقف من الان قبل أن تصل الثورة الى مواجهة التحدي التاريخي الذي يمثله هذا السؤال . قبل أن تصل الى السد القائم في طريقها. وهو اصعب بكثير من أن تترك الاجابة عنة للظروف بمنطق، سنرى حينئذ ماذا علينا أن نفعل. ولا ترجع صعوبته الى مجرد انه سؤال مصيري يتوقف عليه مصير الثورة ذاتها أو مصير كثير مما هو قائم الآن فى الوطن العربي، بل يضاف الى هذا ان كل القوى التي تراجعت أمام الثورة حتى الان ستدير ظهرها الى السد وتواجه الثورة من موقف عداء سافر. ان الذين مهدوا من قبل للتخلي عن المسؤولية سيقفون بعيدا ويقولون للثورة قرري انت مصيرك فان " الشعب الفلسطيني مسؤول عن تقرير مصيره ". والذين اعترفوا بوجود الشعب

الفلسطيني سيقولون له قد آن الاوان لتعترف بالوجود الاسرائيلي . والذين ا ستقبلوا قائد الثورة في هيئة الامم المتحدة وقدموا للثورة مقعد المرا قب سيطلبون من الثورة أن تلتزم بميثاق هيئة الامم "فلا تستولي على الارض بالقوة " وتحترم قراراتها التي تعترف بالوجود الاسرائيلي . باختصار عند السد ستكون الثورة الفلسطينية مطالبة " بالثمن " من الاعداء والحلفاء والاصدقاء وعلى المستوى الرسمي العربي والدولي . وفي مواجهة كل هؤلاء سيكون عليها أن تجيب على السؤال الصعب .

ماذا تفعل؟

واضح ان الامر اكثر جدية وخطورة من أن يقول لنا ا لثوار : ثقوا فينا وفي ارادتنا الثورية فسنتخطى هذا السد أيضا كما تخطينا من قبل سدودا كثيرة .- ان أحدا لا يستهين بارادة الثورة الفلسطينية أو يشك في نوا ياها . ولكن المكاسب والخسائر لا تتوقف على النوايا وحدها بل على المعطيات العينية. ولا يمكن لاحد أن يزعم أن ارادة الثورة وهى تواجه كل أعدا ئها واصدقائها وحلفائها السابقين ستكون بمثل النفاذ الذي كان لها يوم أن كانت تواجه اعداء على خطوطها الخلفية. لهذا فان الشعب لا يقبل رهان المستقبل على ثقته بالثورة . ويكون على الثورة- لكسب رهان المستقبل- أن تحول ارادتها ومن الان الى معطيات تتراكم وهي تتقدم حتى اذا ما بلغت السد كانت قادرة على اقتحامه ومواصلة مسيرتها " ثورة حتى النصر".

ما هي تلك المعطيات، وكيف تتحقق، وكيف تتراكم حتى تصبح من القوة بحيث تمكن الثورة- غدا أو بعد غد- من اقتحام السد القائم على طريقها ومواصلة مسيرتها ، ثم، أين تتحقق تلك المعطيات، في قوى الثورة أم في الارض المحتلة أم في الارض العربية أم على المستوى الدولي؟.. كل هذه الاسئلة والاجوبة الصحيحة عليها تحتاج الى درا سات علمية أكثر عمقا من أية درا سة وتحتاج الى جهود مكثفة أكثر ثورية من القتال المسلح ذاته. والانشغال بها- بعد- هو المحك الحقيقي لفرز الثوار حقا من ادعياء الثورة. وانه لاجدى الف مرة ، من اجل تحرير فلسطين، ان يساند الثورة في مسيرتها وهي تتقدم نحو السد بما يساعد على اقتحامه من أن تطوق ومنذ الان بحزام "الرفض " الذي يضعف مقدرتها على مواجهة التحدي التاريخي الذي ينتظرها.

غدا أو بعد غد.. كل القوى التي تراجعت أمام الثورة " الفلسطينية " حتى الان ستدير ظهرها الى السد وتواجه الثورة من موقف العداء السافر. الذين مهدوا من قبل للتخلي عن المسؤولية سيقفون بعيدا ويقولون للثورة قرري انت مصيرك فان " الشعب الفلسطيني مسؤول عن تقرير مصيره ". والذين اعترفوا بوجود الشعب الفلسطيني سيقولون له قد آن الاوان لتعترف بالوجود الاسرائيلي والذين استقبلوا قائد الثورة في هيئة الامم المتحدة وقدموا للثورة مقعد المرا قب سيطلبون من الثورة أن تلتزم بميثاق هيئة الامم المتحدة " فلا تستولي على الارض بالقوة " وتحترم قراراتها التي تعترف بالوجود الاسرا ئيلي . باختصار عند " السد " ستكون الثورة الفلسطينية مطالبة " بالثمن " من الاعداء والحلفاء والاصد قاء وعلى المستوى الرسمي والعربي والدولي، وفي موا جهة كل هؤلاء سيكون عليها أن تجيب على السؤال الصعب ، " ماذا تفعل " ؟.

تلك هي المحصلة المتوقعة " اذا " ما تطورت الظروف تلقائيا بدون تدخل ثوري يغير مسيرة تطورها. ونعني بالظروف المعطيات الموضوعية في الثورة الفلسطينية نفسها وفي العالم العربي والدولي .

ومن هنا يتحدد الواجب الاساسي للثورة في هذه المرحلة. الوا جب الذي يلزم اعطاءه اولوية مطلقة على كل الواجبات المرحلية الاخرى . انه على وجه التحديد العام ، استثمار كل الامكانيات المتاحة لتطوير الظروف، ظروف الثورة. وظروف العالم العربي والظروف الدولية بقصد تحقيق أمرين :

الاول: الحيلولة دون أن تصل الثورة الى غاية الطريق المسدود، اما بتحطيم المجهودات التي تتجمع لتقيم سدا على طريقها أو بشق طرق احتياطية تستطيع الثورة أن تنفذ منها مستأنفة مسيرتها بدون حاجة الى مواجهة كل القوى في نقطة تجمع واحدة .

الثاني : تنمية امكانيات الثورة بحيث تكون- في اللحظة الحاسمة- قادرة على تحدي كل القوى التي تتجمع لتسد عليها طريقها الى غايتها الاستراتيجية.

والامران متكاملان في اسلوب تحقيقهما. فمن خلال النضال الثوري ، اليومي، وعلى كل المستويات لتحقيق الامر الاول، تنمي الثورة امكاناتها الكفيلة- في اللحظة الحاسمة.- بتحقيق

الامر الثاني، وخلال كل هذا تغير الثورة- أو يمكن ان تغير- ظروفها أوظروف العالم ا لعربي وا لظروف الدولية أ يضاً .

أما عن ظروف الثورة فتنقسم الى قسمين :

١- ظروف داخلية تتمثل في قواها البشرية وتوزيعها على النشاطات العسكرية والسياسية وعلاقاتها فيما بينها وبين قواعدها الجماهيرية، ومقدار ما هو متحقق فيها- من وحدة وانضباط وديموقراطية. وهي ظروف كما تبدو للكثيرين سيئة، بمعنى انها معوقة لفاعلية الثورة . وكما تبدو لنا يعتبر استمرارها الى أن تصل الثورة الى مرحلة التحدي التاريخي الذي تكلمنا عنه انتحارا مؤكدا. اننا لا نستطيع هنا أن نتحدث عن كل ما نعرف حتى لا نصبح طرفا في صراع لا يحقق شيئا سوى اضعاف الثورة . كما لا نستطيع أن نتحدث عن التفاصيل والمواقف الذاتية. ولكننا نتحدث عن "نواقص " عامة ونختار منها اثنتين : الوحدة والديموقراطية .

ان الوحدة التي تعنينا هي وحدة التنظيم وليس وحدة الرأي لأن وحدة التنظيم ممكنة ووحدة الرأي مستحيلة ومن هنا فاننا لا يمكن أن نطالب أحدا بان يشتري الوحدة التنظيمية بالتنازل عن معتقداته أو رأيه. ولا نقول القول البديهي الذي يعرفه كل المناضلين من أنه عند اختلاف المنطلقات الفكرية وحتى الاهداف الاستراتيجية بين الذين يناضلون في سبيل غاية مرحلية واحدة ضد عدو مشترك تكون الجبهة هي الاسلوب العلمي الوحيد للوحدة أداة الثورة . والجبهة تعني أن يؤجل كل طرف فيها الصراع حول منطلقاته الفكرية وغاياته البعيدة . نقول يؤجل ولا نقول يتنازل.. هذا قول بديهي يبدو ان كثيرا من فصائل الثورة لا تراه مقنعا. فنضيف انه بصرف النظر عن كل بحث عقلاني فان وحدة فصائل الثورة ولو في جبهة ستصبح قريبا ضرورة غريزية : اعني انها ستكون الملاذ الوحيد، التلقائي، للدفاع عن النفس . عن الثورة نفسها بكل فصائلها. ومن هنا تبدو الفرقة الحالية مغامرة انتحارية لا لفصيل من فصائل الثورة، بل لكل فصائلها جملة، المخطىء والمصيب. والواقع ان الشعب العربي لا يستطيع ، على ضوء توقعات المستقبل ان يلحظ الفارق بين الانقسام في أداة الثورة وبين خيانة أهدافها الا حسن النية. وليس حسن النية عذرا عن الهزيمة. فعندما تحل الهزيمة سيجرف تيار الانتقام كل اطرافه ولن يتوقف أحد ليرى من كان مخطئا ومن كان مصيبا، من كان حسن النية ومن كان يتآمر على الثورة من داخلها !..

ثم نحدد فنحاور الاخوة الذين اختاروا مواقعهم فيما يسمى " جبهة الرفض " . انكم شركاء في الثورة ومن حقكم أن ترفضوا ما تعتبرونه مهددا لمسيرتها. هذا لا شك فيه. ولكن الذي يحيط به الشك أن يكون ا نقسام أداة الثورة - تنظيميا- هو الاسلوب الصحيح لحماية الثورة ومسيرتها مما ترون فيه خطرا عليها . ان الانقسام لن يفعل شيئا الا اضعاف الثورة ذاتها، ثم اعطاء كل طرف الحرية في أن يحقق ما يريد بدون عائق . انه يبدو لنا بحثا عن البراءة الذاتية عن طريق الهروب من الحوار أو حتى الصراع داخل الثورة حما ية للثورة بما تتخوفون . والحوا ر أو الصراع ، أيهما، يتم من خلال الالتحام والنشاط الايجابي ولا يتم من خلال الفرقة وتبادل الاتهامات من الخارج . اننا نعرف ما يمكن أن يرد به على هذا. انه المشكلة الاخرى، مشكلة الديموقراطية.

والديموقراطية تعني - أساسا- الاحتكام ، عند الاختلاف، الى القواعد المنظمة وقبول الاقلية بتنفيذ رأي الاغلبية. ويقتضي هذا قواعد كثيرة منظمة للمشاركة في الحوار وطرح الاراء وفي معارضتها والدفاع عنها كما يقتضي قبل كل شيء قبول كل الاطراف للديموقراطية أسلوبا للتعامل فيما بينهم. وهذا بدوره يعني الالتزام بأن تطرح للحوار كل الامور التي لا يتم الاتفاق عليها، وفي أوقات منتظمة محددة مسبقا، أو طبقا لاجراءات محددة من قبل : نريد أن نقول انه لا يكفي للاحتكام الديموقراطي أن تطرح للمناقشة الامور التي يعرف طارحوها مقدما ان الاغلبية ستتبنى رأيهم فيها، أو في الوقت المناسب لتبنيها، وتحجب عن الطرح الديموقراطي الامور التي يخشى فيها من رأي الاغلبية.

بغير وحدة أداة الثورة، ستفشل الثورة في اقتحام ما يعد على طريقها من سدود. وبغير الديموقراطية لن تتحقق وحدة أداة الثورة وعلى الثوار حقا ان يطوروا - قبل فوات الاوان- الظروف الداخلية للثورة لتصبح قوة ضاربة واحدة في مواجهة اعدائها ديموقراطية في داخلها. وعندما تتحقق لاداة الثورة هذه الوحدة الديموقراطية ستكون قادرة على حل بقية مشكلات الممارسة داخلها وخارجها ومنها اعادة التوازن بين القوى الثورية المقاتلة والقوى السياسية والدعائية المساعدة للنشاط الثوري، أو المفروض أن تكون مساعدة . وعلى وجه خاص تكون قادرة على تصحيح ظروفها الخا رجية .

٢- نعني بالظروف الخارجية للثورة الفلسطينية علاقتها الحالية بمن هو خارجها من افراد ومجموعات ونظم وعلاقته أيضا - وبشكل خاص - بالارض . فما تزال الثورة الفلسطينية

ثورة من أجل الارض ولكن بدون أرض . نعني أرضا خاصة بها محجوبة أو مسدودة دون أية سلطة أخرى. أو نعني قاعدة حشد وتعبئة وا نطلاق . ان أرض الثورة ما تزال أرضا مستعارة " تنتفع " بها مؤقتا كالمستعير برخاء الدول العربية. حتى انتفاعها الحالي بأرض لبنان قائم الآن نتيجة قبول الدول العربية لهذا الا نتفاع " المؤقت ". وهو مؤقت بقبول الدول العربية وآية هذا انه في كل مرة وفي كل مكان، رفضت الدول العربية ا نتفاع الثورة باراضي ا حدى الدول لم تستطع الثورة أن تأخذ من تلك الارض قاعدة لها . وفي ايلول الاسود عام ١٩٧٠ واجهت الثورة الفلسطينية ابشع تصفية جسدية في الاردن تحت سمع وبصر كل الدول العربية. وفي كل مرة ، وفي كل مكان، سمح للثورة الفلسطينية بقاعدة من الارض كان قبول الدول العربية المعنية مرتبطا بمصالحها وخططها الاقليمية.

ولقد آن الاوان لتفكر الثورة الفلسطينية باكبر قدر من الجدية فى المخاطر الكامنة فى هذا الموقف لا نعني موقف أن ليس لها " أرض- قاعدة " بل نعني أن حصولها على " ارض- قاعدة " متوقف وجودا وعدما على قبول الدول العربية الصالحة أرضها لتكون قاعدة انطلاق الى فلسطين المحتلة. ان المخاطر الان ليست معدومة حتى لو كانت محدودة لان الدول العربية مشتركة في صراع عسكري حينا وسياسى حينا من اجل " ازالة اثار العدوان " يقصدون عدوان ١٩٦٧، ومن هنا فان للدول العربية المعنية مصالح " اقليمية " في الابقاء على الثورة الفلسطينية ودعمها والسماح لها بان " تنتفع " " بأرض- قاعدة ". ولكن هذا القول كان وما يزال مشروطا باسبابه. وغدا أو بعد غد. اذا استمرت ظروف الثورة وظروف الدول العربية والظروف الدولية كما هي في تطورها التلقائي ستكون الدول العربية في موقف الخيا ر بين الثورة الفلسطينية وبين ازالة آثار عدوان ١٩٦٧. لا أقول الاغبياء بل أقول المجانين فقط هم وحدهم الذين يتصورون ان الاختيار حينئذ سيكون لمصلحة الثورة الفلسطينية. أعني لمصلحة فلسطين وهذا يعني ان الارض - كل الارض العربية- ستكون محرمة على الثورة .

لا نشك لحظة في أن الظرف "الاقليمي " كان وما يزال " وسيكون مصدر أشد المخاطر على الثورة الفلسطينية. نقول كان وما يزال وسيكون لانه ظرف لصيق بالثورة الفلسطينية منذ نشأتها وصاحبها في مسيرتها ويهدد الان مستقبلها بالهزيمة والتصفية. فلقد نشأت أداة الثورة الفلسطينية وما يزال نظامها الداخلي قائما على أساس شرط الانتماء الى الاقليم الفلسطيني . ولم تسمح لغير المقيمين أو النازحين من فلسطين الا بمساندتها فرادى ومن خارج المؤسسا ت التي يتضمنها تنظيمها العسكري والجماهيري . وهكذا نشأت واستمرت مستقلة التكوين عن الجماهير

العربية ولما كان الاستقلال علاقة ذات طرفين فان الجماهير العربية كانت وما تزال مستقلة التنظيم والحركة عن الثورة الفلسطينية. وبقيت العلاقة بين الثورة الفلسطينية ومؤسساتها من ناحية وبين الجماهير العربية من ناحية أخرى علاقة خارجية حتى لو اخذت طابع التأييد الجماهيري والدفاع والمساندة للثورة. ان أقصى صيغة جماعية وصلت اليها هذه العلاقة هي " الجبهة المساندة " التي تكونت منذ سنين على هامش الثورة وما تزال باقية على هامشها. ولم تصل تلك العلاقة- أبدا- الى حد الالتحام العضوي التنظيمي. فانفردت الثورة الفلسطينية باتخاذ القرارات وقيادة تنفيذها ولم تترك مجالا لعربي من غير فلسطين الا ان " يتطوع " لتنفيذ القرار الفلسطيني تحت القيادة الفلسطينية، وهو مجال كان وما يزال هامشيا.

ولما كانت الثورة في حاجة مستمرة الى دعم اعلامي ومالي وعسكري والى " أرض " على وجه خاص فانها في " قوقعتها " الاقليمية لم تجد سبيلا الى ما تحتاج اليه الا التعامل مع الدول العربية الاقليمية مستفيدة في هذا من معطيات مرحلة ما بعد ١٩٦٧ التي فرضت على الدول العربية أن تكون شريكة سلاح من أجل ازالة آثار العدوان وكان أقصى ما استطاعت الثورة أن تحمي نفسها به هو اعلانها المتكرر بأنها " لا تتدخل في شؤون الدول العربية ولا تسمح للدول العربية بالتدخل في شؤونها " . والوا قع ا نه شعار لم يفد الثورة شيئا ولم يضر الدول العربية شيئا. فمن حيث عدم تدخل الثورة الفلسطينية في الشؤون الداخلية للدول العربية قدمت الثورة تأمينا للدول العربية ضد الالتقاء الثوري بين جماهيرها والثورة الفلسطينية ولو على أرض معركة فلسطين وكسبت انحياز الثورة الفلسطينية اليها بدلا من انحيازها ضد جماهيرها . ومن حيث عدم تدخل الدول العربية في شؤون الثورة فقد كان وما يزال شعارا غير ذي مضمون . ان اعتماد الثورة اعتمادا أساسيا على الدعم الاعلامي والمالي والعسكري و " أرض " الدول العربية هو وا قعيا أقصى درجات التدخل في شؤون الثورة الفلسطينية من قبل الدول العربية التي تدعمها وتمنحها " الانتفاع " بأرضها. وليس التدخل الظاهر في صميم مؤسسات الثورة وفصائلها الا مظهرا ملموسا للتدخل الموضوعي المتمثل في أن استمرار الثورة متوقف الى حد كبير على قبول الدول العربية استمرارها .

ولسنا نستطيع القول بأن الثورة مسؤولة مسؤولية كاملة عن هذا الموقف. اذ نحن لا نشك حتى الان في صحة ما كتبناه في العام ١٩٦٩ تحت عنوان " ما العمل " ونحن نتحدث عن الحركة الوطنية لتحرير فلسطين " فتح " قلنا حينئذ :

".. في الساحة منظمة ذات مقدرة متعاظمة. انها فتح . الجسم النامي لتلك الحفنة الرائدة من الشباب الذين غالبوا الظروف القاسية فغلبوها فخرجوا من بين انقاض المعركة الخاسرة منتصرين لمقدرة الجماهير العربية انتصارا تاريخيا . ان ذلك الانتصار قد ربط بين " فتح " المنظمة وبين ملايين الجماهير العربية التي انتصرت في يومين حاسمين من شهر حزيران (يونيو) ١٩٦٧ في سد طريق التراجع . كل كان مثلا للصمود العربي بطريقته بينما الاقليمية منهارة انهيارا شاملاً. وبهذا الرباط اصبحت منظمة " فتح " أملا تتطلع الجماهير العربية اليه، أو اصبحت عند الجماهير العربية أملها الخاص في المستقبل المنتصر.

... ولكن " فتح " النامية في احضان الجماهير العربية كانت تمثل خطرا ناميا في اتجاهات عدة. كانت تمثل أولا خطرا عاجلاً على الوجود الاسرائيلي بما هي قادرة عليه من انهاك لهذا الوجود حتى تتولى الامة العربية الاجهاز عليه. ثم كانت تمثل، ثانيا، خطرا آجلاً على الدول الاقليمية. ذلك لان فتح النامية المتطورة خلال تفاعلها مع الجماهير العربية الواسعة كانت قابلة لان تصبح نواة التنظيم القومى الثوري الذي تفتقده الامة العربية منذ زمن طويل .. غير أن اهتمام الدول الاقليمية لم يكن مقصورا على " فتح " اليوم بل على " فتح " الغد. " فتح " كما تتطلع اليها الجماهير العربية طليعة للثورة العربية الشاملة. وتعرضت المنظمة الناشئة- خلال عامين- لكل أنواع الضغوط والمناورات السياسية.. وقبلت " فتح " أن تحمل على كاهلها الناشىء ميراث الاقليمية الفاشلة. لقد كانت " فتح " أمام اختيار تاريخي وقد اختارت وهي مسؤولية تاريخية. ولكن هل تركت الاقليمية لمنظمة " فتح " فرصة الاختيار؟.. هذا سؤال تاريخي أيضا. لقد عرقلوا انطلاقتها اولا، ثم أوقفوها أمام خيار دقيق ثانيا، ثم حسموا الخيار لمصالح الاقليمية أخيرا، وبدلا من أن يتركوا المنظمة الجماهيرية الناشئة تكمل صياغتها من خلال الواقع الموضوعي لمعركة تحرير فلسطين، يقينا منهم بان الواقع الموضوعي سيصوغها صيغة قومية، جردها الاقليميون من امكانية التطور حتى لا تكون خطرا عليهم . فأحالوها منظمة تحرير فلسطين . ان فتح هنا ترمز الى الثورة الفلسطينية بكل فصائلها، واذا كان أحد قد شك في صحة ما قلناه في حزيران (يونيو) ١٩٦٩ فانة حتى في حدود الرؤية القصيرة يبدو ، السد الذي بنته الاقليمية داخل الثورة وخارجها قائما على طريقها وهي تتقدم ولكن على طريق مسدود .

المهم الان ، هو الاعداد لاقتحام السد .

وهذا لن يكون الا بأن تمزق الثورة الفلسطينية اطارها الاقليمي الضيق وتتحرر من الحصر الاقليمي داخلها وتحطم قيود الاقليمية خارجها لتلتحم عضويا، تنظيميا وماليا وعسكريا وسياسيا، على مستوى القواعد والكوادر والقيادة بالجماهير العربية، وبشكل محدد بالقوى القومية التقدمية في الوطن العربي بعيدا عن الدول العربية وحدودها وقيودها. أن تكون قوى الثورة موجودة ومنظمة وملتزمة ومتحركة ومناضلة في كل مكان من الوطن العربي، هي التي تمول وترغم الاخرين على التمويل، هي التي تدعم وتمنع الاخرين من التراجع، هي التي تربط ربطا موضوعياً من خلال نضالها اليومي سلامة الدول العربية ذاتها بسلامة الهدف الاسترا تيجي للثورة : تصفية الوجود الاسرا ئيلي وا سترداد أرض فلسطين للشعب العربي .

ان هذا يقتضي من الثورة الفلسطينية ثورة أكثر اصالة وعمقا وخصوبة تولد به من جديد مولدا يلائم المخاطر التي تنتظرها على الطريق . ولسنا نجهل الصعوبات الجسيمة التي توا جه الثوار من أجل المولد الجديد ولكنا نحسب أن المصاعب هى محك الاختيار الثوري . ان المسألة ليست مجرد كلمات كبيرة تقال اليوم ولكنها نذير على أكبر قدر ممكن من الجدية يردد ما قلناه في مطلع العام ١٩٧٠ ونحن نتحدث عن المقاومة من وجهة نظر قومية " .

قلنا :

"... لننتظر ماذا بعد ازالة اثار العدوان . عندما ينفض حلفاء المرحلة ويعود حرس الحدود الى الحدود وتطرح قضايا الامن الداخلي والالتزامات الدولية عندئذ ستكون تلك المنظمات أمام اختبار دقيق . اما ان تصفى قواعدها أو تقبل تصفيتها . واما ان تستولي على قواعد في الدول العربية بالقوة المسلحة أي تدخل معارك ضد الاقليمية العربية ذاتها . ولن تكون حجتها في هذا الا أن لها حقا في الارض العربية خارج فلسطين ، أي الا اذا لاذت بالمنطلق القومي، عندئذ ستتبين كم اخطأت عندما اختارت الملاذ الاقليمي ، ولن تكون لها فرصة كسب المعركة الا اذا قبلت أن تكون للجماهير العربية حقا فيها وفي فلسطين لان ذلك هو المبرر لالتزام تلك الجماهير بتمكينها من النصر في قلب الارض العربية خارج فلسطين وعندئذ ستتبين أن الاقليمية تساوي الفشل ولو بعد حين. فان قبلت تحولت الى قوة قومية . ولا بد أن تقبل . نقول لا بد لان " الحقيقة الموضوعية لمعركة تحرير فلسطين انها معركة قومية لا تنتصر فيها الا القوى القومية. وبرغم كل قصر النظر وكل حسن النية أيضا، فان المنظمات الاقليمية الفلسطينية ستجد نفسها في وقت ليس ببعيد انها اما أن تصبح قومية واما ان تهزم.. "

الفرق بين العام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ هو ان الثورة الفلسطينية قد اقتربت - وهي تتقدم - من نهاية المطاف وعليها أن تتمرد على ذاتها لتكون قابلة للالتحام العضوي مع القوى القومية التقدمية ايذا ناً بمولد الثورة العربية. وبكل الاخلاص الصادق الذي لا نملك غيره- الآن- نقول ان مرحلة " الثورة الفلسطينية " قد اوشكت على نهايتها وحققت فيها اقصى ما تسمح به طاقاتها وظروفها الاقليمية وعليها أن تعد نفسها من الآن لتكون جزءا عضويا من متطلبات المرحلة المقبلة : الثورة العربية.

ان مسؤولية هذا الميلاد التاريخي لا تقع على الثورة الفلسطينية وحدها وان كانت تتحمل قدرا كبيرا من المسؤولية، أما باقى المسؤولية فتقع على اولئك الذين يطيب لنا الحديث عنهم تحت عنوان "القوى القومية التقدمية " . وسنتحدث عنهم واليهم قريباً .

-٣ -

... بكل الاخلاص الصادق الذي لا نملك الان غيره نقول : ان مرحلة " الثورة الفلسطينية " قد اوشكت على نهايتها وحققت فيها أقصى ما تسمح به طاقاتها وظروفها الاقليمية وعليها أن تعد نفسها من الان لتكون جزءا عضويا من متطلبات المرحلة القادمة : الثورة العربية.

لا يكفي لهذا الاعداد أن تطور الثورة الفلسطينية أدواتها ومؤسساتها وعلاقاتها الداخلية بحيث تسمح بتحوينها الى أدوات ومؤسسات وعلاقات قومية. كما لا يكفي القبول الاعلامي آو الدعوة الفكرية اليه. أهم من هذا كله أن تتحول الكلمات الى افعال . ان تتحول الدعوة الى ممارسة. فبهذا- قبل كل شيء- تولد الثورة الفلسطينية ميلادا جديدا من رحم الامة العربية فتصبح جزءا عضويا من الثورة العربية.

كيف؟

بالممارسة الثورية على امتداد الوطن العربي دفاعا عن قضايا الشعب العربي كله اعني على وجه التحديد ان تتحرر الثورة من استقلالها الاقليمي الذي لا جدوى منه .

لقد عملت القوى الاقليمية في الوطن العربي ، وأعداء الامة العربية في العالم كله، منذ أكثر من ربع قرن على التركيز ضّيق الافق على قضية تحرير فلسطين . ركزوا عليها كما لو لم تكن ثمة أرض مغتصبة أو محتلة الا أرض فلسطين . وركزوا على قضية المشردين العرب من أرض فلسطين كما لو لم يكن في الوطن العربي مشردون الا من ارض فلسطين . اما الحق فهو ان

قضية تحرير فلسطين : استرداد ارضها للشعب العربي المشرد منها، قضية كانت وما تزال تستحق اضعاف ما بذل من اجلها من جهد ولكن الباطل الذي أبقوه في الظل هو فصم العلاقة بين قضية تحرير فلسطين والقضايا القومية الاخرى عن طريق النزول بالقضايا القومية الاخرى الى الدرجة الثانية أو العاشرة بحجة أن الاولوية يجب أن تكون لقضية تحرير فلسطين . ان هذا يعني أن قضية تحرير فلسطين منفصلة عن القضايا القومية الاخرى ، بحيث يمكن أن يتحقق نصر فيها غير متوقف على الانتصار في القضايا الاخرى . أو يعنى انه يمكن أن يتحقق النصر في قضية تحرير فلسطين بدلا، أو على حساب، النصر في القضايا القومية الاخرى .

وكل هذه أوهام باطلة .

أما انها وهم غايته فيما ينتظر الثورة الفلسطينية وهي تتقدم الان على طريق مسدود . وتقوم الف "لو" تعبيراً عن الخطأ الذي ارتكبه الاقليميون منذ ربع قرن واستدرجوا اليه الثورة الفلسطينية وحصروها فيه.. " لو " كانت الجماهير العربية متحررة" " لو " كانت الامة العربية موحدة وفي يدها كل هذا البترول تدخل به ميدان الصراع لا ميدان الكسب . " لو" كانت الجماهير العربية منظمة" لو " كانت فلسطين ما تزال جزءا من الشام .. " لو.. لو" لسحقت الثورة دولة اسرائيل بضربة عسكرية واحدة ، أو لصفتها في جولة دبلوماسية واحدة . أو على الاقل

- لما شعرت الان بانها تتقدم على طريق مسدود.

ان الايجابي في كل تلك الاماني انها دروس مستفادة من حصيلة النضال الاقليمي . ومع ان الماضي لا يمكن إلغاؤه والعودة الى البدا ية الاولى الا أن الدرو س المستفادة منه يمكن أن تطور المستقبل تطورا يعوض ما فات ويختصر فترة المعاناة . من الدروس المستفادة أن تحرير الجماهير العربية من القهر السياسي والاقتصادي الذي يشل حركتها في اماكن كثيرة من الوطن العربي هو من صميم الشروط الموضوعية لتحرير فلسطين . من الدروس المستفادة أن التحام تلك الجماهير في منظمة ثورية قومية غير مجزأة اقليميا هو من صميم الشروط الموضوعية لتحرير فلسطين . من الدروس المستفادة ان " دولة الوحدة "- النواة أو الشاملة- هي من صميم الشروط الموضوعية لتحرير فلسطين .

اذن، فحيث يقهر الشعب العربي سياسيا أو اقتصاديا ثمة معركة يجب أن يخوضها المناضلون من أجل تحرير فلسطين . وضد الاقليمية بكل مضامينها الفكرية والسياسية والادبية

وحتى الفنية يجب أن يقاتل المناضلون من أجل تحرير فلسطين ، لان ذلك هو " الطريق " الى تحرير فلسطين وكل طريق غيره مسدود بسدود الاقليمية.

ولنأخذ مثلاً لا يستطيع احد ان ينكر واقعيته : الاستعمار الامريكي .

لا ينكر احد حتى عملاء الولايات المتحدة الاميركية والمتعاملين معها انها المسؤولة الاولى عن اقامة دولة اسرائيل على الارض الفلسطينية وعن تشريد العرب من ارضهم ، وعن ابقاء دولة اسرائيل " حية " حتى اليوم بما تقدمه لها من غذاء مالي واقتصادي ودولي، وانها- أي الولايات المتحدة الاميركية- هي التي تحول دون هزيمة اسرائيل هزيمة تسحقها لو تركت لقوتها الذاتية، وانها اي الولايات المتحدة الامريكية - هي التي تزيد فتضع تحت تصرف اسرا ئيل القوى الدولية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والبشرية التي مكنتها من أن تهزم الدول العربية سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ ١ وسنة ١٩٦٧ وتصّد هجومها في ١٩٧٣ وتفتح الثغرة غرب القناة وتعود الى المرتفعات السورية وهي- اي الولايات المتحدة الامريكية- التي تقدم لاسرا ئيل الدعم المالي والاقتصادي والفني والدولي لبناء المستعمرات في الارض المحتلة بعد ١٩٦٧ وتهويد الارض العربية او محاولة تهويدها ، وتعوق ا لمجهودات الدولية الى ان تستقر اسرائيل في الارض . وهي- أي الولايات المتحدة الامريكية- التي حولت اسرائيل منذ ١٩٧٣ الى ترسانة اسلحة معقدة ومتطورة اخذتها لا من الفائض الاميركي بل من مخازن القوات المسلحة الامريكية ذاتها .

لا ينكر احد هذا ويتحايلون عليه بالصمت تارة او بالرجاء غير الواقعي ان تكون الولايات الامريكية قد غيرت سياستها في " الشرق الاوسط " بعد أن وهبها الله الدكتور هنري كيسنجر أو بعد ان عرفت من امر الجندي العربي وبسالته ما كانت تنكره وليس من المستبعد ابدا- مع ثبات تلك السياسة- ان تغير الولايات المتحدة الامريكية اسلوب ممارسة تلك السياسة. والواقع ان الدكتور هنري كيسنجر يمثل مرحلة هامة في تغيير " اسلوب " ممارسة الولايات المتحدة الامريكية سياستها في الشرق الاوسط وفي العالم كله فالدكتور هنري كيسنجر استاذ " البراجماتية " السياسية . انه ضد المبادىء العامة التي تحدد لصاحبها اساليب الممارسة المتفقة معها . ولكنه " نفعي " يحقق غاياته جزءآ جزءآ من خلال تغيير الواقع جزءا جزءا بدون أن يجد من حركته بخطط استراتيجية طويلة الامد . ولكن الغايات تبقى كما هي . وهي في التحليل الاخير الحفاظ وتنمية المصالح الامريكية في الوطن العربي (او في العالم) . غير ان المصالح الامريكية في الوطن العربي لا تنحصر في قيام دولة اسرائيل . بل نستطيع ان نقول ان قيام دولة اسرائيل ودعمها

اقتصاديا وعسكريا لا تمثل بالنسبة الى الولايات المتحدة الامريكية الا مصلحة تابعة لمصالحها الاصلية. ان دولة اسرائيل تقوم " كلب حرا سة " امريكي في الوطن العربي تحرس التجزئة والتخلف وتحرس النشاط الا قتصادي والمالي والثقافي والدعائي للولايات المتحدة من هنا فان تغذية وتقوية وشحذ انياب " كلب الحراسة" مرجعه الى الموضوع الذي يحرسه وليس الى هواية تربية الكلاب .

اين توجد هذه المصالح الامريكية وكيف تتجسد ؟

انها لا توجد في ارض فلسطين وحدها بل هي موجودة على طول الوطن العربي وعرضه . لا تكاد تخلو ارض عربية من مصالح اميركية مالية او اقتصادية او عسكرية او ثقافية وتتجسد تلك المصالح في علاقات تبعية واضحة او خفية تربط الدول المعنية بالولايات المتحدة ماليا او اقتصاديا او عسكريا او ثقافيا، بحيث لا تستطيع- مهما بلغت طهارة وارادة الحاكمين فيها- ان تصوغ حياة الجماهير على الوجه او الى المدى الذي لايتفق مع تلك العلاقات . وتترك تلك العلاقات عادة هامشا يختلف اتساعا من دولة الى دولة تستعرض فيها الدولة بدون مساس بعلاقة التبعية استقلالها عن الولا يات المتحدة الامريكية ويمثل المجال الاعلامي والدعائي في بعض الدول العربية هامشا عريضا لاستعراض الاستقلال و " التحرر " .

غير انه مهما اتسع الهامش الدعائي ومهما ملأه الضجيج فانه لا يخفى عن الجماهير العربية الواقع الموضوعي الذي تعانيه في حياتها اليومية من علاقة التبعية للولايات المتحدة الامريكية. ذلك لأن الجماهير تدرك عن طريق الحياة اليومية الملموسة، وبدون حاجة الى " تحليل فكري ان انحدار مستوى المعيشة بالرغم من اكتشاف مزيد من مصادر الثروة ومزيد من الانتاج ، وتدهور القيمة الشرائية لدخولها النقدية المحدودة اصلاً ، والغلاء المستمر الذي يقفز يوما بعد يوم ومزاحمة الرأسماليين لها في حاجاتها الضرورية، وتعلق مقدرتها على وجبة " غذا ئية " من اللحم مثلا بارتفاع سعر الدولار الامريكى او انخفاضه وموجة اغراق سوقها القومي بالسلع الاستهلاكية الترفيهية.. تدرك ان كل هذا لا يمكن ان يكون مرجعه الى جهل الحاكمين او خياناتهم بل لا بد ان تكون له اسباب موضوعية لا يستطيع الحاكمون مغالبتها اعني تدرك انه مع زيادة الثروة القومية والفقر معا وعجز الحكام عن توجيه الثروة الى حيث تحتاجها- الجماهير لا يمكن ان يرجع الا ان "ثمة" مصالح اجنبية تتحكم في " الثروة وانتاجها وتوزيعها في الحكام انفسهم بالرغم حتى من حسن نوا ياهم . فتكتشف الجماهير- من مجرد المراقبة لما هو محسوس- ان المصالح

الامريكية وراء ما تعانيه في حياتها اليومية وتخرج من هامش الاستقلال الدعائي الى حيث تدرك علاقة التبعية المفروضة عليها وتعي وعيا صحيحا لماذا تحتفظ الولايات المتحدة الامريكية في الارض العربية بكلب حراسة تغذيه وتنميه وتشحذ انيابه وتسميه اسرا ئيل .

وعندما تتململ الجماهير او تتمرد او تثور يعوض الحكام " عقدة الذنب " بالبطش . اذ يبدو للحكام ان تململ الجماهير او تمردها أو ثورتها أمر" غير طبيعي " و " غير مقبول " ما داموا هم لم يقصروا . مع ان المسألة ليست مسألة تقصير ثابت ولا مسألة اتهام بتقصير، المسألة هي ان الجماهير- الناس العاديين- لا يستطيعون الاستمرار في الحياة كما هي قائمة الان في الوطن العربي

ويرون انها لا بد ان تتغير حتى لو لم يعرفوا كيف تتغير، وان كانوا يعرفون معرفة اليقين انهم لا يستأثرون لا نفسهم بكل الثروات المادية والبشرية المتاحة في امتهم العربية، بل تستأثر بقدر كبير منها الولايات المتحدة الامريكية وتقيم اسرائيل حارسا لما تستأثر به. وتردد الجماهير العربية- الناس العاد يين- مقولات تبدو بسيطة وساذجة في حين انها خلاصة أي تحليل علمي لما يجري في الوطن العربي . يقولون وهم يسمعون بالمبالغ الجسيمة التي تمنحها بعض الدول العربية قروضا للدول الرأسمالية الحليفة للولايات المتحدة الامريكية، وبالمبالغ الجسيمة التي تشتري بها بعض الدول العربية عقارات وا سهما في مصانع وشركات وبنوك في جميع اطراف الارض وان كانت بنوكا او شركات ومصانع اميركية او مشتركة بين الاميركيين وغيرهم وبالمبالغ الجسيمة التي تشتري بقاعا كاملة من الارض لتقيم عليها المصايف تشجيعا للسياحة قرب الشواطىء الامريكية وبالمبالغ الجسيمة التي تدفعها الدوائر الامريكية والرأسمالية رشاوى وسمسرة للرأسماليين العرب ليمكنوا لها من المال العربي .. تقول الجماهير : السنا اولى من اعدائنا ؟ اليس عمال ابو زعبل اولى من عمال مرسيدس؟ اليس اللاجئون بدون مأوى في حمص واللاذقية والقناة اولى من الشركات العقارية في لندن وباريس وجنيف؟ اليس الفقراء اولى من الاغنياء؟... ان كان المسيطرون على الثروات العربية قد فقدوا حتى التمييز بين القتلة والضحايا وهو قول حق في بساطته وفي تأصيله العلمي .

فما تفعله بعض الدول العربية بأموال وثروات الشعب العربي ليس اكثر ولا اقل من تصحيح موازين المدفوعات للدول الرأسمالية لتقوية بنيتها الاقتصادية، لتثبيت عملتها، لمنع افلاس منشآتها لمحاربة البطالة فيها.. باختصار للمحافظة على المعسكر الرأسمالي الامبريالي

والمد في أجله وحمايته من الانهيار. والعمود الفقري للمعسكر الرأسمالي الامبريالي هو الولايات المتحدة الامريكية. فالدول العربية عن طريق التمويل والتبادل وفتح الا سواق العربية لا تفعل اكثر او اقل من دعم الولايات المتحدة الامريكية ماليا واقتصاديا وحمايتها من الانهيار.

ولا نقول ان أحدا من الحكام العرب يخون وطنه أو امته ولا نقول ان أحدا منهم سفيه لا يعرف ماذا يفعل بأموال الشعب العربي التي وضعتها الاقليمية تحت تصرفه، ولا نقول ان احدا منهم يجهل انه يمد حياة الدول التي احتلت امته دهرا واستزفت قواها الاقتصادية وامتصت طاقاتها البشرية واذلت شعبها وقتلت أبناءها ووضعت السلاح في ايدي الذين اذلوا الشيوخ واغتالوا الشباب وبقروا بطون النساء وشردوا الاطفال.. وا غتصبوا الارض وا قاموا عليها دولة اسرائيل.

بل نقول ان الوطن العربي في حالة تبعية للولايات المتحدة الامريكية، وان الولايات المتحدة الاميركية اقامت دولة اسرا ئيل وتدعمها للحفاظ على هذه التبعية، وان الدول العربية عاجزة عن ان تتحرر من هذه التبعية بل انها تحت تأثير القوى الرجعية العربية شريكة الاستعمار الامريكي- تدعم وتحافظ على هذه التبعية. وان الجماهير العربية- الناس العاديين- يلمسون هذا ويحسونه من معاناتهم اليومية.

ان الثورة الفلسطينية في اطارها الاقليمي- في المنطلقات والغايات والاسلوب كانت وما تزال تناضل في جبهة فلسطين . وفي تلك الجبهة من ساحة المعركة كانت وما تزال تواجه اسرائيل "كلب الحراسة". ولم يكن في ذلك بأس لو ان الاختيار الاقليمي كان تطبيقا لتقسيم النضال والمناضلين على جبهات متعددة على مدى ا لساحة العربية كلها . ولكن الامر جرى ويجري على غير هذا. فمنذ ربع قرن والقوى الاقليمية تركز الضوء على مشكلة فلسطين لتبقى في الظل والظلام مشكلات الجماهير العربية الاخرى ، وبينما كان ا بطال الثورة الفلسطينية من المقاتلين يواجهون اسرا ئيل ويوجهون الى كلب الحراسة ضربات موجعة تردد صداها فتبالغ في اثارها اجهزة الدعاية والاعلام في الدول العربية، كان الامداد المالي والاقتصادي والعسكري وحتى الدعائي يصل الى اسرائيل " من جبهات الظل " خلال قنوات التبعية للولايات المتحدة الامريكية ومصالحها في الوطن العربي . ان ثروات الوطن العربي تغادره بالف اسلوب واسلوب ، من اول الخوف من الشيوعية الى اخر صداقة " العالم الحر " وما بينهما من متاجرة ، ومقامرة ومغامرة وسمسرة، لتتحول في ترسانات " العالم الحر" الى اسلحة وفي بنوكه الى اموال تعود عن طريق الولايات المتحدة الى اسرائيل لتواجه بها الثورة الفلسطينية.

وهكذا اسفر الواقع الاقليمي التعس الذي حصرت الثورة الفلسطينية نفسها فيه او حوصرت فيه عن حقيقة جديرة بان تفزع كل شريف من الوطن العربي وتحرض على الثورة كل قادر عليها في الوطن العربي الكبير : ان العرب يقاتلون انفسهم في معركة تحرير فلسطين . العرب من فلسطين وثورتهم في مواجهة الصهاينة تدعمهم امريكا باموال وثروات العرب.

ليس كل هذا الا مثلا من الاستعمار الامريكى الجديد .

ونستطيع ان نضرب امثلة من كل مجال وكل قضية.

نستطيع ان نضرب امثلة من قضية الاستبداد الذي حال ويحول دون ان يلتحق الشباب العربي - الا باذن الدول - بالمقاتلين في صفوف الثورة الفلسطينية. نستطيع ان نضرب امثلة من قضية التحرر الاجتماعي حيث يحول الرأسماليون في الوطن العربي دون ان تبلغ معركة تحرير فلسطين الحد الذي يقطع خيوط التبعية المالية والاقتصادية التي تربطهم بالرأسمالية العالمية التي تقودها الولايات المتحدة الاميركية.

نستطيع ان نضرب تلك الامثلة وغيرها لنؤكد حقيقة موضوعية واحدة : ان معركة تحرير فلسطين ليست الا جزءا من معركة الجماهير العربية في الوطن العربي كله ضد الاحتلال والاستبداد من اجل الحرية. ضد التجزئه الاقليمية من اجل الوحدة . ضد التخلف والاستغلال من اجل التقدم الاجتماعي في هذه المعركة الشاملة لا أحد يستطيع ان يقف على الحياد لانه لا يسمح لاحد بان يقف على الحياد . فإما مع الجماهير العربية المقهورة المجزأة واما مع اعدائها صحيح ان لكل معركة مضمونها المرحلي وقواها المناضلة وتكتيكها ولكن ذلك هو شأن الفرق والألوية والكتائب والفصائل متنوعة الاسلحة والمهمات والخدمات في الجيش المقاتل الواحد. وكما أن ضرب سلاح الطيران مبكرا سنة ١٩٦٧ قد ادى الى هزيمة الجيش البري والبحري، وكما ان هزيمة سلاح المخابرات الاسرائيلي مبكرا سنة ١٩٧٣ قد ادى الى هزيمة اسلحة الجيش الصهيوني الاخرى، وكما ان سلامة خطوط الامداد لازمة لاستمرار الجيوش في القتال.. كذلك الامر بالنسبة الى معركة تحرير فلسطين ان النصر النهائي فيها، متوقف على النصر في معارك التحرر العربي من الاستعمار القديم والجديد . على تحرير الشعب العربى من القهر السياسي و الاستغلال الاقتصادي . على هزيمة الاقليمية و تحقيق الوحدة . باختصار متوقف على ان تحمل الثورة الفلسطينية من الان و على ضوء دروس الماضي على الا تقول بعد مرحلة قادمة "لو"... مرة أخرى .

لا يكفي- في هذا- كما قلنا ان تطور الثورة الفلسطينية ادواتها ومؤسساتها وعلاقاتها الداخلية بحيث تسمح بتحويلها الى ادوات ومؤسسات وعلاقات قومية. كما لا يكفي القبول الاعلامي أو الدعوة الفكرية اليه. أهم من هذا كله ان تتحول الكلمات الى افعال . ان تتحول الدعوة الى ممارسة. وهذا يعني- باكبر قدر من الوضوح - أن تدفن الثورة الفلسطينية شعارها الذي لا مضمون له " استقلالها عن الدول العربية او استقلال الدول العربية عنها ". والشعار المثالي الهروبي المفروض عليها : "مسؤولية شعب فلسطين عن تحرير فلسطين " ثم تخوض معركة تحرير فلسطين على اتساعها وعمقها الموضوعيين . الاتساع القومي والعمق القومي . وأن تكون جزءا لا يتجزأ، وقوة مناضلة، في كل ساحة عربية مع الجماهير العربية ، من اجل قضاياها القومية وفي ساحات الممارسة ومخاطرها سيتم اللقاء بالقوى الجماهيرية القومية التقدمية التي استقلت عنها الثورة الفلسطينية طويلا فاستقلت هي عن الثورة الفلسطينية . وسيكون اللقاء في ساحات الممارسة ومخاطرها والالتحام في وهج نيران هو الطريق الصحيح الذي تولد به الثورة من جديد، متجاوزة مرحلة ، الثورة الفلسطينبة " الى " الثورة العربية ".

ان الثورة لن تخسر بهذا الا الاقليمية المترددة المتخاذلة ولكنها ستكسب الامة العربية وجماهيرها القادرة وحدها على تحقيق التزامها بالشعار المرفوع " ثورة حتى النصر " .

- ٤ -

... على الثورة الفلسطينية ان تدفن شعارها الذي لا مضمون له " استقلالها عن الدول العربية واستقلال الدول العربية عنها " . والشعار الثاني الهروبى المفروض عليها " مسئولية شعب فلسطين عن تحريرفلسطين " ..

ولكن الثورة الفلسطينية ستواجه حينئذ " عقدة العقد " التي تعوق الشعب العربي منذ خمسين عاما عن التحرر والتقدم المتكافىء مع الموارد المادية والبشرية المتاحة في امته. ستوا جه جرا ثيم العبود ية والتخلف التي ما تزال تسمم حياة الشعب العربي وتكاد تشل مقدرته على التقدم ستواجه الدول العربية بكل ما تملكه الدول العربية من قوى اقتصادية واعلامية وعسكرية بكل شرطتها ومحاكمها وسجونها بكل حدودها وقيودها. فهل تستطيع الثورة الفلسطينية ان تواجه كل هذه القوى بالاضافة الى اسرائيل ومن وراء اسرائيل؟...

نعم لسببين :

الاول : ان الدول العربية وان كانت كلها مؤسسات اقليمية معادية- من حيث هى مؤسسات لوحدة الجماهير العربية ووحدة الوطن العربي ، وبالتالي عاجزة او معوقة لتحرير فلسطين ، الا ان هذه الهوية المعادية لا تتطابق او تتفق دائما مع هوية الحاكمين فيها ان هذه المفارقة جديرة بانتباه كل الذين يحلمون بتغير الوا قع العربي او يعملون من اجل تغييره . ذلك ان الدولة من حيث هي مؤسسة عبارة عن هيكل متكامل من الاوامر والنواهي تنتظم في مجموعة كثيرة من النصوص القانونية اعلاها الدستور واقلها الاوامر الادارية وما بينهما من قوانين ولوائح . كل هذه النصوص ملزمة للحاكمين في الدولة ولرعاياها ايضا . وكلها محدودة النفاذ بالاقليم الذي تقوم عليه الدولة. وكلها تحمي مصالح مالية واقتصادية وثقافية هي المضامين العينية التي شرعت تلك النصوص لحمايتها. وكل هذا اقليمي ولا يمكن الا ان يكون اقليميا . بمعنى ان الدولة لا يمكن ان تتجاوز في سيادتها الاقليم الذي تقوم عليه، ولا يمكن ان تتجاوز في رعايتها من يحملون هويتها السياسية ولا يمكن ان تتجاوز في ارادتها مصالحها الاقليمية.

ولكنا تعرف ان هذا الواقع الاقليمي الذي تجسده الدولة وتستقل به وتعزله " سياسيا " ليس مستقلا ولا معزولا " موضوعيا " عن الواقع القومي الذي هو جزء منه. وهكذا يكون لكل وا قع ا قليمى مضمون قومي . وبينما تقوم الدولة بتجسيد ورعاية وحماية هذا الواقع من حيث هو اقليمي، لا يكف مضمونه القومي عن التأثير فيه والتأثر به . من هنا تعجز أية دولة عربية عن التزام كيانها كدولة. تعجز عن التحصن ضد التأثر بالاحداث القومية . وتعجز عن كف تأثيرها في الاحداث القومية. وكلما أثرت دولة عربية او توهمت، امكان التقوقع في حدودها فرضت عليها الوحدة الموضوعية لمشكلات الامة العربية الخروج من قوقعتها او اقتحمت عليها الحدود لتخرجها . هذا الواقع " ا لقومي – الاقليمي " المتداخل في كيان الدول العربية ينعكس في وعي حكامها فلا يستوون . فمنهم من يعي فشل الحصر الاقليمي حتى في حل مشكلات الحياة اليومية في دولته فيتطلع الى الجانب القومي من تلك المشكلات محاولا تعويض " عجز " الاقليمية المتجسدة في دولته، اما عن طريق الممارسة القومية (المحدودة) أو عن طريق الدعوة الى التعاون والتفاهم والتقارب محتجا بوحدة المصير العربي والاخوة العربية ... الخ.. ومنهم من يسخر دولته وقوى البطش فيها لتأكيد عزلتها الاقليمية وحمايتها. ولما يتحول العجز الاقليمي الى متاعب سياسية أو اقتصادية يلجأ الى الدول الاجنبية ليبيعها " حرية" الدولة ذاتها في مقابل ما تمنحه من معونات سياسية أو اقتصادية. الشيء الذي يتفق فيه كل الحاكمين في الدول العربية هو" عجزهم " عن الغاء دولهم لحساب الدولة القومية (الوحدة) .

اذن فان اسقاط شعار " الاستقلال " عن الدول العربية لا يعني حتماً ان تدخل الثورة معارك تصادمية ضد حكامها وان كان لا تستبعد دخول تلك المعارك ضد الحكام المعادين لوحدة الشعب العربي ووحدة الوطن العربي وبالتالي معادين موضوعيا لتحرير فلسطين . بعكس هذا تقوم- حاليا- فرصة تاريخية لمواجهة كثير من الدول العربية عن طريق انقاذ حكامها من المآزق الاقليمية التي تعجز دولهم عن الخروج منها.

واوضح مثل على هذا ما حدث ويحدث منذ حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣.

فالواضح الان ان دول المواجهة- مثلاً- قد بذلت من اجل تحرير أرضها المحتلة- بعد سنة ١٩٦٧ تضحيات بشرية واقتصادية ومالية ونفسية تتجاوز بمراحل مقدرتها الذاتية . وجاء الفرق بين ما بذل وما تقدر عليه اصلا اضافات ستتحملها الاجيال القادمة بعد أن كاد الجيل الحاضر أن يستنفد آخر سعر حراري في جسمه الحي . وبالرغم من الاراد ة ، والتصميم، وا لتخطيط، وا لبذل، والتضحية، تجد تلك الدول نفسها بعيدة عن هدف " تحرير الارض " التي احتلت بعد ١٩٦٧. كما تجد نفسها في حالة احباط اقتصادي ونفسي، اقتصادي من فرط التضحيات ونفسي من فرط " لا مبالاة " الدول العربية الاخرى التي حولت دماء الشهداء في ساحة النضال الى مصدر استثمار ضاعفت به ثروتها عدة مرات . هذه المشكلة المزدوجة تفتح للثورة مجالا واسعا للتخلص من شعارها " الاستقلال " عن الدول العربية.

ان الاستقلال هنا يعني الموقف الموحد بالنسبة الى حكام كل الدول العربية بدون تفرقة بين مواقفهم من معركة تحرير فلسطين وهذا بدوره يعني ا نضمام " الثورة " نفسها الى فريق " اللامبالاة " الذي يقفه المنتفعون من المعركة من الدول العربية التي ضحت وما تزال تضحي سواء كانت من دول المواجهة العسكرية أو من غيرها. والتناقض القائم حاليا بين الدول المنتفعة من المعركة والدول المضحية من اجل المعركة ينعكس في حقيقة التناقض الاصلي بين قومية المعركة واقليمية الدول . هذا التناقض لا يمكن ان تحله الدول العربية لانها هي ذاتها طرف فيه من حيث هي مؤسسات اقليمية. لا يملك حكامها في اطار استقلالها بنفسها عن الغير واستقلال الغير عنها، الا المساومة والاقتراض وحتى الاستجداء من الذين احتموا باستقلالهم الاقليمي للاستئثار بمنابع الثروة في الوطن العربي.

هنا يأتي دور الثورة .

فالثورة من حيث هي قوة بدون دولة غير ملزمة لا بالوقوف سلبيا من أية دولة عربية أو ما تعانيه ولا بعدم التدخل في شؤون أية دولة عربية أو ما تنتفع به من وراء معارك التحرير . ويكون على الثورة واجبان أساسيان :

١- الوقوف بحزم وحسم وبكل الوسائل الممكنة المتاحة للثوار وقد لا تكون متاحة للحكام مع حكام الدول العربية في معركة تحرير ما احتل من أرض بعد ١٩٦٧. في المجال الدعائي وفي المجال السياسي وفي المجال العسكري يجب أن تجد الحكومات التي تقود شعوبها من ا جل تحرير أرض دولها مساندة كاملة من الثورة . ونخص بالذكر المجال العسكري . لقد كانت الارض المحتلة منذ سنة ١٩٦٧ أرضا " مغلقة " تماما أو الى حد كبير في وجه النشاط الثوري . كانت الدول المعنية- حينئذ- خارج نطاق التحالف العسكري مع الثورة . الان هى ليست كذلك. ولن تكره أية دولة عربية أو حتى تقدر على، منع الثوار من توجيه ضرباتهم الى حيث يوجد الصهاينة على الأرض المحتلة ان هذا وجه من أوجه تجاوز الثورة اقليميتها وشمول معاركها التحررية الارض العربية داخل وخارج فلسطين .

٢- الوقوف بحزم وحسم وبكل الوسا ئل الممكنة المتاحة للثوار وقد لا تكون متاحة للحكام ضد موقف " اللامبالاة " الاستغلالي ، الانتهازي الرخيص، الذي تقفه بعض الدول العربية المنتفعة بالمعارك من تضحيات الشعب العربي في الدول الاخرى .

ان " الاقليمية " التي تفرضها الثورة على نفسها فترضى من الحكومات التي اثرت من وراء المعارك بمعوناتها الهزيلة " للثورة " مقابل استقلالها عن المشكلات التي يعانيها الشعب العربي في دول عربية " واللامبالاة " التي تقفها دول عربية أخرى من هذه المشكلات ليست الا إفساداً للثورة نفسها. ذلك لان ما يعطى للثورة نظير استقلالها ليس الا رشوة . رشوة منافقة ويتعين على الثورة أن تتولى هي تبني ، والدفاع عن ، حق الجماهير المضحية في ثروات وطنهم العربي . أيان كان المضمون وأيان كانت الثروة . ولن تكره أية دولة عربية أو حتى تقدر على، منع الثوار من ارغام المنتفعين من معارك التحرير على المشاركة في تضحيات الشعب العربي أو تعويض خسائره ان هذا وجه ثان من أوجه تجاوز الثورة اقليميتها وشمول معاركها التحررية الشعب العربي داخل وخارج فلسطين .

الثاني : واضح من السبب الاول ان ثمة ظروفا واقعية تسمح للثورة بالتخلي عن " استقلالها " الاقليمي ومد نشاطها على ابعاده القومية بدون أن يؤدي هذا الى تصادم عدائي مع

بعض الدول العربية. ولكن هذا الظرف الواقعي هو ظرف " مرحلي " أيضا . معنى هذا انه يخلخل " عقدة العقد" ولكن لا يحلها. وعندما تعود- ان عادت- الدول العربية الى حدودها ستدير ظهرها للسد وتواجه الثورة من موقفها الاقليمي الاصيل فهل تستطيع الثورة حينئذ أن تواجه كل تلك القوى؟ قلنا: نعم لسبب ذكرناه. أما السبب الثاني فهو ان الثورة التي تكون خلال الوقت القليل المتبقى بين موقعها الان والسد الذي ينتظرها على الطريق قد:

أ- أدركت منذ الان الخطر الذي يهدد مصيرها وهي تتقدم على طريق مسدود.

ب- فعملت منذ الان على تغيير ظروفها الداخلية فوجدت أداتها في بناء ديموقراطي تؤجل فيه الصراع الدائر حول المنابع الفكرية والاهداف الاستراتيجية البعيدة .

جـ – ومزقت اطارها الاقليمي الضيق فالتحمت، تنظيميا وماليا وعسكريا وسياسيا، على مستوى القواعد والكوادر والقيادات بالجماهير العربية، وبشكل محدد بالقوى القومية التقدمية في الوطن العربي بعيدا عن الدول العربية وحدودها وقيودها .

د- وكان التحامها غير مقصور على الدعوة الفكرية أو الدعاية الاعلامية بل عن طريق الالتقاء والالتحام في معارك الجماهير العربية حيث تدور تلك المعارك ، ومن أجل غاياتها حرية أو ديموقراطية أو ا شتراكية أو وحدة .

هـ- فاسقطت استقلالها عن الدول العربية واستقلال الدول العربية عنها، فحددت موقفها كحليف للدول العربية التي خاضت معارك التحرير أو ضحت في ميدانها ضد دول " اللامبالاة " المنتفعة من معارك التحرير المستغلة لثروات الشعب العربي فيها .

الثورة الفلسطينية التي تكون قد فعلت كل هذا ستكون قادرة- في اللحظة الحاسمة- على موا جهة كل الدول والقوى التي تقيم الان على طريقها سدا يحول بينها وبين الاستمرار في مسيرتها حتى "النصر" النهائي . حتى ازالة دولة اسرا ئيل وا سترداد أرض فلسطين للشعب العربي . ذلك لانها تكون خلال الممارسة قد ولدت من جديد . تكون " الثورة الفلسطينية " قد أنهت مرحلتها بنجاح مرموق وبدأت " الثورة العربية ".

ليس حلما على أي حال . انه العلم لا شيء غيره. ان بدا لبعض الناس أكثر مما تطيقه الظروف "الموضوعية " للواقع العربي الراهن ، فلأن الثورات تتعامل مع الواقع لتطويره لا لقبوله؟ الثورات لا تتابع- من موقع الذيل- حركة الواقع في تغييراته التلقائية بل تقحم ارادتها

لتطوير الواقع على ما تريد مستفيدة في ذلك بذات القوانين التي تحكم حركته. الثورة معاناة انسانية هائلة من اجل اختصار زمن المعاناة واهواله وان بدا لبعض الناس اكثر من ما تطيقه الظروف الذاتية للثورة الفلسطينية. أعني ان الواقع " الذاتي " للثورة الفلسطينية يحول دون أن تولد من جديد في رحم الثورة العربية فلسنا نستطيع أن نقول الا ما قلناه عام ١٩٦٨ تحت عنوان " وحدة القوى العربية التقدمية،،.

قلنا:

" ... ان ذلك متوقف على موقف المناضلين في سبيل تحرير فلسطين . انهم- أرادوا أم لم يريدوا- في موقع اختبار " تاريخي " فاما أن يكونوا نواة حركة ثورية عربية واما أن يكونوا " حركة تحررية فلسطينية. وفي أيديهم أن يختاروا لانهم في البداية وفي أيدي القوى العربية التقدمية أن تأخذ أماكنها من معركة النضال الثوري في الارض المحتلة فتحسم الخيار لمصلحة الثورة العربية .

" وهناك من خلال المعارك الحية تستطيع أن تنسج وحدتها.

" انها فرصة تاريخية سيدفع الذين يضيعونها على الامة العربية ثمنا غاليا. والامر بعد ليس بما يقال ويعلن ولا حتى بالمقدرة القتالية ولكنه متوقف على ما اذا كانت حركة المقاومة في الارض المحتلة تجسد شكلا ومضمونا الثورة العربية. على مقدرتها على أن تكون بذرة تحتوي في ذاتها كل امكانيات النمو الثوري العربي كما تحتوي البذرة كل عناصر الشجرة الباسقة.

" ان هذا لا يعنى ان تتخلى الجماهير العربية عن مساندة المقاومة في الارض المحتلة ولو ظلت- كما اسميت للاسف- مقاومة فلسطينية تحت تأثير ارهاب القوى التي لا تريد لها أن تكون مقاومة عربية. بل ان الامة العربية كلها وراء المقاومة والثورة. كل ما في الامر اننا نتمنى للابطال المقاتلين في الارض المحتلة ان يتجاوزوا شكلا ومضمونا حدود الممكن ليجسدوا شكلاً ومضمونا ما يجب أن يكون . والا فان انتصارهم الذي لا بد منه سيكون نصرا في معركة عربية ويتبقى على القوى العربية التقدمية مسؤولية تحقيق النصر العربي . ا قامة دولة الوحدة . وبعد فان أرفع تحية للابطال أن نكون معهم صادقين " .

ولقد كنا معهم صادقين فدفعوا أثماناً فادحة للاختيار الاقليمي . ونصدقهم الآن فنقول لهم حذار . انكم تتقدمون ولكن على طريق مسدود والثمن مطلوب منكم – هذه المرة – اما تصفية قضية فلسطين واما تصفيتكم فلا تغرنكم النوايا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة (١)

(١) ياشهداء الثورة في لبنان من النسؤول عن دمائكم ؟!!!

مقال نشر تباعاً في جريدة السفير اسبوعياً ابتداء من يوم ١٩٧٥/١/٢٧

المهمات المرحلية الملحة أمام النضال العربي

مقال نشر في جريدة السفير يوم ١٩٧٥/٥/١٣

(١) عندما فشل "الرجل المكوك " هنري كيسنجر في استدراجنا " خطوة خطوة " الى قبول الشروط الاسرائيلية ثمنا لاسترداد بعض أرضنا، سقطت كل الحلول السلمية لاسترداد تلك الارض بما فيها حل " جنيف " . نقول سقطت ، لا تقريرا لحدث وقع فعلا، بل تحريضا على ما يجب أن يحدث. بمعنى انه يجب أن يسقط المزيد من البحث عن الحلول السلمية حتى لا تلهينا أوهام السلام عن متطلبات الحرب. وحتى ننتبه انتباها كاملا ومركزا على الاعداد البشري والمادي لتحقيق النصر النهائي في المرحلة القادمة من الصراع . أي- في التحليل النهائي- حتى نقضي قضاء نهائيا على الحرب بالتصفية النهائية لقوى العدوان التي لم تتح لنا فرصة منذ ربع قرن لنتمتع بالسلم ومنجزاته التقدمية.

وعندما تكون الكلمات تحريضا، وليست تقريرا، لا تكون خطابا الى الكافة. انما نخاطب بها الذين يعنيهم بالدرجة الاولى تحرير الارض العربية عن الطريق الوحيد الذي فرضه العدوان عليها. الذين لا يخشون مخاطره لا نهم يعرفون ا نه، في معارك التحرير القومية، لا يكون حساب الخسائر المتوقعة، قبل أن تقع، الا مدخلا للاستسلام . هذا يعني انه لن ينقرض من الارض العربية الذين يبحثون، من أجل التحرير أيضا، عن طرق سلمية لا وجود لها . انهم موجودون ، وسيتبعون أوهامهم الى أن يفشلوا مرة أو اكثر من مرة . حينئذ ، اما أن يدعوا صراحة إلى الاستسلام واما أن ينضموا الى قافلة المناضلين من أجل الحرية .

الطريق اذن مفتوح الى الحرب. ولكن الحرب بمفهومها التقليدي ، أي اشتباك الجيوش النظامية، مرحلة غير قابلة- لاسباب كثيرة- للتحديد الزمني السابق على وقوعها الفعلي . لا أحد منذ الحرب العالمية الثانية، أصبح يعنى " بانذار " عدوه بموعد القتال . تلك " فروسية " رومانتيكية فارغة انقضت أيامها، وأصبحت المفاجأة فنا اساسيا من فنون القتال . ثم ان ضراوة الحرب ومدى ما تسفر عنه من تضحيات بشرية " غالية " ، وما تستهلكه من أموال، ومدى ما تحدثه من تخريب، يستوجب ضبط حساباتها على الوجه الذي يتيح اكبر فرص النصر بأقل التضحيات.

هذا مسلم . فاذا كنا ندعو الى اسقاط أوهام الحلول السلمية ونحرض على القتال فنحن ندعو ونحرض من أجل قتال منتصر وليس مغامرة فاشلة.

أمامنا، اذن، مرحلة زمانية- لا نظنها طويلة- تفصل بين الواقع الراهن وبين الحرب الفعلية الهجومية. نقول الهجومية لان قرار القتال ليس متوقفا على ارادتنا وحدنا، فقد يلجأ العدو ذاته الى بدء القتال فيكون علينا أن نقبل التحدي دفاعا لنحوله الى مطاردة هجومية.

فما هي المهمات الملحة التي تطرحها علينا هذه المرحلة القصيرة؟

(٢) نعتقد أن تلك المهمات، على اختلاف طبيعتها، تنقسم الى قسمين تبعا لقسمة المسؤولين عنها.

القسم الاول يتضمن تلك المهمات التي يتعين على دول المواجهة المعنية، والدول العربية الاخرى، ان تقوم بها للاعداد للقتال . هذه المهمات غير قابلة للطرح العلني . أولا: لانها من الشؤون العسكرية التي لا نحيط بها علماً كافيا للحديث عنها . وثانيا : لان كتمان أمرها قاعدة أولى من قواعد الاعداد للقتال .

غير ان هذا لا يعني بأي حال ، أنه لا شأن للجماهير العربية بما تعد الدول العربية، لان تلك الجماهير هي التي ستدفع الثمن من حياتها ذاتها، فيما لو كانت " الفنون العسكرية التي لا يعرفها الا المتخصصون " أو" سرية الاعداد العسكري التي لا يجوز افشاؤها " غطاء لعدم الجدية في الاعداد للقتال . قد لا يهم الجماهير العربية أن تعرف ماذا تفعل الحكومات من أجل التجهيز للقتال، ولكن يهمها- ومن حقها- أن تعرف، وتتأكد، من أن الحكومات تمارس هذا الاعداد باكبر قدر من الجدية. فكيف يمكن أن تعرف، وتتأكد، فتطمئن الجماهير العربية الى جدية الاعداد للقتال بدون تعرض "لفنية" الاعداد العسكري أوسريته؟..

عن طريق رصد وتقييم المواقف السياسية. ذلك لان جرثومة عدم الجدية في الاعداد للقتال ستفضح نفسها عن طريق أثرها الظاهر في المواقف السياسية. فعندما ترى الجماهير العربية، وحين ترى، أن أوهام الحلول السلمية ما تزال تحدد المواقف السياسية واتجاهاتها يكون من حقها أن تجزع- من الان- على مصير المعارك المقبلة. لان الباحثين عن الاوهام لا يعتقدون- كما نعتقد نحن- أنها أوهام، وبالتالي فان القتال عندهم قضية مؤجلة، أو موقف " ا حتياطي "

للمناورات السيا سية وفي خدمتها. وهذا بدوره يجرد الاعداد العسكري من الجدية التي تمليها رؤية القتال موقفا اصليا ومحتوما ومصيريا.

ولعل أصدق مؤشر الى الجدية هو اختفاء الشلل والعناصر الكيسنجرية من مراكز المعاونة السياسية. ان طائفة من الوزراء والمستشارين والكتاب والصحفيين روجوا منذ تاريخ سابق حتى على حرب اكتوبر ١٩٧٣ " للحل الامريكي " وصعدوا الى مراكز القيادة والرأي ومنابر الاعلام والصحافة في مرحلة اختبار الحل الامريكي التي تلت الحرب، كل هؤلاء لم يعد لهم مكان بعد فشل التجربة. بدون محاكمة أو اتهام، بل طبقا لتقاليد سياسية علمية، أو " على الاقل طبقا لأقل قدر من الاحساس بالكرامة الشخصية والولاء الوطني، ينبغي على هؤلاء جميعا أن يتنحوا والا وجبت تنحيتهم .عندئذ سيكون هذا مؤشرا جيدا الى الفهم الصحيح لواقع المرحلة : الجديدة ، وجدية الاعداد للمستقبل القريب .

ثم ان وقود الحرب، بعد البشر، هو الاقتصاد. وقد يختلف الناس بين النظم الاقتصادية الرأسمالية أو الاشتراكية أو المختلطة " الا نتقالية " وقت السلام ، أما وقت الحرب فانه " ا قتصاد حرب " وأهم ما يميز اقتصاد الحرب هو تحرير الاقتصاد الوطني من سيطرة السوق والحد من الاستهلاك الترفيهي أو حتى الضروري ، طبقا لخطة مركزية واحدة تعبىء النشاط الاقتصادي كله من أجل خدمة الحرب. وهذا هو الفارق بين ا قتصاد الحرب والاقتصاد الاشتراكي . نفس الاسلوب ولكن خدمة الحرب تكون غاية الخطة في النظام الاول والتنمية تكون غاية الخطة في النظام الثاني . وفي الحالتين لا يكون ثمة أي محل للمضاربة الرأسمالية في الانتاج أو التوزيع أو الاستهلاك . لا يكون ثمة أي محل للبحث عن الارباح الخاصة عندما يكون مصير الوطن وأرواح البشر في كفة الميزان. هكذا فعلت وتفعل حتى الدول الرأسمالية العتيدة في ظروف الحرب. وهكذا لا يمكن أن تفهم الجماهير العربية جدية الاعداد للقتال اذا لم تلمس في حياتها اليومية انحسار، أو الغاء، الاسلوب الرأسمالي في ادارة الاقتصاد الوطني، والبدء في تحويله الى اقتصاد حرب.

ثم انه، على المستوى الدولي، ستنتهي - بالحرب- كل المواقف " الدبلوماسية " ، وتفرز القوى فرزا حادا ولن يكون أحد محايدا خفية حتى لو اعلن الحياد ظاهريا. ولن تطيق الحرب أية مجاملات على حساب الارواح البشرية التي ستفنى . ومهما تكن الحرب مفاجئة فانه من الغباء أن نفاجىء الدول بمواقف جدية عندما يبدأ القتال . لهذا يدخل في نطاق الاعداد للقتال ، اعداد علاقاتنا الدولية كما لو كان القتال قد بدأ ، بحيث نفرز من سيكون معنا ومن سيكون مع العدو،

من الآن، ونطور علاقاتنا مع حلفائنا بحيث يكونون " معنا " فعلا عندما نكون في حاجة اليهم . ومع ان مجال التحالف متسع أمامنا ويمكن أن يكون لنا حلفاء في جميع ا طراف الارض، الا أن حلفاء أعدا ئنا معينون ومفرزون ومحددون من الان . على رأسهم الولايات المتحدة الامريكية. ان تلك الدولة الباغية ستكون ضدنا في أي قتال جديد مع اسر ائيل كما كانت ضدنا دائما . وهذا الموقف المحدد يمكن أن يخدم خططنا في التحالف لو أخذناه نقطة انطلاق . ان أعداء الولايات المتحدة الامريكية كلهم سيكونون معنا. و المنافسون للولايات المتحدة الامريكية يمكن ان يكونوا معنا. و التابعون المتذمرون من تبعيتهم للولايات المتحدة الامريكية يمكن ان يقفوا محايدين ظاهرياً و يساعدوننا خفية . أما عملاء الولايات المتحدة الامريكية دولا او جماعات أو أفراداً ، عرباً أو غير عرب فسيكونون مع إسرا ئيل . وهكذا لايمكن أن تفهم الجماهير العربية جدية الاعداد للقتال إذ لم تلمس إنحسار أو إلغاء علاقات التعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية وردع عملائها في الوطن العربي.

وهناك مؤشرات أخرى كلها سياسية. وكلها بعيدة عن الاسرار العسكرية. ولكنها كلها صادقة الدلالة، أصدق من الكلمات على مدى " جدية " الاعداد للقتال . وهي التي ستحدد موقف الشعب العربي في كل دولة عربية من دولته.

(٣) القسم الثاني من المهمات الملحة التي تطرحها المرحلة يخص الشعب العربي والقوى الجماهيرية المقاتلة (فصا ئل المقاومة) والخطاب في هذا الحديث الى هؤلاء أساسا . لأن هؤلاء هم اصحاب الارض التي يجب تحريرها واصحاب المصلحة في التحرير، ودافعو ثمن تحريرها في الحرب والسلام معا.

أمام هؤلاء مهمات ثلاث ملحة :

أولا : تحديد الاهداف الاستراتيجية تحديداً قاطعاً

ان العالم الموالي لنا، كما يقول يطرح علينا الآن ما يسمى " الحقوق المشروعة لشعب فلسطين " . وفي انتظار ما تسفر عنه المناورات التكتيكية على المستوى الدبلوماسي امتنعت كل الاطراف عن بيان ما تعنيه على وجه الدقة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين . اما وقد انقضت المناورات التكتيكية بفشل الرجل المكوك فقد آن الاوان ليحدد كل طرف ما يعنيه بذلك التعبير الغامض . ولم يعد لأحد عذر في ان يحيل على الشعب الفلسطيني . بمعنى انه لا يعفيه من تحديد موقفه أن يقول ان " الحقوق المشروعة لشعب فلسطين " يحددها شعب فلسطين لان الشعب العربي

لم يخف أبدا ان حقه المشروع هو حق استرداد ارضه، كامل ارضه، التي سلبت منه عام ١٩٤٨ . تجاهل هذا الموقف الثابت منذ ربع قرن ومطالبة الشعب الفلسطيني بان يحدد ماهية حقوقه المشروعة هو دعوة موجهة على خجل الى الشعب الفلسطيني ليعيد النظر في موقفه السابق، أي يحدد هو ويتحمل مسئولية تحديد حقوقه المشروعة على وجه أقل من ا سترداد أرضه ليبقي فرصة للوجود الاسرائيلي. دعوة مخجلة الى ان يساوم الشعب العربي على حقوقه بدون ان يتحمل الداعون مسئولية دعوتهم أو مشورتهم وهذه مناورة تكتيكية آن الاوان ان تنتهي بانتهاء مرحلتها، وعلى كل طرف لديه تفسير خاص للحقوق المشروعة لشعب فلسطين أن يقول بصراحة ويعلن قوله.

الى ان يفعلوا يتعين على الشعب العربي وقواه المقاتلة (المقاومة) ان يفلت من شباك المناورات السياسية التي التفت حول موقفه في السنة الاخيرة، والا يختفي هو ايضا وراء غموض كلمة الحقوق المشروعة ان مصدر الغموض في هذا التعبير هو كلمة " المشروعة " اذ ليس للشرعية مصدر واحد وبالتالي لا يمكن معرفة الحقوق المشروعة الا اذا عرفنا من أين اكتسبت شرعيتها. اذا كان الواقع مثلا هو مصدر المشروعية فيكون للشعب الفلسطيني حق الوجود فإن اسرائيل وجود واقع، وما يكون حقا مشروعا لشعب فلسطين يمكن أن يكون حقا مشروعا للصهاينة. وإن كان القانون الدولي هو مصدر المشروعية فيكون من حق الشعب الفلسطيني تقرير مصيره فإن القانون الدولي قد يمنح الصهاينة في اسرائيل حق تقرير مصيرهم وان كانت قرارات الامم المتحدة هي مصدر المشروعية فكما اصدرت الامم المتحدة قرارا بحق الشعب الفلسطيني في العودة او التعويض اصدرت قرارا بتقسيم فلسطين واصدرت قرارا بالاعتراف باسرائيل عضوا فيها.. كل هذه مصادر للمشروعية كامنة في اذهان كثيرين ممن يكتفون بالحديث عن الحقوق المشروعة بدون أن يفصحوا عما يعنون بتلك الحقوق . وكل هذا يجب اسقاطه صراحة وعلنا وقطعيا من جانب الجماهير العربية وقواها المقاتلة (المقاومة)....

ان المصدر الوحيد لشرعية حقوق الشعب الفلسطيني هو حقه التاريخي في أرضه وفي مواجتهه يكون العدوان الاسرائيلي غير مشروع وتكون الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني هي ببساطة حقه في استرداد أرضه – كامل أرضه – من غاصبيها .

هذا التحديد القاطع يجب ان يكون قاطعا من جانب الشعب العربي وقواه المقاتلة بحيث يقطع الطريق على أية مناورات تهدف الى تمييع حقوقه المشروعة والالتفاف حول هدفه

الاستراتيجي على ركب من الكلمات الغامضة. وعندما يتحدد على هذا الوجه القاطع ، يكون على كل طرف ان يختار بين الحق والعدوان . بين الشعب العربي ودولة اسرا ئيل .

ان هذا يعني باكبر قدر من الوضوح ان الهدف الاستراتيجي للنضال العربي هو الغاء وتصفية دولة اسرا ئيل . ولقد اختفى وضوح هذا الهدف فترة طويلة في غبار الارهاب الفكري والدعائي الذي شنه اعداء الامة العربية يتهمون فيه امتنا بأنها لا انسانية، وانها دموية وانها اذ تنادي بالغاء وتصفية دولة اسرائيل تريد أن " تلقي اليهود في البحر " ومع ان الصهاينة لم يخفوا أبدا أنهم يريدون القاء العرب في الصحراء فانهم لم يتعرضوا لمثل ما تعرضنا له من ارهاب فكري ودعائي ولقد كان الارهاب من القسوة الى حد أن اسهمت جماعات من المثقفين العرب فيه. يرهبون أمتهم ويشهرون بها.

أيا ما كان الامر ليكن كل هذا واضحا .

نعم ان الهدف الاستراتيجي للنضال العربي هو الغاء دولة اسرائيل وتصفيتها نهائيا . والدولة كما يعرف حتى الذين يشهرون بنا هي تلك المؤسسة القانونية السياسية التي تجسد سيادة شعب بعينه على ارض بعينها . فحين نقول ان هدفنا الاستراتيجي هو الغاء وتصفية دولة اسرائيل نعني ما يعرفه حتى الذين يشهرون بنا، نعنيه تماماً ، وهو الغاء وتصفية سيادة الصهاينة على أرضنا العربية واسترداد أرضنا العربية لسيادتنا العربية . لا يمكن أن يثور أي لبس في هذه الجزئية ولا تقبل أي قدر من الغموض . ثم تأتي بعد هذا النتائج التي يمكن ان تترتب على الغاء دولة اسرائيل . فالغاء دولة اسرائيل وتصفية السيادة الصهيونية على الارض العربية لا يعني ان تظل تلك الارض بدون دولة او سيادة . كلا. ستقوم عليها دولة العرب التي تجسد سياسيا وقانونيا سيادة الشعب العربي على ارضه. ما هو شكلها الدستوري ونظامها الاقتصادي والاجتماعي ؟ هذه اسئلة ستترك للشعب فيها ليختاره ديموقراطيا بعد- وليس قبل- التحرير الكامل .

ان كل من يتطوع منذ الان بمصادرة حق الشعب العربي في ا ختياره شكل دولته ونظامها الاقتصادي والا جتماعي ، ينذر- منذ الان- الشعب العربي في فلسطين المتحررة بسلب حريته الداخلية بعد تحرير وطنه انه ديكاتور صغير " مثالي " يريد منذ الان ان يكون له حق املاء شكل معين للدولة، ونظام اقتصادي واجتماعي معين متجاهلا ان كل هذا من حق الشعب وليس من حقه. اذن فلا يملك أحد ان يربط قضية تحرير الارض منذ الان بنظام دستوري أو اقتصادي أو

اجتماعي. كل ما يملكه اي واحد هو ان يعبر عن موقفه في نوع النظام الذي سيقترحه على الشعب بعد تحرير وطنه على ان يقبل ومن الان نوع النظام الذي يختاره الشعب ديموقراطيا. ان اي استعمال لكلمة ديموقراطية يتضمن قيدا مسبقا على ممارسة الشعب العربي لارادته ديموقراطيا داخل دولته هو مصادرة للديموقراطية في دولة فلسطين العربية.

اذا كان الامر كذلك وهو كذلك لا يكون من حق احد ان يطلب الى ممثلي الشعب العربي في ثورته ان يلتزموا بمصادرة حق الشعب ذاته وذلك بان يتفقوا أو يتعهدوا أو يعدوا بان يقوم في فلسطين المتحررة نظام محدد الهوية سلفا الا ان يكون ديموقراطيا. ولو قبل ممثلو الشعب العربي في ثورته التحررية ان يتفقوا أو يتعهدوا أو يعدوا بمثل هذا النظام فانهم يخذلون قضية التحرير ذاتها. ان الشعوب لا تناضل من اجل التحرر من العدوان الاجنبي لتضع نفسها تحت سيطرة المستبدين من ابنائها، بل هي تناضل من أجل التحرر لا نه الشرط الاول لممارسة الحرية .

الهدف الاستراتيجي للنضال العربي، اذن، هو الغاء وتصفية دولة اسرائيل واسترداد الارض لاصحابها ثم تركهم يحددون- ديموقرا طيا- نوع دولتهم ونظامها الاقتصادي والاجتماعي .

ولكن الدولة، أي دولة ، لا تخلو من البشر.

هنا تثور تلك القضية المغلوطة، والتي ساهم في غلطها كل أعداء الامة العربية وكثير من أبناء الامة العربية، ونعني بها قضية البشر الذين حملتهم الصهيونية الى الارض العربية ليكونوا شعبا في دولة اسرائيل . ما الموقف العربي الاستراتيجي منهم ؟ ومنهم من كان موجودا في الارض العربية قبل ١٩٤٨ وابناؤهم . ومنهم من جاءها بعد قيام الدولة النازية وا بناؤهم . ومنهم من فرضت عليهم هوية اسرائيل ، ومنهم يهود ومنهم مسيحيون ومنهم مسلمون ومنهم ملاحدة لا يهتمون بأي "دين ومنهم " مجرمون " بكل معنى ومنهم مغلوبون على أمورهم، ومنهم من استولوا لانفسهم على ثمرة العدوان ومنهم من يعيش على الارض العربية مشردا لا يملك الا اوهامه القديمة. ومنهم الشيوخ والنساء والاطفال والعجزة والمرضى . ومنهم من لا يزال يحتفظ بجذوره خارج فلسطين ومنهم من قطعت جذوره . ومنهم صها ينة ومنهم من لا يهتمون بالعقا ئد أصلا.. ومنهم من لا هوية له ومنهم من يملك أكثر من هوية بالاضافة الى هوية " اسرائيل"...

ما هو الموقف الاستراتيجي العربي من كل هؤلاء؟..

ان ايرادنا أمثلة للاختلاف في مواقف الاشخاص المقيمين في فلسطين ، وتعدد نوعية تلك المواقف قد أردنا به انه لا يمكن أن يكون الموقف العربي من كل هؤلاء البشر موقفا واحدا على المستوى الاستراتيجي.. وبالتالي فان تحديد " حل " نمطي مجرد يطبق على الجميع أو على كل واحد منهم لن يكون الا تجريدا مثاليا قد يؤدي – مثلا- الى أن يكون الموقف من العربي الذي خان أمته هو الموقف من غير العربي الذي جندته الدولة قسرا في قواتها المسلحة. أو يكون الموقف من الذين كانوا في أرض فلسطين قبل ١٩٤٨ هو ذات الموقف من الذين جاءوا اليها سنة ١٩٦٧ ، حاربوا ثم حصلوا على مكافآتهم هوية اسرائيلية.

بالرغم من هذا، فان هذه المسألة، قد آن الاوان لحسمها أيضا حتى على المستوى الاستراتيجي ليكون هدفنا الاستراتيجي في المرحلة القادمة على اكبر قدر من الوضوح والتحديد. ولسنا نملك في هذا الا تحديد ضوابط قائمة على أساس من فهمنا القومي لقضية تحرير فلسطين.

الضابط الاول :-

هو انه بمجرد انتهاء الصراع وتحرير الارض العربية تصبح سلامة وأمن كل البشر المقيمين في فلسطين في مسؤولية وضمان الشعب العربي . بانتهاء الصراع تنتهي كل اساليبه غير الانسانية ويصبح البشر، كل البشر، في مأمن من أية نزعة انتقامية، وعلى وجه القطع لن يلقي بهم أحد في البحر. نقول هذا لان قضيتنا كما نفهمها لم تكن، وليست، ولن تكون ارضاء غرائز الانتقام بين الافراد بل هي تحرير الارض والغاء دولة معتدية. وفي الارض المحررة ستكون مصونة لكل البشر كل حقوق الانسان كما يعرفها العالم، وسيكون القانون هو صاحب السيادة الوحيدة بالنسبة لكل البشر، قانون الدولة العربية .

الضابط الثاني :-

هو ان موقف الدولة العربية- من هؤلاء البشر لن يعتد، أو يقيم وزنا، أو يتأثر بالديانات التي يعتنقها كل منهم، لا نقول ان الدولة العربية ستساوي بين المسلمين والمسيحيين واليهود، بل نقول أكثر من هذا. لن تنظر الدولة العربية الى المعتقدات الدينية اصلا لا من اجل المساواة ولا من أجل التفرقة.

الضا بط الثالث :-

هو ترجمة خالصة لموقفنا القومي من قضية تحرير فلسطين . ان هذا الموقف يحول بيننا وبين معاملة " العرب " (أيا كانت دياناتهم) معاملة الغزاة الذين خانوا أممهم وجاءوا يحتلون أرضنا. ان أرض فلسطين ليست ملكا خاصا لشعب فلسطين بل هي ملك للشعب العربي كله باعتبارها جزءا من الامة العربية. وبالتالي فان لكل عربي (أيا كانت ديانته) حقا مشروعا في أن يقيم ويعمل ويتنقل في أي مكان من الوطن العربي . وفي أرض فلسطين عرب تمسكوا بالبقاء فيها بالرغم من الاحتلال الصهيوني . وهم يحملون الان الهوية الاسرائيلية وبعضهم يقاتل في صفوف جيش اسرائيل . وفي أرض فلسطين عرب جاءوا اليها من أرض عربية، أخرى، من العراق واليمن ومصر والمغرب ومن كل مكان تقريبا في الارض العربية، جاءوا اليها نتيجة بواعث شتى . ولقد كان من ضمن تلك البواعث- بالنسبة لبعضهم- ما لاقوه في وطنهم العربي من عنت غير عادل. عنت حملهم مسؤولية الصهيونية ودفعهم الى احضانها وتجاهل انتماءهم العربي...

ان لكل هؤلاء العرب حقا قوميا متساويا في الوطن العربي في فلسطين أو في غير فلسطين. وسيضمن لهم الشعب العربي الاقامة والعمل والامن الذي يتمتع به أي عربي في وطنه. وقد يغفر لهم ما ارتكبوا في حق أمتهم يوم أن انحازوا الى أعدائها ، ولكنهم كانوا عربا وسيبقون عربا بعد تحرير أرض فلسطين . ولقد اتمنى ان يعي كل عربي في الارض المحتلة، أيان كانت الارض العربية التي جاء منها، ان النضال العربي من أجل تحرير الارض العربية لا يدور ضده بل يدور في الحقيقة من أجله ويتخذ من الصراع الموقف الذي يمليه ولاؤه القومي إلى أمته العربية بدلا من ولائه الى سادته من الصهاينة. أما بواعثه القديمة التي حملته على أن يغادر جزءا متحررا من وطنه العربي ، الى جزء محتل لتستغله الصهيونية المعتدية في خدمتها داخليا والقتال من أجلها خارجيا، فان مغفرة أمته ستتسع لها تبعا لموقفه من الصراع المقدم .

اننا كقوميين نقدر المأزق الذي يجد هؤلاء العرب أنفسهم فيه. ان النازحين من الامم الاخرى الى فلسطين المحتلة ما يزالون يحتفظون بعلاقاتهم ظاهرة أو خفية مع وطنهم الاصيل. وفيه يبقون بعض اسرهم ومنازلهم وأموالهم وانهم يحتفظون بمأواهم الاول ليعودوا اليه يوم أن يضطروا الى العودة أو يرغبون فيها . ولكن العرب الذين وفدوا الى أرض فلسطين المحتلة- بصرف النظر عن البواعث- يجدون أنفسهم في مأزق حقيقي . انهم بعد أن تورطوا في خيانة أمتهم لا يجدون سبيلا للافلات الا المزيد من الخيانة . ولعل هذا أن يكون السبب في أنهم - في القتال- أكثر ضراوة من غيرهم . ان واقعهم يطرح سؤالا واقعيا. الى أي أرض يذهبون وليس لهم أرض الا أن تكون أرضا عربية ؟ ..

اليكم الحل . انكم عرب وقد كنتم عربا وستبقون عربا، ولكم في كل مكان من الوطن العربي حق مشروع في البقاء والعمل والامن ، فكفوا عن الخيا نة...

أما الذين وفدوا الى فلسطين المحتلة من أمم أخرى، فعليهم- كمبدأ- أن يعودوا الى أوطانهم وستبذل الدولة العربية- والمجتمع الدولي- كل مساعدة ممكنة.. فان اختاروا البقاء فان قوانين الدولة العربية التي ستنظم الاقامة فيها والحصول على هويتها وشروط كل هذا ستطبق عليهم . ولن تكون الدولة العربية في هذا بدعة بين الدول فكل الدول لها قوانين تنظم الاقامة فيها وكيفية الحصول على هويتها وشروطها.. ولكنهم في كل الحالات لن " يلقى بهم في البحر " .

الضابط الرابع :-

هو ان كل المسؤولين عن جرائم الحرب منذ سنة ١٩٤٨ حى يوم التحرير سيحاكمون محاكمة عادلة وعلنية كما حوكم مجرمو الحرب في نورمبرج . لن يفلت أحد من العقاب. لن يفلت من العقاب كل اولئك الذين أسسوا المنظمة الصهيونية واداروها والفوا العصابات المسلحة وقتلوا الرجال واعتدوا على النساء وفتكوا بالاطفال ودمروا القرى وطاردوا البشر المسالمين الى خارج حدود وطنهم .

كل هؤلاء سينالون عقابهم العادل الرادع بصرف النظر عن دياناتهم وبصرف النظر عن انتماءاتهم القومية.

على هذا الوجه يتحدد الهدف الاستراتيجي من الارض والدولة والبشر تحديدا واضحا في نطاق المهمات الملحة التي تطرحها علينا المرحلة القادمة. وهي المهمة الاولى . أما المهمة الثانية فهي مواصلة الاشتباك مع العدو بصرف النظر عن مواقف الجيوش النظامية. وسيكون هذا موضوع الحديث المقبل .

موا صلة الاشتباك مع العدو

قلنا في حديث سابق : " أمامنا- اذن- مرحلة زمانية، لا نظنها طويلة، تفصل بين الواقع الراهن والحرب الفعلية " . وتساءلنا : فما هي المهمات الملحة التي تطرحها علينا هذه المرحلة القصيرة؟.. هناك، في ذلك الحديث السابق، ذكرنا المهمات التي تنتظر الدول العربية (النظم الرسمية). وبدأنا الحديث عن المهمات التي تنتظر الشعب العربي وقواه الجماهيرية المقاتلة (فصائل المقاومة). وقلنا: ان امام هؤلاء مهمات ثلاث ملحة. اولاها: تحديد الاهداف الاستراتيجية تحديدا صريحا قاطعا. ثم اجتهدنا في ان نسهم في تحديد ما ندعو الى تحديده . وختمنا حديثنا الذي سبق بقولنا : "اما المهمة الثانية فهي مواصلة الاشتباك مع العدو بصرف النظر عن موا قف الجيوش النظامية وسيكون هذا موضوع الحديث المقبل ".

وهذا هو الحديث الذي كان مقبلاً.

مواصلة الاشتباك مع العدو

ان كان موضوع الاشتباك مع العدو قد جاء في سياق تحديد المهمات المرحلية التي تواجه النضال العربي فليس مرجع هذا الى انه مهمة مرحلية. أبدا. مرجعه إلى ا نه العنصر المشترك " الثابت " في كل مراحل النضال العربي الى ان تتحرر فلسطين . كان لازما منذ البدا ية وهو لازم الان، وسيبقى لازما حتى النهاية . حتى النصر انما نتحدث عنه كواحد من المهمات الملحة في المرحلة القادمة لنعيد التركيز عليه كعنصر أساسي وجوهري من عناصر النضال العربي . ثم لندفع عنه المخاطر التي تنطوي عليها دعوات السلام والحلول الدبلوماسية. فالاصل ان تكون دعوة السلام مشروطة باسترداد الحق المغتصب. ودعوة كهذه لا تتنافى مع مواصلة الإشتباك مع العدو ولكن عندما تتحول دعوة السلام الى بديل عن استرداد الحق المغتصب فهى تتضمن الكف عن الاشتباك مع العدو واتاحة الفرص للمساومة على الحق ذاته . كذلك الاصل في النشاط الدبلوماسي أن يكون مساندآ، وتابعا، لاساليب الصراع العنيفة. وهو على هذا الوجه لازم لزوم

البندقية ذاتها حتى لو وصل الى حد الجلوس في المؤتمرات فمن قبل استطاعت الثورة الفيتنامية المسلحة ان تكسب على كل مستوى دبلوماسي وان تجلس في مؤتمر في باريس اشهرا طويلة، ولكنها في كل حركة، وفي كل كلمة، وفي كل اجتماع ، كانت تساند القتال المسلح وتستند اليه، وتضع الدبلوماسية في خدمة محركة التحرير . اما عندما تصبح الدبلوماسية مطروحة كبديل – ولو وقتي - عن القتال فان عنصر " مواصلة الاشتباك مع العدو " يتعرض الى مخاطر جسيمة ليس اخطر هذه المخاطر التبرع للعدو بهدنة يلتقط فيها انفاسه ويعبىء فيها قواه بل اخطرها القذف بالمقاتلين انفسهم الى مياه البطالة الاسنة وتعريضهم لمرض الملل والركود الذي يسحق قواهم المعنوية ثم تجهيز الشعب نفسه إقتصاديا واجتماعيا ونفسيا للاستسلام عن طريق استمراء حياة السلم والحقوق ما تزال مغتصبة...

كيف يمكن حل كل تلك المشكلات المعقدة ؟ .. السلام عن طريق الحرب . التمكن من الاعداد للحرب بدون إعطاء فرصة للعدو للاعداد لها . الاستمرار في الدبلوماسية على الا تؤدي الى الاستسلام؟ يتم كل هذا بمواصلة الاشتباك مع العدو .

ان هذه قواعد عامة ، مصدرها خبرة المنتصرين في معارك التحرر . ثم تعطينا معركة تحرير فلسطين مبررا جديدا، واصيلا يكاد يمزج بين الحق نفسه وبين مواصلة الاشتباك مع العدو، ويجعل فض الاشتباك مع العدو يكاد يمتزج بالتفريط في الحق .

اذ، ما الذي تريده الصهيونية؟

اعني ما هو الهدف الاساسي الذي من اجله تكونت الحركة الصهيونية؟ انه كلام معاد ومع ذلك فلا بأس في أن نعيده لأن الاجابة الصحيحة على هذا السؤال يجب أن تظل حاضرة دائماً في وعي الشعب العربي وقواه الجماهيرية المقاتلة ، حتى لا تتوه تلك الجماهير في متاهات التكتيكات المرحلية عن هدفها الأصيل . إذ أنه وراء كل المواقف المرحلية والتكتيكية والمناورات السياسية والتنظيمات الفدائية يبقى الهدف الأساسي لمعركة التحرير العربي هو هزيمة الصهيونية في هدفها الاساسي أيضاً .

لم يكن هدف الصهيونية الاساسي تجميع اليهود وتدريبهم وتسليحهم ونقلهم إلى الأرض العربية . هذه خطوة على طريق الهدف الأساسي . وليس هدف الحركة الصهيونية الاساسي هو إقامة دولة على الأرض العربية تحمل إسم إسرائيل وتحيي أحلامهم الميتافيزيقية . هذه خطوة إلى

الهدف الأساسي . وليس هدف الحركة الصهيونية تحطيم الجيوش العربية وهزيمتها لمجرد أن تثبت اسطورة التفوق لشعب الله المختار . هذه ايضاً خطوة على طريق الهدف الأساسي

يتبقى الهدف الأساسي وراء كل هذا هو ان " يعيش الصهاينة على الارض العربية حياة آمنة ومستقرة تسمح لهم بأن يتفاعلوا مع الارض وان يحققوا الرخاء والمتعة للذين جمعوهم من أطراف الأرض . والافكار الصهيونية التي تطرح حركتها كحركة قومية ، وتطرح اليهود كأمة، تعلم علم اليقين بأن الوجود القومي لأي شعب لا يتم بمجرد تواجده على قطعة جغرافية بل يتم بتفاعله الحر مع تلك الارض وبناء حضارة قومية خاصة عليها.

من أجل هذا، تقاتل الصهيونية بكل ما تملك من قوة دولتها، لتنتزع من العرب اعترافا ، بوجود اسرا ئيل على الأرض العربية. وهو اعتراف لا يغني عنه اعتراف الدول الاخرى ، لأن الاعتراف في حد ذاته ليس الهدف الاساسي . انما الهدف الاساسي الامن والا ستقرار للحياة في الارض المحتلة، وهذا لا يوفره لإسرائيل الا اعتراف عربي . لهذا أيضا تربط اسرائيل ربطا حتمياً بين الاعتراف والحدود الآمنة. وتستغني عن انهاء الحرب باقامة العلاقات الدبلوماسية أو الاقتصادية أو الثقافية، أي باتاحة فرصة الحياة الآمنة عمليا حتى لو بقيت الحرب معلنة شكليا .

الاستقرار على الارض والامن فيها ، هذا هو ما تريده الصهيونية. ولا تأتي كل الوان الصراع وأساليبه الا كخطوات على الطريق الى هذه الغاية الحياتية.

وليس العرب أعداء أي طموح بشري الى الاستقرار والأمن . ولكن الذي يعادونه وينكرونه ويناضلون ضده هو أن تختار "زمرة " من البشر تحقيق أمنها على حساب أمنهم . تحقيق حياتها المستقرة على حساب إستقرار حياتهم بأن تنتزع لها أرضاً من أرضهم . تلك هي القضية في جوهرها وهي لا تحتمل إلا حلاً وا حدآ : استرداد الأرض لأصحابها.

من أجل أن تسترد الارض المغتصبة يتعين على العرب أن يثبتوا للصهاينة خاصة أن مشروعهم العدواني مشروع فاشل ، ويكون فاشلاً حتى في وعي الصهاينة أنفسهم عندما يثبت لهم بالممارسة العربية انهم لن يستطيعوا، مهما طال الزمن، ومهما كانت الظروف المحلية أو القومية أو الدولية، ان يعيشوا على الارض العربية عيشة مستقرة آمنة، وهكذا تتحدد خصائص معركة التحرر العربي تحديدا يناسب خصائص معركة العدوان على الارض العربية. ويبرز، أكثر من أية تجربة تحريرية في العالم عنصر " مواصلة الاشتباك مع العدو". إن المواصلة هنا تحقق هدفاً لا يقل أهمية عن هدف الاشتباك ذاته. المواصلة تعني تحريم الامن والاستقرار على العدو " في كل

زمان ومكان وبكل أسلوب وتحت كل الظروف، بصرف النظر عن حجم أو نوع الخسائر المادية أو البشرية التي تصيب العدو .

من هنا تكون مواصلة الاشتباك مع العدو في كل وقت وزمان وبكل أسلوب هى الخط الاساسى للنضال العربي الذي يجب أن يبقى متصلاً مهما كانت الظروف الدولية التي تحكم عناصر الصراع الأخرى . ويصبح متعيناً على كل عربي ، أياً كان موقعه ، أن يدخل هذا الاشتباك في حياته اليومية وأن يمارسه بنفس الاطراد والاصرار والاستمرار " والسهولة " أيضاً التي يمارس به الاستيقاظ من النوم كل صباح . أعني أن أن يصبح الاشتباك مع العدو ويقصد تحريم الأمن والاستقرار عليه " عادة عربية " عادة على المستوى الجماعي وعادة على المستوى الفردي .

كيف ؟

لنأخذ الاشتباك مع " الدولة " الاسرائيلية مثلاً .

ان دولة اسرائيل مثل كل الدول مؤسسة ذات وظيفتين فهي جهاز ردع . وهي جهاز إدارة . من حيث هي جهاز ردع تملك أدوات الردع الخارجي من القوات المسلحة و قوات التجسس والتخريب كما تملك ادوات الردع الداخلي من شرطة وحراس ومحاكم وسجون ومشانق..الخ الاجهزة الاولى لتحقيق الاستقرار على الأرض والاجهزة الثانية لتحقيق الامن داخل الأرض . لهذا كان طبيعياً أن تجذب الدولة كمؤسسة ردع داخلي وخارجي ضربات المقاومة الجماهيرية، التي كادت ان تكون قوى مقابلة . ففي مواجهة القوة المسلحة المدربة على القتال تملك قوات مسلحة ومدربة على القتال . وتأخذ المقاومة شكل هجمات صدامية بين قوى التحرير وقوى العدوان، تستعمل فيها انواع الاسلحة التي تستعمل عادة في الحروب. وفي مواجهة قوى الامن الداخلي تملك المقاومة قوى فدائية تتسلل الى الارض من خارجها او تثبت على الأرض المحتلة من الداخل وتختار صراعها مع العدو و قوى أمنه الداخلي بالاساليب التي تدخل في صلاحيات تلك القوى . التفجير والتدمير والقتل ومحاولات إرغامه على أن يبلغ احكامه التعسفية ويطلق سراح المعتقلين ... الخ . حتى تلك العمليات التي كانت في ظاهرها بعيدة عن المواجهة المباشرة بين قوى الأمن الصهيوني وقوى الفدائيين العرب كخطف الطائرات والقبض على أفراد العصابات الصهيونية في الخارج ما لبثت بشكل نمطي أن كشفت عن الدائرة التي تتم في نطاقها فهي أيضاً موجهة إلى قوى الأمن الصهيوني . فقد أتخذت كل الرهائن من الطائرات والبشر وسائل ضغط للافراج عن المسجونين .

ان كل هذا لازم وضروري . كما أن تصعيده لازم وضروري ولكنه بمفرده لا يحقق عنصر مواصلة الاشتباك مع العدو على الوجه الممكن فعلياً . فمن ناحية لا تستطيع المقاومة الجماهيرية أن توظف في هذا النوع من الاشتباك إلا جزءاً قليلاً من قواها البشرية والمادية وبالتالي تبقى الجماهير العربية العريضة خارج نطاق معركة الاشتباك ومن ناحية أخرى لا يستطيع هذا النوع من الاشتباك ان ينال من أمن العدو واستقراره الا قدرا محدودا اقل مما هو ممكن فعلياً فتبقى الدولة الصهيونية قائمة بوظائفها. وربما كان من شأن الاقتصار على هذا النوع من الاشتباك المحدود هجوما ودفاعا ان يوفر لدولة اسرائيل من حيث هي مؤسسة ردع فرصة احكام قبضتها على الصهاينة داخلها والزامهم نوعا من الانضباط والطاعة لأنها تحمي امنهم واستقرارهم ولتتوافر لها كامل الكفاءة لاداء تلك الحماية .

كيف يمكن اذن تحريم الامن والاستقرار بالاضافة الى وبشكل أكثر تأثيراً من الصدام العنيف المسلح .

بأن نتذكر ان اسرائيل " الدولة " ليست مؤسسة ردع فقط بل مؤسسة ادارة . على هذا الوجه الاخير تقوم الدولة على مجموعة كثيفة من القوانين المدنية والجزائية واللوائح التنظيمية والأوامر الادارية والتعليمات والخطط الاقتصادية والمشروعات الاجتماعية والتعليمية والترفيهية... كل هذه القوانين واللوائح التي تحدد في النهاية شكل الحياة ومجالها على الارض المحتلة . وفي نطاقها ينام الصهاينة ويحلمون ويستيقظون ويعملون للمستقبل الذي لا يستحقونه- ويتسع هذا المجال المتنوع لنشاط الدولة كجهاز اداري لكل ا ساليب المقاومة وهي مقاومة سهلة الاداء وسهلة المخاطر . وهي مقاومة قد لا تحتاج الى عنف ولا تعرّض صاحبها الى عنف ، وهي مقاومة يستطيع الأفراد أن يمارسوها يومياً وكأفراد بدون حاجة الى تخطيط وإعداد وتنظيم ذلك أن غايتها إفشال " الدولة " من حيث هي جهاز إدارة . وعلى الذين قد لا يهتدون الى تفاصيل الأسلوب أن يتذكروا كيف ولماذا تثور الشعوب على دولها فتسقطها .

يوم ان لا يأمن الفرد ان تستمر الاضاءة لأن " كابل " قد قطع ولا يأمن ان يغتسل لان ماسورة مياه قد انفجرت ولا يأمن أن يصل الى موقع عمله لان دواليب المواصلات قد اتلفت ولا يأمن أن يعتذر لأن " الهاتف " ولا يأمن أن يأكل لأن الخبز محشو بأشياء غريبة ولا يأمن على المواد الغذائية لأنها من حين إلى آخر تنقطع إما لاتلاف تنقطع المحصول او لاتلاف المواصلات أو لاتلافها هي ولا يأمن العلاج لان بعض الادوية مغشوشة ولا يأمن التعامل لأن بعض اوراق النقد

مزورة، ولا يأمن السير في الطريق لأن سيارات هوجاء تصدمه، ولا يأمن نظام المرور لان الناس لا يحافظون على نظامه ، ولا يأمن قضاء سهرة لان أشخاصا يتضاربون دائماً فيفسدون السهرات ، ولا يأمن الخدمات لان الضرائب لاتدفع ، ولا يأمن العدالة لان الاحكام لا تنفذ، ولا يأمن صحة المعلومات لأن الصدق محرم عليه... يوم ان تصبح " الحياة " العادية اليومية لاتطاق لأن ملايين التصرفات الصغيرة المحدودة ولكن المستمرة تجعل الحياة لاتطاق ... يوم ان يتم كل هذا لا تغني الدولة لا قواتها المسلحة ولا قوات امنها . تنهار الدولة من الداخل لانها فاشلة .

فاذا اضيف الى هذا ان ادارة الدولة للاقتصاد فاشلة فقطع الغيار غير متوافرة والمصانع تتوقف يوميا أو من يوم إلى يوم ولو عشر دقائق ، حرائق صغيرة تشب من حين إلى حين حتى في النفايات المتروكة، والبضائع المعدة للتصدير لا تكون مطابقة للمواصفات ، وخطابات البريد- التي توضع باليد في صناديقها لاتصل إلى أصحابها كأن أشباحاً تفرغها ، وتعبئة البضائع رديئة ، وما يكتب في ورقة يكتب في عشر ورقات ، وحتى ساعات ضبط الوقت لا تنتظم ، والبرقيات لا تكون واضحة والاتصالات اللاسلكية لا تسمع جيداً .. وحوادث عجيبة تحدث في الموانىء في جميع أنحاء العالم فتعطل إبحار البواخر في المواعيد المحددة ، وتعطل الطائرات عن الوصول في المواعيد المحددة ... إلى آخر ألف مليون مهمة لا يدخل في أكثرها أي نوع من أنواع العنف ولا تتطلب أسلحة أو تنظيمات ولكنها كلها ترشح أي دولة للانهيار ولا تعوضها أية تعبئة معنوية أو فكرية...

وهذا هو المجال المفتوح للجماهير العربية في الارض المحتلة. لوكا نوا يستمعون إليّ هناك، لقلت لهم، ان الدولة كجهاز اداري عبارة عن مجموعة من الاوامر والنواهي تجدونها في القوانين واللوائح . وعلى كل عربي ان يخرق كل يوم أمرا أو اكثر من أمر. ان يفعل شيئا ممنوعا أو اكثر من شيء ممنوع . وستكون هذه هي " العادة " الفردية اليومية . لا يهم مضمون الامر والنهي . المهم اضعاف بناء الدولة بتخريبه كل يوم . بانتزاع لبنة من لبناته بكل يوم . يتحرم الامن والاستقرار اليومي على الصهاينة في الارض المحتلة. وليفعل كل واحد- يوميا وباستمرار- ما يستطيع .

أما على المستوى الدولي، فان دولة اسرائيل متواجدة كجهاز ادارة معاملات مالية وا قتصادية وثقافية مع الدول الاخرى . واما على مستوى الوطن العربي فان الدول المتحالفة مع اسرائيل ذات وجود اقتصادي واجتماعي وثقافي وبشري أيضا. والساحة مليئة بملايين ملايين مجالات الاشتباك مع العدو وحلفائه بأساليب قد تبدو صغيرة ولكن مواصلتها يحولها الى خطيرة

. قد تبين عابرة ولكن مواصلتها يحولها الى قاهرة . وتبدو هينة ولكن مواصلتها تحولها الى مميتة وقاتلة. قد لا تبدو ضربة قاضية للعدو ولكنها استنزاف لقواه.. وهي بعد الاقوى أثرا في جر الصهاينة المقيمين على الارض الى دائرة الصراع ومخاطرها بدلا من تركهم يجتمعون وراء دولتهم من حيث هي جهاز ردع .

وهكذا تنهش الجماهير العربية الجسد المزروع الغريب في أرضها، وتحرم عليه الامن والاستقرار الذي يحلم به على هذه الارض . ويفلت النضال العربي من مأزق الحصر التقليدي الذي علق معركة التحرر دهرا على الجيوش النظامية للدول العربية ، ويكاد يعلقها الان على نفر من الفدائيين، ثم تبقى الجماهير العادية البسيطة بعيدة عن المعركة، مع أن مواصلة الاشتباك مع العدو لا تتحقق تحقيقا كاملا الا من خلال دخول الجماهير العادية البسيطة خضم المعركة بالاسلوب المناسب . وما يزال باب الاجتهاد في الاسلوب مفتوحا. انما نحاول من خلال الأمثلة أن نؤكد خطاً لا يجوز أن ينقطع أو يتوقف أبدا، في أي زمان وفي أي مكان وبأي أسلوب هو: مواصلة الاشتباك مع العدو .

مقال نشر في جريدة السفير يوم ١٩٧٥/٥/١٧

مقياس الخطر من الوجود الاجنبي في الوطن العربي

يتساءلون. أين نحن من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية، ويقولون ان الامر كان واضحا حين كنا منحازين الى الشرق . حين اقتصرنا على اسلحته وخبرائه. حين فوضناه في أن يتحدث باسمنا . حين عرضنا عليه الدفاع عن وطننا. حين بذلنا فوق ما نطيق مالا وبشرا في العراك مع الولايات المتحدة الامريكية واصدقائها. حين اخترنا الاشتراكية. ولقد كان الامر واضحا لان حدود الانتماء- كما يقولون- كانت واضحة. فلقد كان العالم منقسما انقساما حادا الى قوتين متصارعتين، الكتلة الشرقية بقيادة الاتحاد السوفيتي والكتلة الغربية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية. في تلك الظروف كان من الممكن أن نجد للانحياز مبررا. ولقد حاولنا وحاول غيرنا ان نبني كتلة عدم الانحياز من دول العالم الثالث ، ولكنا- وا قعيا- كنا منحازين . المهم ان الظروف قد تغيرت. وان المتغيرات الدو لية قد اصابت علاقات كل الدول بالتغيير. وحل الوفاق محل الصراع بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية. انهم يتعايشون معا ويتفقون معا ويعقدون الصفقات طويلة الامد. وان هذه لفرصة تاريخية لنعود الى استقلالنا ونتعامل مع كل الدول بدون تمييز ولا نزج بانفسنا في معتركات السياسة الدولية. وان اخشى ما نخشاه من خطر على قضيتنا أن نقع فريسة الاستقطاب مرة أخرى ، واخشى ما نخشاه من خطر على حريتنا أن نفقد المقدرة على اتخاذ قراراتنا طبقا لما يتفق مع مصالحنا.. الخ .

يثير هذا الذي يقال ثلاثة مواقف متميزة في الوطن العربي .

الموقف الاول ، يعيد التذكير بتاريخ علاقتنا بالاتحاد السوفيتي . لم يكن الاتحاد السوفيتي هو الذي تقدم فدس أنفه في شؤوننا الداخلية . كانت البداية منا. نحن الذين تقدمنا اليه ننشىء معه علاقات اقتصادية ومالية وثقافية وعسكرية فرحب وقبل. ولم نتقدم اليه مختارين . تقدمنا اليه بعد أن استنفذنا كل الوسائل في محاولات استغرقت سنين طويلة أردنا بها أن ننمي علاقاتنا الاقتصادية والمالية والثقافية والعسكرية مع المعسكر الغربي والولايات المتحدة الامريكية بالذات. وكانت للولايات المتحدة الامريكية شروط لا تنسى لانها شروط تمس ا ستقلالنا وحريتنا " ولما رفضناها ضرب علينا الحصار الاقتصادي ، وجمدت أرصدتنا المالية في الولايات المتحدة الامريكية، وتوقفت الاعانات، وسحب عرض بناء السد العالي، وغزت اسرائيل أرضنا تحت مظلة حلف الاطلنطي. كان المطلوب منا لكي نحتفظ وننمي علاقاتنا مع الولايات المتحدة الامريكية أن

نكف أنفسنا عن الاهتمام أو التدخل في شؤون العالم العربي ، أن نصطلح ونعترف باسرائيل، لأن نقبل رقابة مالية على خزانتنا، الا نقيم مشروعا اقتصاديا الا بعد الاذن من البنك الدولي . باختصار كانت تبعيتنا الى الولايات المتحدة الامريكية هي ثمن أية علاقة اقتصادية أو مالية أو ثقافية أوعسكرية. والمرحوم دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة . هو الذي قال لنا : اما معنا واما ضدنا لان موقف عدم الانحياز موقف غير اخلاقي ...

ولقد لجأنا الى الاتحاد السوفيتي فتعامل معنا في الحدود التي ارتضيناها وقبل شروطا لا تتفق حتى مع مبادئه العقائدية. صفقة الاسلحة تمت سنة ١٩٥٥ بينما كان كل الشيوعيين في السجون . وبينما كان خبراء الروس ينفذون مشروع السد العالي ، ويخططون لمجمع الحديد والصلب، ويوردون الاسلحة ، كان الشيوعيون أيضا في المعتقلات في الواحات، وعندما هزمنا في عام ١٩٦٧ قدم لنا الاتحاد السوفيتي تعويضا عن اسلحتنا مكننا من استئناف القتال في حرب الاستنزاف. وعندما بدأت غارات العمق ذهبنا، نحن الذين ذهبنا، لطلب الاسلحة المتطورة، ونطلب الخبراء، ونطلب، نحن الذين طلبنا أن يتولى طيارون من السوفيت حماية اجوائنا الداخلية الى أن يتم تدريب طيارينا. وعندما قلنا تعالوا نتفق على انهاء مهمة الخبراء قال السوفيت ليس هذا من شأننا لنتفق عليه، انه من شأنكم انتم فان اردتم فانهوا وجودهم في بلدكم . فلما طلبنا مغادرتهم في موعد، حددناه نحن، غادروا هم قبل الموعد الذي حددناه . فلماذا نخشى التعامل مع الاتحاد السوفيتي وهذه خبرتنا معهم..

الموقف الثاني يقول ان هذا ليس الا جانبا واحدا من المشكلة. جانبها الثاني هو اننا عندما نقتصر في تعاملنا الاقتصادي أو المالي أو الثقافي أو العسكري على الاتحاد السوفيتي فاننا نكون قد اصبحنا تابعين له سواء اردنا او لم نرد . ان الاتحاد السوفيتي لم يعطنا كل ما أعطانا حبا فينا أو استجابة لمبادئه ونظرياته. ولو كان يتبع في سياسته الخارجية مبادئه النظرية ما تخلى عن الماركسيين . ولو كان يتبع في تعاونه الدولي مبادئه لما عرض اقتصاد الصين الشعبية وهي دولة ماركسية للخراب عندما سحب خبراءه فجأة في وقت كانت الصين في أشد الحاجة اليهم . انما هو يبحث منذ قرون عن سبيل الى المياه الدافئة ، ولقد فتحنا له مياهنا فاصبح له وجود عسكري قوي في المتوسط ، وفي محيطات الجنوب ونقل بذلك صراعه مع الولايات المتحدة الامريكية الى ارضنا. وفي هذا الصراع لا يمكن الحياد. فهو يسعى باساليبه الخاصة لاحتوائنا وهو يستعمل في سبيل هذا امضى اسلحته وهو السلاح الفكري . ما بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٧ لم تمض الا ثلاث سنوات قضاها الماركسيون خارج السجون فبلشفوا العقول و سمموا افكار الجيل الجديد من

الشباب، واشاعوا الفساد والالحاد.. وفي الاوقات العصيبة لم يتردد الاتحاد السوفيتي في الضغط علينا بما يملك تحت يديه من ادوات اقتصادية ومالية وعسكرية. حبس عنا قطع الغيار. وهو يرفض جدولة الديون . وهو يرفض ان يعوضنا خسائرنا في الحرب كما فعل مع سورية وكما تفعل الولايات المتحدة الامريكية مع اسرائيل . ثم بماذا يفيدنا الاتحاد السوفييتي ؟ ان ازمتنا اقتصادية. ولقد أصبحنا افقر الدول بعد أن كنا اغناها. ما نريد الان هو ان نوقف الاستنزاف الدائم لمواردنا الاقتصادية والبشرية بالكف عن الحرب. على اسرائيل اذن أن تترك أرضنا بدون قتال ولا يستطيع أن يحملها أحد على هذا الا الولايات المتحدة الامريكية. ثم ان الولايات المتحدة الامريكية هي وحدها التي تستطيع ان تقيلنا من عثرتنا الاقتصادية لانها اقوى قوة اقتصادية في الارض . ألم يلجأ اليها حتى السوفيت ليحلوا ازماتهم الاقتصادية المستعصية. لقد ارهقنا الفقر والحرمان سنين طويلة ولا نريد الا وضع حد لهذا الفقر والحرمان، فلنفتح أبوابنا للولايات المتحدة الامريكية. لن يأتي الينا الاسطول الامريكي فانه لا يفتقد القواعد. ولن يأتي الينا الجيش الامريكي فقد انسحب حتى من جنوب شرقي اسيا. انما ستأتي الينا الاموال الغزيرة ، والتكنولوجيا المتقدمة ، والمشروعات الا ستثمار المدروسة. فتتحول بلدنا الى جنة كما تستحق بدون أن نفقد حريتنا .

الموقف الثالث يقول : اننا، فوق كل شيء وقبل كل شيء، يجب أن نحافظ على استقلالنا فلا نقع في شباك التبعية لا للاتحاد السوفيتي ولا للولايات المتحدة الامريكية. وبناء عليه يجب أن نتعامل معهما معا، لا نعادي أيهما ولا ننحاز الى أيهما وبالتالي نفلت من كليهما ونستفيد من علاقاتنا بالجميع. على هذا الوجه يجب أن يكون التزامنا الاسترا تيجي ، أما المواقف التكتيكية فتتنوع وتتغير تبعاً للظروف المتنوعة المتغيرة . ولكن المقطوع به أننا لن نسمح في أي حال بوجود سوفيتي أو وجود أمريكي في أرضنا العربية.. فلا قواعد عسكرية. ولا احتكار للسلاح . ولا تعامل منفرد إقتصادياً، ولا رأسمالية، ولا شيوعية، بل انفتاح على كل الدول وكل المذاهب وكل النظم.

ومعارك الكلمات وما تخفيه، ما تزال مستمرة .

ونحن نريد بهذا الحديث أن نقيم حدا بين المواقف. اذ لن يضيرأمتنا أبدا أن تفرز القوى من خلال مواقف محدودة بحيث يعرف كل واحد الى أين ينتمي . ان هذا الفرز مقدمة صحيحة وصحية للحل الصحيح . انما تضار أمتنا حقا، اعني جماهير أمتنا العربية ، وعندما تختلط في اذهاننا المواقف فلا تعرف كيف تختار موقفها هي . ولاختلاط المواقف سبب غير خفي فان جميع

المتعاركين يدخلون الى موا قفهم المتناقضة مدخلا واحدا : الوطنية. الحرية. الاستقلال عدم التبعية... الى آخره . وهو مدخل الجماهير أيضا. فلا أحد يستطيع أن يقنع أحدا في الوطن العربي بخيانتة وطنه أو بيع حريته أو التنازل عن استقلاله. ومع ذلك فان المواقف التي اختلطت في مدخل واحد ، مدخل الوطنية، مواقف متناقضة فلا بد لها من أن تفرز حتى تعرف جماهير أمتنا أي موقف تختار لنفسها .

ليس غاية هذا الحديث اذن ، تحقيق ادعاءات الاطراف المعنية او محاكمة مواقفها، بل غايته أن يضع بين أيدي الجماهير العربية مقياسا للخطر، مفترضا ان الموقع الاستراتيجي لوطننا العربي وما فيه من ثروات يرشحه لمطامع كل الذين يحتاجون إلى" وجود " سواء كان وجودا عسكريا أو اقتصادياً ، ولن نعقد مقارنة بين كل الدول والقوى لنقول من منها الذي يحتاج إلى " الوجود " في الوطن العربي . انما نقصر الحديث على بيان كيف تتواجد القوى والدول خارج حدودها .

والمقارنة للايضاح، بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية.

ان الولايات المتحدة الامريكية هي التي هددت صراحة بغزو الوطن العربي وهي التي تتواجد عسكرياً في اسرائيل وهي التي تملك القواعد في بعض الاقطار العربية . يقول أصحاب الموقف الثاني أن الولايات المتحدة هددت ولكنها لم تنفذ مع انها قادرة على التنفيذ . وهي ليست قوة عسكرية موجودة في اسرائيل بل هي حليفة تبيع لاسرائيل السلاح كما تبيع للاردن وللمغرب ، وهذا يجري به العرف الدولي . أما قواعدها في بعض الاقطار العربية فقد أقيمت على أرض مؤجرة من تلك الاقطار وما تزال لها قاعدة في كوبا لم تستخدمها في اسقاط كاسترو رغم محاولاتها اسقاطه بطرق أخرى . ولقد استطاعت ليبيا ان تنهي هذا الوجود بمجرد طلب انهائه وأخلت أمريكا قاعدتها هناك.

ليكن. منعا للجدال. لنستبعد اذن المقياس العسكري ولنقل أن أياً من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية لن يجسد وجوده خارج حدوده عنوة بالقوة المسلحة والاحتلال . انه الاستعمار "القديم " الذي انقضى عصره . كيف يتجسد وجود الدولة خارج حدودها إذن ؟

كل بالاسلوب الذي يتفق مع نظامه الداخلي .

الاتحاد السوفيتي دولة اشتراكية خالية تماما من المؤسسات الفردية . الدولة هي التي تنتج السلاح وهي التي تبيعه. الدولة هي التي تملك " ادوات الانتاج وتتعامل- خارجيا- في المنتجات الصناعية والزراعية وغيرها. وكل الناس في الاتحاد السوفيتي عاملون في الدولة، ولا يستطيع أي واحد منها أن يؤجر قوة عمله الى غير دولته ولكنها تملك تشغيله في خارج الدولة تنفيذا للاتفاقات التي تعقدها الدولة مع الدول. والدولة هي التي تملك الصحف والاذاعة وتطبع الكتب وتنشرها وتوزعها داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه.

وهكذا يكون الوجود السوفيتي خارج حدوده وجودا ظاهرا ومحددا ومعروفا لانه يتم من خلال الدولة وفي نطاق علاقاتها بالدول الاخرى . الوجود الاقتصادي يتم في شكل مكاتب متخصصة ترفع العلم السوفيتي علناً . في شكل عقود يبرمها مندوبون مفوضون من الاتحاد السوفيتي رسمياً. في شكل مصانع وأدوات صناعية وأسلحة وذخائر تسلّم من الاتحاد السوفيتي الى الدولة المعنية طبقاً لاتفاقات معروفة. في شكل خبراء معروفة أسماؤهم وأسماء أسرهم وأعدادهم ومحال إقامتهم وأرقام هوياتهم لدى سلطات الدولة التي يوجدون فيها . والوجود الثقافي في شكل مكاتب ثقافية ومكتبات وصحف وكتب تحمل كل منها شعار واسم الاتحاد السوفيتي . وفي شكل وفود زائرة معروفة العدد والاسماء ومدد الاقامة والغرض من زيارتها ووفود مدعوة بالاسم او بالصفة لمدد معلومة تقدم دعوتها الى الدول التابعة لها . لا شيء يجري في الخفاء، ولا شيء يمكن أن يضلل أحدا في " الوجود " السوفييتي عندما يريد الاتحاد السوفيتى أن يكون له وجود خارج حدوده..

ان هذا الوجود العلني، والذي لا يمكن الا ان يكون علنياً هو الذي سمح ويسمح بحملات التشهير بالوجود السوفيتي. ففي كل دولة يستطيع رجل الشارع العادي ان يعرف ما اذا كان للاتحاد السوفييتي وجود في دولة ام لا. وما شكل هذا الوجود. وما حجمه وبالتالي يستطيع ان يقدر ما اذا كان هذا الوجود يمثل خطرا على استقلاله او لا يمثل.. فالمشهرون بالوجود السوفيتي لا يحتاجون الى معلومات. كلها متاحة وغير منكورة فيبقى لهم ان يفسروا ويأولوا ويستنتجوا ما يريدون من وجود لا ينكره احد.

على أي حال ، فان أي " وطني " يحرص على استقلال بلاده لن يخطىء ابدا في معرفة بدء وشكل ومضمون وحجم الوجود السوفيتي في بلاده . وسيكون عليه هو ان يقدر مدى اتفاق او عدم

اتفاق هذا الوجود مع استقلاله الوطني، وان يحد منه او ينهيه ولن يكلفه هذا شيئا سوى مراجعة او تعديل او انهاء العقود والاتفاقات التي ابرمها مع دولة الاتحاد السوفييتي .

نأتي الى الطرف الآخر.

الولايات المتحدة الامريكية دولة رأسمالية اقتصاديا ليبرالية سياسيا. الدولة هنا لا تتدخل بشكل عام الا في شكل القوة المسلحة التي استبعدناه . لان الدولة في الولايات المتحدة الامريكية ذات وظيفة محددة : حماية مصالح رعاياها واشخاصهم فقط لا غير . اما العلاقات الاقتصادية او المالية او الثقافية بالدول الاخرى فيقوم بها الافراد والمؤسسات الخاصة . حتى الاسلحة تنتجها وتبيعها مؤسسات خاصة تلك المؤسسات الخاصة قد تقيم علاقاتها مع دولة او مع مؤسسات خاصة ا يضا في الدول . وغاية كل هذا النشاط الذي يقوم به الافراد والمؤسسات الخاصة من الامريكيين خارج الولايات المتحدة الامريكية هو الحصول على الارباح . اكبر قدر من الارباح ، وهكذا يتبع الوجود الامريكي مصادر المواد الخام والعمالة الرخيصة والعرض الاستهلاكي أينما كان متاحا بشروط افضل.. ولا تحتاج دولة الولايات المتحدة الى الظهور كطرف في علاقات رعاياها بالدول او المؤسسات او الافراد خارج حدودها. كل ما تحتاجه هو اكبر عدد من العيون والرقباء والعملاء الذين ينشطون خفية للتحقق من أن " الظروف " الداخلية في أية دولة لا تهدد مصالح رعاياها اما بتقييد نشاطهم أو بمحاولة الحد من الارباح التي يغرفونها فتظهر حينئذ في شكل قوة عسكرية. وقلة من هؤلاء من يلحقون بسفاراتها كموظفين . الكثرة يتواجدون ايضا تحت شعار النشاط الاقتصادي أو المالي أو الثقافي . وليس مطلوبا من أي وطني حريص على استقلال بلاده ان يكشف حقيقة كل هؤلاء الامريكيين الذين يفدون الى بلاده، يحملون وعود الرخاء ودعوات السلام . هذا فوق طاقة اي وطني .

كيف يمكن اذن ان يعرف أي وطني حريص على استقلال بلاده بدء وشكل ومضمون وحجم الوجود الامريكى في بلاده ؟ بمراقبه ودراسة تتبع النشاط الاقتصادي والمالي والثقافي في بلاده ذاتها عندما يبدأ دخول رؤوس الأموال الخاصة في بلده يكون قد بدأ الوجود الأمريكي سواء جاءت رؤوس الأموال تلك من الولايات المتحدة أو من المانيا الغربية أو من اليابان أو من أي طرف من أطراف الأرض لأن الولايات المتحدة الأمريكية هي " امبراطورة " الرأسمالية العالمية كل ثغرة تفتح لتتسرب منها مضاربات السوق الرأسمالي إلى الداخل يدخل معها السوق الأمريكي في شكل مضاربين على احتياجات الشعب في السوق الحرة . كل صفقة دولية تعقدها مؤسسة خاصة

"وطنية" هي اسلوب خاص للوجود الأمريكي في الوطن . كل فرع بنك أجنبي هو تجسيد للوجود الأمريكي . كل سلعة استهلاكية لا يحتاج إليها الشعب هي جزء من الوجود الأمريكي . كل مشروع امريكي اقتصادي أو مالي أو ثقافي ، هو وجود أمريكي .. كل دعوة ليبرالية هي دعوة إلى أمريكا لتتواجد . كل نظام رأسمالي هو في التحليل الأخير وجود أمريكي في شكل نظام .

وفوق طاقة الجماهير العربية العادية أن تراقب وتتبع هذا الوجود منذ بدايته إلى أن يسلبها استقلالها الوطني . فماذا تفعل لمنع مخاطر الوجود الأمريكي في بلادها ؟ هل تقاطع أمريكا ؟

لا ..

ألا تتعامل مع أمريكا ورعاياها من المؤسسات والأفراد إلا عن طريق دولتها . أن تكون الدولة هي المتعاملة المتعاقدة المتاجرة المبادلة ، مالياً واقتصادياً وثقافياً ، مع أمريكا وكل النظم الرأسمالية . أن تكون الدولة هي صاحبة الصلاحية وحدها ، فيما يدخل أو لا يدخل حدودها من أموال أو بضائع أو ثقافة ، وتكون هي الطرف الوحيد في كل مشروع طرفه الآخر مؤسسة رأسمالية . ان الانفتاح على المؤسسات الأمريكية هو استدعاء للوجود الأجنبي في أرض الوطن .

مقال نشر في جريدة السفير يوم ١٩٧٥/٧/٢٨

حرية الارادة الوطنية بين الشكل والمضمون

من مشكلات السياسة التي ظهرت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن مشكلة مدى تحقق حرية الارادة الوطنية في القرارات التي تصدرها السلطة في اية دولة.

فمن قبل، وعلى وجه خاص، قبل الحرب العالمية الاخيرة لم يكن اسناد القرارات التي تصدرها السلطة في اية دولة الى الارادة الوطنية، أو عدم اسنادها ، يثير أي لبس . كان العالم منقسما الى دول مستعمرة ودول خاضعة للاستعمار . وكا نت الدول المستعمرة تمارس سيطرتها على الدول الخاضعة ممارسة ظاهرة وتنفذ ارادتها تحت حماية القوات العسكرية المرابطة في ارض الدول الخاضعة. كان ذلك عصر الاستعمار القديم، اسلوبه المكشوف. ولم يكن احد يخطىء في معرفة صاحب الارادة في صدور او نفاذ اي قرار . فمن حيث الشكل كان صدور القرار يبدأ بزيارة من ممثل الدولة المستعمرة الى الحاكم المحلي لتبليغه مضمون القرا ر الذي يريد ان يصدر . وقد يطلبه كتابة. وقد يأخذ شكل البلاغ العلني او حتى الانذار المصحوب بتهديد باستعمال القوة كما حدث في مصر في فبراير ١٩٤٢. أما من حيث المضمون فقد كانت القرارات كلها ذات مضامين تخدم مصالح المستعمرين بالدرجة الاولى او بالدرجة الوحيدة .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وانتهت تاركة اثرين خطيرين : اولهما: ان الدول الاستعمارية التقليدية قد انهكتها الحرب ماليا واقتصاديا وبشريا واصبحت في اشد الحاجة الى " توفير " نفقات الاحتلال المباشر ومصروفات انشاء القواعد العسكرية أو المحافظة عليها فكان لا بد من ان تنهى الوجود المادي الظاهر للاستعمار في الدول الخاضعة له. ثانيهما: خروج الولايات المتحدة الامريكية من الحرب أقوى عسكريا وماليا واقتصاديا من وقت دخولها وتوليها قيادة المعسكر الاستعماري بدلا من القوى التقليدية المنهكة.

وادى هذان الاثران الى تغيير في شكل الاستعمار الرأسمالي . فهو موجود ولكنه في اشكال خفية . وتتولى الولايات المتحدة الامريكية الحفاظ عليه ولكن بأساليب غير مباشرة . هذا التغيير ادى بدوره الى تغيير في الشكل السياسي الذي كانت تعيش فيه المستعمرات. فقد كسبت تلك المستعمرات، كثير منها أو اغلبها، التحرر من التبعية الظاهرة فكسبت الاستقلال الظاهر- اعني

جلت عن أرضها الجيوش المحتلة، وتشكلت فيها حكومات " وطنية " واختارت اعلامها، وا نشأت علاقات دبلوماسية مع الدول الاخرى، وحصلت على اعتراف الدول الاخرى بذلك الاستقلال، وحظيت بمقاعدها في هيئة الامم المتحدة . أصبح الاستقلال الوطني في كل شكلياته الدولية والدستورية حقيقة معترفا بها. وبه انتهى ايضا عهد املاء الارادة على السلطات الوطنية، واصبحت كل القرارات التي تصدرها السلطة في اية دولة " مستقله " تستند- من حيث الشكل- الى الارادة الوطنية.

بقيت مشكلة المضمون. اي مدى اتفاق مضمون تلك القرارات مع المصالح الوطنية. وفي هذا انقسمت الدول المتحررة حديثا الى قسمين رئيسيين وان كانا متداخلين .

فمجموعة كبيرة من الدول التي " استقلت " شكلا بقيت خاضعة " موضوعيا " للاستعمار في شكله الجديد. والشكل الجديد هو التبعية الاقتصادية والمالية والثقافية. فمع بقاء المصالح الاستعمارية بالرغم من الاستقلال الشكلي اصبحت الارادة الوطنية محكومة في مضمونها، بما يتفق مع الحفاظ وتنمية تلك المصالح، وانقلبت السلطة الوطنية الى " حارس وطني " للاستعمار بدلا من الجيوش التي جلت عن أرض الوطن . وكان هذا اقصى ما يتفق مع ارادة المستعمرين، حيث تتحمل "الدول المستقلة" تكاليف واعباء الحفاظ وتنمية مصالحهم فتجعل الاستعمار اقل تكلفة وبالتالي تزيد من معدلات الربح .

مجموعة أخرى من الدول التي " استقلت " شكلا ارادت ان تستقل مضمونا. ان تتحرر اقتصاديا وماليا وثقافيا من الدول الاستعمارية. والواقع انها لم تكن تطمح الى مقاطعة تلك الدول والدخول معها في صدام انتقامي يعوض مذلة السنين الطويلة. بل كان همها الاول ان تحول الاستقلال الوطني الذي تم شكلا الى استقلال حقيقي . استقلال اقتصادي ومالي وثقافي . وكانت على استعداد لان تلتمس أسباب تقدمها الاقتصادي والاجتماعي في أي مكان من العالم المتقدم بما فيه الدول الرأسمالية الاستعمارية. اي ان اقصى ما كانت تطمح اليه السلطة الوطنية في تلك الدول هو ان تتعامل مع كل القوى ولكن بدون " تبعية " مع اعترافها بان العزلة او الانعزال عن العالم ودوله ومصالحه- في هذا العصر- غير ممكن وغير مفيد، وبالتالي استعدادها لتبادل الخدمات والمعونات والمصالح عند نقاط التقائها مع اية دولة ولكن بدون "تبعية".

ولم يكن هذا الاتجاه ليعجب المستعمرين . المستعمرون لا يتعاملون ولا يتبادلون ولكن يستولون ويأخذون ما يريدون عنوة او خفية. ولا يهم المستعمرين ان تعبر اي دولة باقصى ما

يتيحه لها استقلالها من وسائل التعبير عن ارادتها الوطنية في اتخاذ قراراتها. ولكن الذي يهمها ولا يمكن ان تتساهل فيه هو ان تكون مضامين تلك القرارات غير مناقضة لمصالحها اذا لم تكن مطابقة لها. وهكذا بدأ الصدام بين القيادات الوطنية التي تريد ان تحتفظ بحرية ارادتها الوطنية شكلا ومضمونا وبين القوى الاستعمارية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية التي قد تسمح بالشكل الوطني للارادة ولكنها لا تسمح بأن يكون مضمونها وطنياً .

وبدأ الصدام ودار جزؤه الاكبر على الارض العربية.

فقد كانت مصر، تحت قيادة عبد الناصر، هي المحك الذي كشف طبيعة الاستعمار الجديد وا ساليبه المبتكرة، وا ستفادت دول كثيرة في العالم من ذلك الدور القيادي الرائد الذي وضعت به مصر، تحت قيادة عبد الناصر، قوى الاستعمار الجديد وعلى رأسه الولايات المتحدة الامريكية موضع الاختبار السلمي والعنيف معا، لتعرف الدول المتحررة حديثا مدى حقيقة استقلالها ومدى استعداد القوى الاستعمارية لاحترام هذا الاستقلال .

فمنذ ١٩٥٢ بدأت القيادة الوطنية في مصر تتجه بقوة الى حل مشكلات التخلف الاقتصادي والاجتماعي بالتركيز على مشروعات التنمية الصناعية والزراعية وتوسيع فرص التعليم لتحضير القوى البشرية المؤهلة لبناء الدولة الجديدة . وكان الاتجاه رأسمالياً لا شك فيه بالرغم من الاصلاح الزراعي " الذي استهدف القضاء على كبار الا قطاعيين وتحرير الفلاحين من القهر الاجتماعي بدون مساس بعلاقات الانتاج . ولجأت الثورة في سنواتها الاولى الى الدول الرأسمالية عامة، والى الولايات المتحدة الامريكية خاصة، تلتمس عندها رؤوس الاموال والخبرة ، واصدرت قوا نين "مثالية " لجذب رؤوس الاموال الاجنبية حتى متطلبات التسليح حفاظا- على الاستقلال حاولت الحصول عليها من الولايات المتحدة الامريكية اولا. لم تحصل على ما تريد وان كانت قد بقيت تحاول الى ان بدأت مشكلة بناء السد العالي . وفي مشكلة بناء السد العالي تبينت القيادة الوطنية في مصر ما الذي تريده الولايات المتحدة الامريكية.. تبينته لانه ابلغ اليها واضحا وصريحا في بنود محددة. الولايات المتحدة الامريكية تريد أن تحتفظ مصر المستقلة بحرية اتخاذ القرارات تأكيدا لاستقلالها الوطني على ان تكون مضامين تلك القرارات متفقة مع المصالح الامريكية لا مع مصالح الشعب العربي في مصر . انها لا تقدم المعونات بدون مقابل، ولا تعطي رؤوس الاموال في مقابل الفائدة، ولا تبيع في مقابل الثمن، ولا تبادل فائضا

بفائض كما يحدث بين الدول المستقلة. ولكنها تريد ان تختار هي نوع المعونات والمشروعات التي تستثمر فيها رؤوس الاموال ونوع البضائع التي تبيعها، ونوع الفائض الذي تقبله.

ورفضت مصر تحت قيادة عبد الناصر ان تبيع استقلالها مقابل تنميتها اقتصاديا على وجه تكون ملحقا وامتدادا للسوق الامريكي استثمارا وانتاجا وا ستهلاكا.. فسحبت امريكا عرضها بتمويل السد العالي، فأمم عبد الناصر القناة للحصول على موارد مالية لبناء السد .

هنا تدخل الاستعمار التقليدي بأساليبه العتيقة وحدث العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ وا شتركت فيه انجلترا وفرنسا واسرائيل. وكان لا بد له من ان يفشل لان اساليب العصر قد تجاوزته. واشتركت الولايات المتحدة الامريكية في إفشاله . افشاله كأسلوب غير مناسب لتحقيق الغاية منه وليس افشال غايته. فقد طالبت- مثلا- بجلاء القوات المعتدية ولكنها قررت- هي- تجميد أرصدة مصر المالية في الولايات المتحدة . ذلك لان الولايات المتحدة الامريكية كانت تدرك ان عصر املاء القرارات على الدول بقوة السلاح قد انقضى، وانه يجب ان يحتفظ لكل سلطة وطنية بحق اتخاذ قراراتها في دولتها، مع ضمان ان تأتي تلك القرارات التي تتخذها الدولة وهي في كامل سلطتها، ويتخذها الحكام وهم في كامل قواهم العقلية، متفقة في مضمونها مع ما يريده المستعمرون .

كيف؟

بالسوبرنطيقا. علم التحكم غير" المباشر ". وهو علم نما ونضج في ممارسات الحرب العالمية الثانية ثم امتد بعدها ليطبق بنجاح في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتطبقه الولايات المتحدة الامريكية بمهارة في سياستها الدولية.

يبدأ الاسلوب بالسؤال : ماذا تريد السلطة الوطنية في الدولة المعنية؟.. وفي الاجابة على هذا السؤال تستعمل كل اساليب البحث العلمي والعقول الالكترونية. ولا يقتصر البحث على الظروف الاقتصادية والا جتماعية والثقا فية والروحية وعادات وتقاليد وتراث كل شعب فحسب، بل يمتد وبعناية بالغة لدراسة " اشخاص " القادة في أدق تفاصيلها . من أول نوع القراءات والهوا يات والامزجة الى آخر السلامة العقلية والنفسية والجسدية والمحيط الأسري ا يضا. كل هذا ليصلوا الى تحديد ماذا يمكن ان تريده السلطة الوطنية. وعندما تنتهي الاجابة يبدأ التخطيط البعيد المدى واصطناع وقائع في داخل الدولة المعنية او خارجها ، على مستويات فردية ، ومستويات عامة... ليصلوا في النهاية الى أن " تريد " السلطة الوطنية بكامل ا ستقلالها وحريتها في

الاختيار ذات الذي يريده المستعمرون . وبينما تكون عجلة الدولة تحت قيادتها الوطنية منطلقة على الطريق الذي اختارته، تتفادى مخاطره، وتلف مع منحنياته، وهي حريصة تماما على سلامة القيادة، مفتحة العينين حتى آخرهما فخورة بارادتها الحرة تجد نفسها في النهاية في الموقع الذي كان يراد لها ان تصل اليه من قبل . فمن بين كل الطرق عبد لها طريق بعينه. وعلى الطريق وضعت لها علامات "من أجل سلامتك هدئي السرعة... " أمامك منحنى خطير ".. " الاتجاه الى اليمين ".. " الطريق الجانبي مغلق ".. الى آخره . وهي التي اختارت وهي التي سارت وهي التي احتاطت وهي التي وصلت.. ولكن الى حيث يراد لها .

ولقد بدأت استعمال هذا الاسلوب مع مصر ايضا عندما عجزت الولايات المتحدة الامريكية عن اسقاط عبد الناصر بالطرق المباشرة. ودرست ظروف مصر ودرست شخصية الرئيس الرا حل وبدأ التخطيط الذي اشتركت فيه قوى كثيرة وهي في كامل وعيها وبدون أن تدري وانتهت بها جميعا الى كارثة ١٩٦٧. التصالح بين عبد الناصر وقيادة النظام القائم في سورية بعد صراع طويل. ثم معاهدة دفاع مشترك مع ذات القيادة . ثم تصعيد الموقف بين سورية واسرا ئيل . ثم تهديد اسرا ئيل بغزو دمشق . ثم ا ستغاثة سورية. ثم – وهنا حصيلة دراسة شخصية الرئيس الراحل وشعوره الحميم تجاه سورية – امر الرئيس عبد الناصر بتحريك القوات الى سيناء. وكادت الخطة تفشل عندما قبل يوثانت أمين هيئة الامم طلب عبد الناصر ا نسحاب قوات الامن الدولية من القطاع الشمالي من الجبهة فقط . فطار بانش الامريكي ومساعد يوثانت في ذلك الوقت الى مواقع قوات الامن الدولية ليقنع الامين العام الدولي بان يطلب من عبد الناصر اما التراجع عن طلب سحب القوات او ان تنسحب من كل الجبهة. وكانوا يعرفون مقدما ماذا سيكون رد فعل عبد الناصر. فلما ان انسحبت قوات الامن الدولي من كل الجبهة. اتموا اكمال الخطة باثارة الملاحة في خليج العقبة.. ثم، تحطيم القوات المسلحة العربية في ضربة خاطفة. وكان ذلك هو المقصود قبل الاخير. فقد كانت نهاية حساباتهم سقوط عبد الناصر فور الهزيمة. ولكن جماهير الامة العربية احبطت الخطة في جزئيتها الاخيرة. وفرضت الصمود وبدأت مرحلة صراع جديدة .

ونستطيع أن نضرب ، مما يدور في الوطن العربي حاليا، عشرات الامثلة الاخرى . قادة وساسة واحزاب وا فراد وصحف... كلها تتحرك وهي في كامل وعيها وتتخذ مواقفها بكامل ارادتها ولكنها لا تنفذ في الواقع الا ما يراد لها ولا تقف الا الموقف الذي اوصلتها اليه قوى عاتية

حريصة على الا تمس من قريب أو بعيد شعور الاعتزاز باستقلال الارادة الوطنية، الاستقلال الشكلي ، ما دامت تلك الارادة تحقق لها ما تريد.

هل هي عمالة؟.

ليس بالضرورة . ان العملاء الذين ينشطون بناء على تعليمات صادرة اليهم من الولايات المتحدة الامريكية في مقابل أجور معلومة كثيرون في الوطن العربي . ولكن ليس كل من ينشط لتحقيق ما تريد الولايات المتحدة الامريكية عميلا لها. ا نه - فقط - ضحية عجز كفاءته عن ادراك اصول ومخاطر لعبة السياسة الدولية في عصر " السوبر نطيقا ". وحتى العملاء الصريحون لم يعودوا يعملون بناء على عقود ثنائية الاطراف معقودة مع مخابرات الولايات المتحدة الامريكية. يكفي بألف طريق وطريق غير مباشرة ، ان يستدرج الى نشاط اقتصادي أو مالي، كشريك أو سمسار أو وكيل لاحدى المؤسسات الرأسمالية في اوربا أو امريكا وان ينجح ، أي أن يمكنوه من تحقيق مزيد من الارباح ليجد نفسه وقد " اقتنع " بان " المصلحة الوطنية " لا تتحقق الا بالاقتصاد الحر ثم بالتعامل مع العالم الغربي ثم مع اقوى دول العالم الغربي امريكا ، ثم- من اجل المصلحة الوطنية- لا بد من الحفاظ على مصالح امريكا.. فيصبح " عميلا " موضوعيا بالرغم من انه لا يقبض أجر عمالة ولم يمل عليه أحد آراءه ولم يحدد له أحد موقفه تحديدا مباشرا.

كيف يمكن الافلات من هذه النتيجة الجهنمية؟

أولا : وقبل كل شيء بان ندرك بأن اساليب الاستعمار قد تغيرت وتطورت وتقدمت فلا ننخدع فنتصور انه ما دامت القوى الاجنبية لم " تطلب " منا أو" تشير " علينا باتخاذ قرار ما فان هذا القرار يكون قد صدر ونحن نمارس كامل حرية ارادتنا الوطنية. لأننا عندما ننخدع يكون غرورنا هو الثغرة " المدروسة " لتمر المضامين التي اخترناها بعد أن اختبرت لنا بعناية كبيرة.

ثانيا : ان نستغل الى اقصى درجة نقطة الضعف في اسلوب التحكم غير المباشر : فله هو أيضاً نقاط ضعف مثل كل اسلوب آخر. ونقطة ضعفه انه يدفع بنا الى مواقف استراتيجية غير معلنة من خلال ثغرات تكتيكية ، جزئية أو مرحلية . يضع أمامنا في كل جزئية أو في كل مرحلة اهدافا مغرية لنختارها ثم ينتقل بنا الى اهداف مغرية أخرى .. وهكذا في سلسلة من الجزئيات نجد انفسنا بعدها وقد أصبحنا أمام أمر واقع لا بد لنا من أن نقبله بعد أن قطعنا كل تلك المراحل اليه ونحن في كامل قوانا العقلية وبكامل ارادتنا. ان الاستغراق في التكتيك ، وفرحة

تحقيق الانتصارات الشكلية أو الجزئية يرشحان احسن الناس نية ليكون ضحية سهلة للتحكم غير المباشر في حركته. وبالتالي فان وسيلة الافلات من هذا الشرك هو التركيز على الاهداف الاستراتيجية في كل مرحلة، وفي كل جزئية. واتخاذها مقياسا حاضرا في كل حين لقياس مدى سلامة أية خطوة. التركيز- مثلا- على هدف استرداد أرض فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ ، سيضرب كل خطط التحكم غير المباشر التي تحاول الولايات المتحدة الأمريكية أن تصل بنا من خلالها إلى الاعتراف بإسرائيل . ان الولايات المتحدة الامريكية لن تطلب من منظمة تحرير فلسطين مثلاً أن تعترف بإسرائيل ، انها حتى لا تعترف بمنظمة تحرير فلسطين ، ولكن .. من مذبحة ايلول عام ١٩٧٠ إلى مذابح لبنان عام ١٩٧٥، جرت وتجري أحداث في أماكن كثيرة من الوطن العربي بقصد أن تختار منظمة تحرير فلسطين بكامل حرية ارادتها الوطنية أن ترسم على الخرائط الحدود الفاصلة بين دولتها " الفلسطينية " والدول المجاورة ومن بينها اسرائيل .

فهل ننتبه ، أم نذهب إلى الهاوية بكامل إرادتنا الوطنية ؟

مقال نشر في جريدة السفير يوم ١٩٧٥/٨/٤

" ارض الوطن "

بين الحرب.. والسلام

ليست الحرب مباراة رياضية بل هي صراع وحشي . ان الذين يسقطون ضحايا في الحروب، ونسميهم شهداء، ونشيد بهم وقد نقيم لهم النصب التذكارية ليسوا "اعداء " بل هم بشر متعددون . لا بد ان يكون كل منهم قد عانى – قبل أن يموت – أفظع الآلام التي يمكن أن يعانيها البشر. ثم انهم بشر من أسر، يموتون ويخلفون لاسرهم مع العزاء النفسي الموقوت الثكل واليتم والحزن وانقلابا لا شك يصيب كل أسرة في اسلوب معيشتها وآمالها بعد ان تكون قد فقدت أحد، أو اكثر عناصرها البشرية. ثم ان هؤلاء البشر، الشهداء، ضحايا الحروب، هم بشر من مجتمع يفقدهم مجتمعهم ويفقد معهم كل ما تدمره أو تخربه أو تبدده الحروب من مصادر للثروات وموارد للتنمية وفرص للتعليم والثقافة وتقدم نحو حياة أفضل . باختصار ان الحرب ليست صراعا وحشيا فقط بل هي أداة تخريب بشري واقتصادي واجتماعي وثقافي..

من هنا تصدق الدعوة إلى السلام ، على أساس ان السلام ، والسلام وحده، هو الشرط الذي لا بد منه للتقدم البشري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، حيث يتفرغ في كل مجتمع لاداء وظيفتهم الانسانية الاصيلة، الصراع ضد ظروفهم المادية لتوظيف مواردهم المتاحة من اجل مزيد من اشباع حاجاتهم المادية والثقافية المتجددة أبدا . أعني تطوير مجتمعهم الى مجتمع الرخاء والحرية. الرخاء والحرية لكل فرد فيهم . وفي ظل الرخاء والحرية تتاح الظروف الموضوعية للابداع الانساني والتقدم الى ما لا نهاية... غير ان استمرار كل هذا يكون متوقفاً على أن تظل الموارد المادية المتاحة في كل مجتمع متاحة له بدون انتقاص . وليس من اللازم أن يكون أي مجتمع في كل زمان عارفا بكامل الموارد المادية المتاحة له، غير ان الانسان المبدع ، القادر، الذي لا يتوقف ولا يمكن ان يتوقف، عن التقدم الاجتماعي كاتجاه تاريخي نام أبدا بصرف النظرعن تعرجاته المرحلية، كفيل ؛ في ظل السلام ، ان يحيط معرفة بكل ما يملك وأن يستثمره استثمارا مطرد التفوق في أدواته ووسائله الى أن يحول كل " ذرة تراب " الى لبنة في بناء الرخاء والحرية. وهذا هو ما فرض على البشرية من قبل ، ويفرض عليها اليوم ، وسيفرض عليها غدا، القيمة المتساوية لكل

ذرة تراب من، "ارض الوطن " فلا تفرط في ، ولا تتنازل عن، شبر من أرض الوطن حتى لوكان الشبر مستنقعا من الماء العفن ، أو كان بقعة مجهولة في فيافي الصحارى التي لم تكتشف بعد ، ويسمون مثل هذا التفريط أو التنازل " خيانة ". وهي ليست " خيانة " لانها هدم أو تعويض لبناء اقتصادي أو اجتماعي أو ثقافي قائم فعلا، وليس من الضروري أن تكون كذلك . انها خيانة ان لم تكن لحياة قائمة متوقفة عليها فلحياة قادمة ستقوم عليها. وبهذا تكتسب " الوطنية " أو " الخيانة " البعد التاريخي الذي يصل ما بين أقصى الماضي وبين أقصى المستقبل . وتصبح أرض الوطن وكل ذرة من ترابه ملكية تاريخية مشتركة بين الاجيال المتعاقبة، وتصبح الوطنية هي الحفاظ لا على ارض الوطن كما هي في زمن معين فحسب بل الحفاظ على بقاء ملكيتها التاريخية للاجيال القادمة، وتصبح الخيانة الوطنية أو الاعتداء على الوطن ليس مجرد حالة قائمة تهدد الوضع القائم، بل حالة قائمة تهدد الوضع القادم، ولهذا يموت الناس، أي يفقدون علاقتهم باوطانهم نهائيا، من أجل الاحتفاظ باستمرارية الوطن للاجيال القادمة.

اذن،

فان الدعوة الى السلام، والسلام الفعلي ، لا يمكن أن يأخذ أحدهما، أو كلاهما، شكلا واحدا في الممارسة ، ذا قيمة واحدة " وطنياً " بصرف النظر عن علاقة السلام بسلامة أرض الوطن. والدعوة الى السلام بصرف النظر عن علاقة السلام بسلامة ارض الوطن دعوة ان لم تكن مثالية منافقة فهى دعوة انهزامية. وممارسة السلام بصرف النظر عن علاقة السلام بسلامة ارض الوطن ان لم تكن استسلاما للهزيمة فهي خيانة وطنية. وبعكس هذا كله، وفي ظروف تاريخية محددة بان ارض الوطن مسلوبة، تصبح الدعوة الى الحرب التي هي دعوة الى القتل، هي الدعوة الوحيدة الصادقة للسلام . وتصبح الحرب التي هي ممارسة للقتل والتخريب هي الممارسة الوحيدة الصادقة " للسلام " .

وعندما يبدأ العدوان لا بد أن يبدأ القتال دفعا له ودفاعا عن أرض الوطن . بكل مقياس ذاتي أو موضوعي، سياسي أو ا قتصادي أو اجتماعي، بكل مقياس وطني، اذا تعرضت ارض الوطن للاعتداء يسقط موضوعيا ، الحديث عن السلام في ظل العدوان ، أو الدعوة اليه سواء كانت دعوة الى الوطنيين أو المعتدين ، أو ممارسته ما دامت " أرض الوطن " لم تتحرر نهائيا، وكل شبر فيها، نقول يسقط " موضوعيا " لان العدوان كظرف موضوعي يجعل من الدعوة الى القتال وممارسته هي الدعوة الوحيدة والممارسة التي لا ممارسة غيرها، الصاد قة " موضوعيا " من أجل السلام .

ليس مفهوم السلام وحده هو الذي يتغير فيصبح قتلا وقتالا عندما تتعرض " ارض الوطن " للعدوان ، بل ان " ارض الوطن " ذاتها تصبح ذات مفهوم جديد . انها في ظرف الحرب ليست ذلك المكان الجغرافي المعبأ بالموارد المادية. الذي يباشر الناس فيه مقدراتهم الا بداعية لتحويل تلك الموارد الى منتجات مادية وثقافية ويحققون فيه الرخاء والحرية . لا. في الحرب تصبح أرض الوطن، مصدراً للتعبئة، ومكانا لحشد القوى وتدريبها، وقواعد ا نطلاق ، " وميدان مناورة وتكتيك وكر وفر ودرعا لتلقي الضربات . أعني تدخل " أرض الوطن " مع أصحابها أتون المعركة عنصرا مؤثرا ومتأثرآ وتكف عن أن تكون مجرد امتداد جغرافي معلوم الحدود. ذلك لأنه عندما يبدأ القتال من أجل تحرير أرض الوطن، تصبح غايته، لا مجرد استرداد مساحة من الارض، بل تدمير وتصفية مصادر وقوى العدوان نهائيأ والى الأبد ليعود السلام، وفي ظل السلام فرص الرخاء والحرية.

فمثلا قد يقتضي " النصر " في معركة تحرير أرض الوطن التخلي عن جزء من أرض الوطن بل وحرقه وتدميره. وقد مارس المدافعون عن الوطن الروسي هذا الاسلوب الناجح في عام ١٨١٢ عندما انسحبوا أمام جيوش نابليون الى ان دخل موسكو فأحرقوا مدينتهم الغالية. وعندما انسحبوا أمام القوات النازية الى أن اقتربت من موسكو . كما مارسه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما أمر بالانسحاب عام ١٩٥٦ حتى يحول دون تطويق قواته من الخلف بالقوات الانجليزية والفرنسية التي أنزلت في بورسعيد...

ومثلا قد يقتضي " النصر " في معركة تحرير أرض الوطن نقل القتال الى ما يتجاوز حدوده ومطاردة المعتدين- أو للوصول الى مراكز تعبئتهم وتدمير وتضييق قواهم وتأمين عدم امكان عودتهم إلى الاعتداء أو الاستمرار في المقاومة. وهذا ما فعلته قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية عندما لم تكتف بتطهير الاراضي التي كان النازيون قد احتلوها ثم التوقف عند حدودهم الوطنية بحجة أن " ارض الوطن " قد استردت بل أقتحموا معقل العدوان " المانيا " وحطموا دولة النازي مرة واحدة وإلى الابد ثم جردوا المانيا من أمكانية العودة الى الاعتداء بأن قسموها الى دولتين....

ننتهي من هذا كله الى نتيجة هامة هي :

في حروب التحرير الوطني لا يعتبر كل تخل عن جزء من أرض الوطن هزيمة أو " خيانة " وكل استرداد لجزء من أرض الوطن انتصاراً أو " بطولة "، انما يتحدد الموقف من ارض الوطن تبعا

وطبقا لمتطلبات تدمير وتصفية قوى العدوان الذي لا بد أن يتم مهما طال الصراع، ولا يتم النصر الا به، حينئذ، حين تصبح القوى المعتدية في حالة عجز كامل شامل دائم عن استئناف عدوانها، تكون أرض الوطن قد تحررت فعلا ويكون النصر قد تم فعلاً.. هذا يعني تماما أن أية دعوة للسلام أو ممارسته قبل أن يتم تحرير أرض الوطن بهذا المعنى ، هو أما قبول للهزيمة أو تخل عن جزء من السيادة الوطنية على أرض الوطن أو منح قوى العدوان فرصة زمانية لتعبىء قواها من جديد وتعود إلى الاعتداء .

كل هذا ينطبق على الصراع العربي ضد الاحتلال الصهيوني ويضبط المواقف الصحيحة عن مسألة الحرب والسلام .

أن الصهيونية قد اعتدت على الارض العربية وأحتلت فلسطين وتجاوزتها إلى مزيد من الارض العربية. والصهيونية منظمة عالمية يقع مركز قيادتها والمجالات الرئيسية لنشاطها . خارج الارض العربية.

ويتسع نشاطها ليتغلغل في كل انشطته على وجه الارض سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية او ثقافية. وهي التي جندت اليهود طواعية وارغاما، وعلمتهم، ودربتهم، ومولتهم، وسلحتهم ونقلتهم الى ا لا رض العربية ليحتلوها . وهي التي اقامت على الارض العربية رأس جسر أسمتها دولة اسرائيل. وهي التي ما تزال تجند وتعلم وتدرب وتمول وتسلح وتنقل اليهود طواعية او ارغاما لدعم التكوين البشري الغريب الذي يجسد احتلالها للارض العربية . وهى التي تستعمل كل ما تملك من مقدرة سياسية وا قتصادية وثقافية " لابتزاز " دول العالم وارغامهم على تجنيد وتعليم وتدريب، وتمويل وتسليح ونقل اليهود من تلك الدول الى اسرائيل . وهى التي تستعمل كل ما تملك من مقدرة سياسية واقتصادية وثقافية لتفرض على كثير من الدول في العالم مواقف الدعم لاسرائيل أو حجب الدعم عن حركة التحرر العربي .

ان المنظمة الصهيونية " المعشعشة " في الدول الاوربية والامريكية ودول أخرى هي مكان حشد وتعبئة قوى العدوان على الارض العربية، وهم ا قدم من اسرائيل . واكبر من اسرائيل وأقوى من اسرائيل . لان اسرائيل ليست الا أداتها .

ان اسرائيل الدولة ليست الا أداة الصدام المتقدمة بين الصهيونية والشعب ا لعربي . ولانها أداة الصدام والتجسيد الحي للاحتلال الصهيوني للارض العربية فان المقاومة العربية قد اتجهت إليها منذ البداية وما تزال تركز نضالها التحرري ضد هذا الكيان الذي يجسد الاعتداء ، غير ان

ضيق الافق الذي لم ير حرب التحرير العربية الا في نطاق ذلك الجزء المحتل فعلا قد حال- دهرا- دون ان ترى القوى العربية جبهة الصراع على اتساعها ، ودون ان تمارس دفاعا ضد مراكز تجميع وحشد وتعبئة القوى المعادية، أي ضد الصهيونية حيث يكون للصهيونية نشاط . هذا في حين انه حتى لو استطاعت القوة الغربية ان تنتزع من الارض دولة اسرائيل فان هذا لن يكون نهاية الصراع. فكما قال احد قادة اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ رداً على سؤال، ماالذي كان سيحدث لو ان العرب استطاعوا دخول اسرائيل واقامة دولة عربية ؟.. قال : كانت حكومة اسرا ئيل ستنتقل الى الخارج لتواصل القتال الى ان تعود... دولة اسرائيل .

المهم . ان رؤيتنا الضيقة لطبيعة الصراع ومداه وقواه حبستنا عند عد اشبار أو اميال الارض المحتلة، ما اخذوه وما استرجعناه، فأخضعنا الحرب واستراتيجيتها وتكتيكها للعامل الجغرافي وحده واصبح صراعنا من اجل ان " نسترجع ارض الوطن " لا من اجل " تحرير ارض الوطن "٠ الاول استرجاع مادي مؤقت تحت ظل التهديد بالغزو مجددا ، والثاني تصفية لاسباب العدوان، وتحرير ارض الوطن من مخاطر الاعتداء عليها مرة أخرى ... ان الرؤية العربية غير الواقعية، أي التي لا تحيط بواقع الصراع وحقيقة قواه ، هي التي مكنت قوى العدوان من ان تلتقط انفاسا في هدنة ١٩٤٨ لتعود فتستولي على مزيد من الارض، هى التي مكنتها من ان تعد عدتها ثم تعود للاستيلاء على الارض منزوعة السلاح وتقيم لها ميناء على خليج العقبة، هي التي مكنتها بأن تأخذ الوقت الكافي للاعتداء على سيناء سنة ١٩٥٦، هي التي مكنتها لتبدأ سنة ١٩٥٧ للتعبئة والتدريب والاستعداد لتنفيذ خطة العدوان الذي وقع سنة ١٩٦٧، هي التي مكنتها من ان تعيد تنظيمها داخليا وتعوض ما خسرته في حرب ١٩٧٣ استعدا دا لاعتداء جديد، بل للبقاء على الارض التي احتلتها سنة ١٩٦٧ .. ذلك لاننا في كل مرة كنا ننظر تحت أقدامنا لنعد ونقيس الا شبار والامتار التي تقهقرنا عنها او تقدمنا اليها.. متصورين خطأ أن " ارض الوطن "- في خلال الحرب- هي قيد على حركة قتالنا وليست جزءا من أدوات ذلك القتال...

وتكاد هذه الرؤية الضيقة أن تقود خطانا إلى المأزق في استكشاف فرص السلام . لا شك في انه ما دامت حالة الحرب قائمة فان النشاط القتالي أو التوقف عنه مؤقتا، التقدم أو التقهقر، صوت المدافع أو صوت الدبلوماسية لا يتناقض- اذا توافرت اسبابه الموضوعية- مع استمرار الصراع . واسبابه الموضوعية قد تكون أي شيء الا " اليأس " من النصر، أي " اليأس " من تحرير أرض الوطن، لان اليأس عنصر ذاتي وليس عنصرا موضوعيا. ومن اليأس انهاء حالة الحرب وممارسة السلام قبل ان تتحرر أرض الوطن، اي قبل ان تدمر وتصفى قوى العدوان ..

ومع ذلك، فانها هي الدول الكبرى تعرض علينا السلام بدلا من الحرب. وتقدم تلك الدولة من مقدرتها على الحيلولة دون العدوان ضمانا تقول انه يغني عن القتال . ويدور الحديث ويذهب السيد كيسنجرويجيء " كالماكوك "، وتبارك كثيرا من الدول مساعيه من أجل السلام، ومطلوب من العرب انهاء حالة الحرب...

ولكنهم، يستغلون رؤيتنا الضيقة للصراع مداه وقواه ، ويقيسون فرص السلام بالاشبار والامتار أو الاميال من ارض الوطن . وأسترداد كل شبر من ارض الوطن امر لا بد منه، والتخلي عن اي شبر من أرض الوطن خيانة، ومع ذلك يبقى الفيصل بين الحرب والسلام هو تحرير أرض الوطن بتصفية قوى العدوان عليه وليس مجرد الزحف الى الحدود الوطنية. فما الذي تقدمه الدول الكبرى أو الصغرى ليغرينا بالسلام بديلاً عن الحرب..؟

في ارض فلسطين يقدمون لنا بعض الارض ثمنا لبعض الارض.

وهكذا تتحول معارك التحرر الوطني الى مساومة على " ارض الوطن ". ان ما يقدمونه في الضفة الغربية او غزة ارض عربية ان يتخلى عنها العدو وتعود إلى اصحابها، نحن. ولكن هذا لا يعني ان ما بقي من فلسطين محتلا ليس ارضا عربية من حقنا نحن . انهم يقدمون لنا " رشوة " من أموالنا ذاتها، نقبض شيئا لنفقد شيئا آخر. والشيء هنا هو ذلك الشيء الذي لا يملك أحد المساومة عليه أو التنازل عنه أو التفريط فيه. انه أرض الوطن .

وفي غير ارض فلسطين يقدمون لنا ارضنا بدون سيادة . أرضآ تكون " مقيدة " باسمنا في سجل الدولة، نرفع عليها رايتنا ولكن لا نقيم فيها ولا نستثمرها ولا نوظفها من اجل تقدمنا لانها ارض "منزوعة السلاح "، اي مجردة فمن يحميها. كأن ارض الوطن مجرد موضوع لملكية فارغة وليست مصدرآ للحياة. ومن هم اولئك الذين سيذهبون للحياة في أرض مجردة عمن يحميهم من الاعتداء الممكن المتربع قريبا منهم .

ثم تقدم لنا تلك الدول ارادتها ضمانا لتحرير ارض الوطن . وقد تكون ارادتها صادقة لاتفاق مصالحها " الحالية " مع انهاء القتال في منطقة النفط العربي ، ولكن اي ضمان تقدمه تلك الدول ضد مخاطر المستقبل . مستقبل تكون مصالحها متفقة فيه مع ردع العرب عن التقدم الى الوحدة مثلا، أو الاشتراكية مثلا. انه مستقبل يبدو من الان غير مضمون فان الولايات المتحدة الامريكية تهددنا علنا بالغزو عندما تقرر هي ان اقتصادها وصل الى تلك المرحلة الغامضة مرحلة تسميها "الاختناق ".

اكثر من هذا وافدح..

ان تلك الدول التي تساومنا على السلام مع اسرا ئيل . واسرا ئيل ليست ألا رأس جسر الصهيونية، هذا في الوقت الذي تسمح بأن توجد على أرضنا وتنشط المنظمة الصهيونية التي هي مركز تجنيد وتعبئة القوى المعتدية. الولايات المتحدة الامريكية ودول اوربا تسمح للقوى المعادية للأمة العربية بأن تقيم على أرضها مؤسسات وتدير نشاطات غايتها تجنيد وتعبئة وتدريب ونقل المعتدين إلى الارض العربية والاتحاد السوفياتي يستجيب- في هذه الخصوصية وحدها- للابتزاز والضغط الصهيوني ويسمح لرعاياه " بحق " التخلي عن انتمائهم اليه، وهو مفهوم ليبرالي لا يتفق مع ابسط قواعد الماركسية وهو يعلم انهم يتخلون عن مواطنتهم السوفيتية لتجندهم الصهيونية وتعبئهم وتدربهم وتنقلهم الى الارض العربية، دعما للعدوان على " ارض الوطن "...

ثم يدعوننا جميعا الى السلام . امريكا تقدم السلام خطوة خطوة. والاتحاد السوفياتي يريدنا ان نحضر صفقة السلام دفعة واحدة في جنيف. وهو من هنا ومن هنا سلام زائف لا علاقة له بسلامة " أرض الوطن " وطننا، حتى لو كان فيه قدر موهوم من سلامة ارض اوطانهم . ان الشيء الوحيد الذي يمكن ان يقنع الشعب العربي بان تلك الدول تريد السلام لنا، ولا تشتري سلامة ارضها بأرضنا هو- على الاقل- ان تمنع وتصفي قوى العدوان علينا التي تقيم على أرضها وتعبىء رعاياها وتبتز اموالها- ان اية دولة تبيح للصهيونية ان تنشط في ارضها متنازلة عن سيادتها ذاتها، أو تخضع للضغط الصهيوني متنازلة عن حق رعويتها، انما هي فعلا، وموضوعيا، تساهم في تعبئة قوى العدوان على الامة العربية وفي ظل هذا المسلك لا تكون كلمة السلام منها صادقة، بل تكون استدراجا لنا باسم السلام لننهي حالة الحرب، لنكف عن معركة تحرير ارضنا، لندفع من "ارض الوطن " الغالي ثمنا لسلامة الدول وفرصة لتعد الصهيونية العدة من جديد لاقامة دولتها على الارض العربية من النيل الى الفرات..

وهذا لن يكون .

مقال نشر في جريدة السفير يوم ١٩٧٥/٤/١

الصهيونية.. في العقل العربي

مقدمة

كانت احدى المجلات العربية تتضمن في- كل عدد شهري مقالا بعنوان " على السفود "، وبتوقيع "ابو ذر" وكان صاحب التوقيع المستعار لا يكف، في أي مقال، عن الحديث الى الشباب العربي عن مخاطر جسيمة كان يتوقعها. كان يحذر وينذر تكاد كلماته أن تشعل النار في صفحات المجلة. كان ذلك في عام ١٩٧٤- ١٩٧٥. تلك الفترة الزمنية التي قيل ان منظمة تحرير فلسطين . والدول العربية قد حققت فيها أروع انتصاراتها على المستوى الدبلوماسي . عام اتفاق رؤساء الدول العربية على ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . عام تعهد الرؤساء العرب ، وقبول منظمة التحرير، أن يكون القول في شأن فلسطين من شأن منظمة التحرير الفلسطينية. عام حضور قيادة الثورة جلسة هيئة الامم والخطاب التاريخي لابي عمار.. عام الاعتراف المتزا يد من قبل الدول والمؤسسات الدولية بالشعب الفلسطيني ومنظمته القائدة . عام قلنا فيه اننا قد" صدرنا الهزيمة والتمزق الى اسرائيل " ...

ولقد كانت كل تلك مكاسب حقيقية. اعني انني كنت أراها كذلك . وبالتالي كنت أرى انه ليس رفضها من الحكمة في شيء ، أو من الثورية في شيء . ولكن الجزع والفزع من المستقبل كان يتراكم في نفسي مع كل مكسب جديد . ذلك لانني كنت أرى معالم " الرشوة " في كل ما قدمه العالم لنا على المستوى الدبلوماسي . كان عربونا لثمن أرض فلسطين ذاتها وكانت المشكلة الاساسية، في تصوري؟ هي كيف نقبض العربون ولا نبيع فلسطين . فبدأت، في ذلك العام نفسه، وعلى مداه، أكتب أسبوعيا ما يمكن أن يكون رسائل موجهة الى الشعب العربي عامة، والى المناضلين من الشعب العربي الفلسطيني خاصة، تحت عنوان موحد هو : " التقدم على الطريق المسدود "، غيّرت جريدة " السفير " البيروتية عناوين الرسائل ، ولكني كنت اكتب اليها تحت هذا العنوان معبرا، أو محاولا التعبير عن المأزق : انهم يفتحون للثورة سبلاً تتقدم عليها أو أنهم يتركونها تتقدم بدون مقاومة على الصعيد الدبلوماسي والدولي . وعليها أن تتقدم بصرف النظر عن نوايا أعدائها أو اصدقائها. ولكنهم يعدون لها على سبيلها سدا يقطع مسيرتها، فعلى الثورة ، وعلى الشعب العربي المساند لها، أن يعد نفسه وقواه لمرحلة الارتطام بالسد أو تجاوزه.. وقلت بصريح العبارة، ان السد الذي ستكتشف الثورة أنه يقف على طريقها. ويقطع مسيرتها سيكون

مبنيا من أرادات كل الدول التي تتعاطف معها في ذلك الوقت، أو ترشوها، وعلى رأسها الدول العربية. عام كامل نحذر وننذر بكلمات تكاد أن تشعل النار في صفحات الجريدة .

وفي اواخر عام ١٩٧٥، حين فطن الراشون إلى أن الثورة الفلسطينية تأخذ ولاترتشي، أو هكذا كان موقفها المعلن، بدأت محاولة ارغامها على اتمام الصفقة بقوة السلاح في لبنان . وفي أواخر عام ١٩٧٥ أيضا وقعت اتفاقية سيناء الثانية، وكان ما كان من تلك المرحلة التي أسميها مرحلة " تل الزعتر". وان كانت المذبحة خاتمة لها...

في ذلك الوقت غرق ابو ذر في ظلمات اليأس، وودع قراءه ، في عدد مجلة الشورى الذي صدر أوائل اكتوبر ١٩٧٥، تحت عنوان " مأساة ابو ذر ".. قال :

" يؤمن أبو ذر أيمانا مطلقا بأن الاكتفاء بالحديث عن الحرية والوحدة والا شتراكية والثورة العربية وفلسطين المغتصبة ... الخ، قد اصبح عارا وضراراً، وبأن قد سقطت قيمة الكلمات اذ انتهكت مضامينها، وا هترأت الفاظها، فالحرية عبودية ، والوحدة انفصال ، والاشتراكية استغلال ، والثورة العربية استرخاء على صفحات المجلات في حفل المبارزات الكلامية... وفلسطين المغتصبة قد حملت سفاحا. ووضعت خيانة... هكذا يؤمن أبو ذر. ولكنه- وهذا جوهر مأساته- عاجز عن تجسيد هذا الايمان الا بالكلمات المرصوصة على الورق يبذل فيها جهداً ضائعا. ويتقزز ابو ذر من الشعور الزائف بالرضى عن النفس الذي يتلو رص الكلمات . ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يدين الكلمات الكبيرة الا بكلمات اكبر. لا يستطيع أن يحارب العار الا اذا شارك فيه. لا يستطيع أن يلتزم افكاره الا اذا القاها. من يعرف منكم عذابا اكثر هولاً من هذا العذاب فليقل عسى أن يكون فيما يقول عزاء.. أما الذين لا يعرفون فليصلوا من أجل أبي ذر عسى أن يمنحه الله بعض شجاعة الغفاري فيصمت أو يعتزل.. "

قال هذا ثم كف عن الكتابة. وما ان كف حتى كففت عن الرسائل انشئها تحت عنوان : " التقدم على الطريق المسدود " . لماذا ؟ لنفس الاسباب التي شكلت مأساة ابي ذر. ذلك لأن ابا ذر، وأنا لم نكن إلا شخصاً واحداً ، احس بالخطر القادم فحذر فانذر فلما بلغت الامور حدا لا تجدي معه الكلمات صمت واعتزل حفاظا على بقية من شرف الصدق مع النفس .

من قاع الصمت تلقيت الدعوة الى الحديث اليكم . وقيل لي. تحدث عن " الصهيونية والفكر العربي". أعودة مرة أخرى الى الكلمات الكبيرة الرنانة الطنانة المحذرة التي استهلكنا فيها طاقتنا حتى كادت تحل بنا الهزيمة النهائية. كلا. فوق طاقتي أن اعتذر عن دعوة الحديث الى

شباب هذه الامة، ولكن فوق طاقتي أيضا ان اعود فأستهلك معاني استهلكت فعلا. فما الذي سأتحدث فيه تحت عنوان " الصهيونية والفكر العربي " ؟..

سأحدثكم حديثا تقريريا. لن أحذر من شيء. لن اعود الى شيء. فكفى جيلنا عارا دعوة الشباب الى ما لا يستطيع هوأن يوفي بمسؤولياته، وما استطاع أن يوفي قط بذات دعوته ودعاويه. ولكني سأحدثكم حديثا غايته أن تكونوا على يقين من أن الصهيونية توشك ان تنتصر انتصارها النهائي، اعني ان امتنا العربية توشك أن تنهزم هزيمة نهائية ، أعني ان فلسطين توشك أن تضيع نهائيا... على ايدي جيلنا الغبي التعس ، وان مصير الامر كله، أمر الصهيونية، وأمر الامة العربية، وأمر فلسطين.. قد اصبح متوقفا على شباب هذه الامة من الجيل الجديد؟ عليكم انتم... وان عليكم أن تقرروا ما تريدون وتحققوه ان اردتم، وعسى ان لا تستهلكوا قواكم في الكلمات الكبيرة التي استهلكنا فيها قوانا... فان لم تفعلوا، فلا حول ولا قوة الا بالله .

فلنبدأ الحديث بعد مقدمته الحزينة.

ما الصهيونية :

في البدء كانت الصهيونية نظرية ، اصبحت استراتيجية بالعناصر الثلاثة لكل استراتيجية : التنظيم- الخطة- الهدف. ثم اصبحت الصهيونية مواقف وحركة ومعارك تكتيكية. ولا يعني - قولنا ان الصهيونية كانت ثم اصبحت انها قد انتقلت من مرحلة انقضت الى مرحلة جديدة ، بل يعني انها قد نمت واضيف الى مضمونها الفكري مضمون استراتيجي ثم مضامين تكتيكية. فهي نظرية على المستوى الفكري . وهي تنظيم ذو خطط وأهداف محددة على المستوى الاستراتيجي وهي حركة جزئية أو مرحلية، فكرية أو عملية، فردية أو جماعية. على المستوى التكتيكي، وكلها صهيونية.

ويكون من المفيد لنا ، نحن العرب حين نتحدث عن الصهيونية أو نستمع الى حديث عنها ، حين نواجهنا أو تواجهنا. أن نعرف ونحدد المستوى الصهيوني الذي يدور عليه الحديث أو تجري عليه المواجهة. قلت مفيدا، واقول انه حيوي . اعني ان هذه المعرفة بمستويات الصهيونية، والاستفادة بها مسألة حياة أو موت بالنسبة الينا نحن العرب. بحيث ان أي خلط أو خطأ ، أي جهل أو تجاهل، لمستويات الصهيونية قد يؤدي- في صراعنا معها- الى هزيمتنا هزيمة لا نعرف كيف وقعت. وافدح الهزائم واكثرها تدميرا هى التي لا يعرف المهزوم فيها كيف وقعت .

ترجع هذه الحيوية الى سببين متكاملين :

السبب الاول: ان مستويات الصهيونية ، مثل مستويات أية حركة سياسية أخرى ، يحكم بعضها بعضا ويحدده. فالنظرية هي المبدأ والمقياس الثابت . فهي تحكم الاستراتيجية وتحددها.. بمعنى ان الاستراتيجية، مهما تعدلت خططها . أو حتى تغيرت، لا تستطيع أن تفلت " من اطار النظرية، وستبقى غايتها دائما تحقيق الهدف الذي حددته تلك النظرية. ثم ان الموا قف الفكرية او الحركية، الجزئية أو المرحلية، الفردية أو الجماعية. السلمية أو العنيفة، التي تقع على مستوى التكتيك تكون- محكومة بالاستراتيجية طبقا لهذا يكون من الحيوي بالنسبة إلينا ، حين نتحدث عن الصهيونية أو حين نواجهها أن نميز بين تلك المستويات الثلاثة، ثم نتعرف أين يقع الحديث أو المواجهة منها، ثم أن نكتشف، بالرغم من كل تمويه، حقيقة الموقف التكتيكي برده إلى الخطة الاستراتيجية لنعرف على أي وجه يخدمها . ثم نراقب الاستراتيجبة ونتتبه الى ما قد يصيبها من تغيرات لا بد لها من أن تكون اكثر ملاءمة، عند اصحابها، لتحقيق الهدف. فاذا غم علينا الامر رددناه الى النظرية.. اذ هي المصدر الاول لكل حركة والمقياس الاخير لكل موقف.

السبب الثاني : ان مستويات الصهيونية، مثل مستويات أية حركة سياسية أخرى ، تتراكم وتتراكم متجهة من الفكر المجرد الى الواقع العيني . من النظرية الى الاستراتيجية الى التكتيك حيث تدور المعارك الفعلية متنوعة المضمون متنوعة القوى متنوعة الاسلحة. ولكن خط الانتصار، أو الهزيمة يتجه- بالعكس- من الواقع العيني الى الفكر المجرد. يتم النصر أو الهزيمة على المستوى التكتيكي، وبتراكمه تهزم الاستراتيجية أو تنتصر، ولكن النصر النهائي، أو الهزيمة، لا تتم الا بهزيمة النظرية ذاتها، أي حين لا تجد أحدا يقتنع بها وينطلق منها الى استراتيجية جديدة، أو بانتصار النظرية ذاتها حين يتمكن الطرف المنتصر تكتيكيا واستراتيجيا من صياغة الواقع طبقا لنظريته. وبناء على هذا يكون من الاخطاء القاتلة لاي طرف أن يحسب النصر التكتيكي نصرأ استراتيجيا أو يحسب النصر الاستراتيجي حسما نهائيا للصراع وبالعكس ان يعتبر الهزيمة التكتيكية هزيمة استراتيجية أو يعتبر الهزيمة الاستراتيجية حسما نهائيا للصراع .

في عام ١٩٦٧ أدرك جمال عبد الناصر مستوى الهزيمة بالرغم من جسامتها، وقدم مثالا رائعا للقائد الذي يعرف طبيعة المعارك التي يخوضها، فبعد. شهرين فقط من الهزيمة الجسيمة رفع شعار"ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة " وشعار " لا مفاوضة ، لا صلح ، لا اعتراف " . وفي العام ذاته سئل وزير خارجية الصهاينة، ابا ايبان ، عما كانت الصهيونية ستفعل لو نجح العرب في

تدمير اسرائيل فقال : كنا سنبدأ من جديد لاقامة دولة اسرائيل . وكان كلاهما يعبران عن السمة التكتيكية للنصر الصهيوني و الهزيمة العربية عام ١٩٦٧.

الصهيونية نظرية :

الصهيونية نظرية في القومية. تقول : ان اليهود أمة. ولا بد أن ننتبه الى هذا المفهوم الصهيوني للامة والقوية، أولاً : لان معرفته معرفة واضحة هي الضابط النهائي للمواقف الصحيحة من الصراع العربي الصهيوني . وثانيا لأن مشكلة الامة والقومية مشكلة قائمة في الوطن العربي على المستويين الفكري والحركي . أي اننا - على وجه - نستعمل في حديثنا عن الامة العربية ومستقبلها ذات الالفاظ التي يستعملها الصهاينة عن الامة اليهودية ومستقبلها. وقد يؤدي هذا الى أن تختلط في اذهاننا المفاهيم فنتصور أن لنا ولهم نظرية واحدة في الامة والقومية .

اليهودية دين كما نعلم . واليهود هم من يؤمنون بذلك الدين . ولما كان الايمان بالدين، أي دين، لايتوقف على الجنس أو اللون أو اللغة أو الانتماء الاجتماعي ، فهو انتماء مفتوح لكل من يؤمن، فاننا نستطيع ان نتبين بسهولة أن اليهود، لمجرد انهم يهود، لا يكونون أمة. والوا قع انه لا توجد في التراث العالمي كله، على كثرة ما فيه من نظريات في الامة والقومية، نظرية تقول أن اليهود أمة الا النظرية الصهيونية . فالامة في الصهيونية لا تحتاج في تكوينها التاريخي الى وحدة الدم أو الجنس أو اللغة أو الارض أو الحياة الا قتصادية.. بل يكفي لتكوين الامة الانتماء الديني وما يولده من قرابة روحية تميز بين اليهود وبين غيرهم من الأمم .

وتختلف هذه النظرية اختلافا أساسيا عن مفهوم الامة والقومية في الفكر العربي الحديث. حيث الامة " مجتمع ذو حضارة متميزة من شعب معين مستقر على أرض معينة خاصة ومشتركة تكون نتيجة تطور تاريخي مشترك ". ويدخل في هذا التعريف كل ما تعلمناه من مميزات الامة كاللغة أو الثقافة أو الدين- فتلك عناصر التكوين الحضاري وهي تختلف من أمة الى أمة تبعا لظروف التطور التاريخي الذي كوّنها. أما عن المصالح الاقتصادية المشتركة فهي متوافرة في كل مجتمع حتى لو لم يكن أمة. وأما الحالة النفسية المشتركة والولاء المشترك... الخ . فتلك معبرات في الافراد عن وعيهم الانتماء الى أمة قائمة، ولكن الوجود القومي، الامة، لا يتوقف عليها على أي حال فان الفارق الاساسي بين النظرية الصهيونية والنظرية العربية في الامة هو الاختصاص بالارض والتفاعل معها حضاريا.

الصهيونية استراتيجية:

للاستراتيجية عناصر ثلاثة : الاداة - الخطة- الهدف .

(١) أما الاداة الصهيونية، فهي المنظمة الصهيونية، وليس مؤسستها السياسية المسماة اسرائيل كما قد يتبادر الى الذهن . الصهيونية منظمة هي التي جمعت الصهاينة وحشدت جهودهم من أجل هدفها. وهي التي بدأت بالغزو السلمي قبل ١٩٤٨ لارض فلسطين في شكل الهجرة وشراء الاراضي، وهي التي عبأت ودربت وسلحت قواها استعدادا للغزو المسلح . وهي التي غزت ثم اقامت دولة اسرائيل على قطعة محدودة من الارض العربية. وهي التي تقف وراء اسرائيل وتستخدمها كقاعدة انطلاق الى دولة اسرائيل الكبرى التي تمثل هدفها النهائي . ومن هنا ندرك ، أو ينبغي أن ندرك، ان القول الفصل في مصير الصراع العربي الصهيوني ليس ما تقوله أو تفعله أو تقبله اسرائيل القائمة، بل ما تقوله أو تفعله أو تقبله الصهيونية المنظمة على المستوى العالمي. والواقع ان اسرائيل ليست الا المشروع المصغر للهدف الصهيوني . وهي لا تمثل، من بين ادوات الغزو الصهيوني، اخطرها وا قواها تأثيرا، فيجاورها، ووراءها، واقوى منها أثرا تلك القوى العالمية التي عبأتها الصهيونية المنظمة من دول وجماعات وأفراد وأفكار وأموال واعلام لتدعم قوة اسرائيل، ثم تمد لها الارض العربية حتى تتقدم عليها بأقل خسائر ممكنة.. وقد تجنح حكومة في اسرائيل الى السلام، وقد تقبل التخلي عن التوسع، ولكن هذا لن يكون، عند المنظمة الصهيونية، الا استسلاما أو خيانة من حكام الدولة القاعدة ، ولن تلبث الصهيونية أن تغير من تشكيل الحكم في دولتها الصغرى لتستأنف مسيرتها الى دولتها الكبرى .

(٢) أما الخطة الاستراتيجية الصهيونية فتتميز أساسا بأنها عدوانية. ذلك لانها، بحكم الفارق بين منشأ القوة وهدفها، لا بد لها من أن تكون هجومية. قد تقف اسرائيل موقفا دفاعيا. وقد تتقهقر ولكن هذا لن يكون الا موقفا تكتيكيا في معركة تكتيكية في نطاق استراتيجية هجومية عدوانية اصلا. وهو ما يعني تماما انه بعد أي توقف أو تقهقر لا يملك الصهاينة، وأداتهم اسرائيل ، الا أن يعودوا الى الهجوم الى أن يتحقق هدفهم الاستراتيجي أو الى ان تهزم الصهيونية نهائيا . فهي اذن استراتيجية هجومية عدوانية . هجومية منسوبة الى الصهاينة. عدوانية منسوبة الينا نحن العرب .

(٣) أما الهدف، فقد حددته النظرية على وجه لا يستطيع أي صهيوني أن يحيد عنه أو يتوقف دونه ويبقى صهيونيا. وتمكن صياغته على الوجه الاتي : ما دام اليهود أمة فان من حقهم

ان يفعلوا ما تفعل كل الامم، وأن يعاملوا كما تعامل الامم . ومن حق الامم أن تقرر مصيرها بنفسها مستقلة عن أية أمم أو شعوب أخرى . وهو ما يعني أن تكون لها دولتها القومية. والدولة لا تقوم الا من شعب معين على أرض معينة. أما الشعب المعين فهو كل اليهود أيان كانوا من اطراف الارض . عليهم أن يجتمعوا على أرض دولتهم . أما عن الارض المعينة، فهم يقرأون في كتاب يسمونه التوراة، وهو كتاب ظهر لاول مرة في عهد الملك يوشا بعد" وفاة موسى بن عمران بسبعة قرون كاملة (سفر الملوك الثاني- ١ صحاح ٢٢) . يقرأون " لنسلك أعطى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات " (سفر التكوين اصحاح ١٥ آية ١٨)٠ الا انها ارضهم تاريخيا؟.. لا. يقرأون وعد، " يهوه " لاسرائيل بان سيقوده : " الى مدن عظيمة لم تبنها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وآبار محفورة لم تحفرها، وكروم زيتون لم تغرسها " (سفر التثنية- اصحاح ٦- آية ١١). وماذا عن سكانها واصحابها؟.. يقرأون : " اني ادفع الى ايديكم سكان الارض فتطردهم من امامك " (سفر الخروج- اصحاح ٢٣ آية ٢٢) .

وهكذا نعرف ما يعرفه الصهيونيون، وهو أن هدفهم الاستراتيجي الاستيلاء على أرض عربية تمتد من نهر النيل الى نهر الفرات، واخلاؤها من سكانها ليقيم فيها يهود العالم كله دولتهم القومية.

الصهيونية تكتيكا:

لا يمكن حصر المواقف والاساليب والمراحل التكتيكية التي تترجم الخطط الاستراتيجية. ذلك لانه على المستوى التكتيكي تدور المعارك الفعلية ويلتحم المتصارعون وتتعدد الاطراف المشتركة بحيث لا يستطيع أي طرف أن ينفرد باتخاذ موقف تكتيكي غير متأثر بالموقف المضاد، ولا أن يستعمل سلاحا بعيدا عن قياس مضائه على مضاء الاسلحة التي يواجهها. باختصار يمثل المستوى التكتيكي الميدان المرن للمناورة وفيه تتجلى كفاءة المقاتلين ، لا في القتال فقط ، ولكن في المقدرة على مواجهة المواقف الطارئة : والملاءمة بين حركاتهم وحركات القوى المضادة.. وتتوقف المقدرة الى حد كبير على الادراك الثابت للتناقض بين الخطط الاستراتيجية للمتصارعين حتى يستطيع كل مقاتل أو مشترك . في الصراع أن يطور من اساليبه التكتيكية بأقصى قدر من المرونة، ولكن بحيث لا تنتقل اساليبه من مجال خدمة استراتيجيته الى مجال خدمة استراتيجية العدو . فيكون قد هزم نفسه.

ومع ذلك فلا بأس من أن نقول ان حكماء صهيون قد اطلقوا حركة الصهيونية من أية قيود انسانية أو خلقية من اول القتل الى الكذب وقالوا يوصون أبناء صهيون : " اضربوهم وهم يضحكون، اسروقهم وهم لاهون ، قيدوا أرجلهم وأنتم راكبون ، ادخلوا بيوتهم واهدموها ، تسللوا إلى قلوبهم ومزقوها " .

الهزيمة والاستسلام :

طبقا للمقاييس التي ذكرناها تحقق الصهيونية هدفها باحدى طريقين : هزيمة العرب أو استسلامهم. اما بالاستيلاء على الارض العربية عنوة وإخلائها من البشر واقامة دولة اسرائيل عليها، واما تخلي العرب عن الأرض وتركها لهم خالية ليقيموا عليها دولتهم . ولا نقصد من قولنا خالية الا يوجد فيها عربي على الاطلاق ولكن نقصد ألا يقيم فيها إلا العربي الذي تقبل اسرائيل إقامته . ذلك لأنه لا يخفى أن دولة اسرائيل ستكون في حاجة إلى بشر من الدرجة الثالثة يعفون ابناءها من عبء العمل المرهق أو العمل القذر وكمذيعين على موجات البث باللغة العربية وجواسيس أيضا .

المهم انه نتيجة الخلط المضطرب في المفاهيم والمواقف في المرحلة الحالية أصبح من اللازم التفرقة بين الهزيمة والاستسلام .

ان الهزيمة هي التخلي عنوة عن هدف تكتيكي أو استراتيجي. أما الاستسلام فهو قبول التخلي عن هدف تكتيكي أو استراتيجي بدون صراع . وقد يبدو الفارق بينهما دقيقا على المستوى التكتيكي . اذ قد يتم الانسحاب بدون قتال من موقع تكتيكي نتيجة لتقدير القيادة لموازين القوى ، وتجنب خسائر محققة. هذا ليس استسلاما ولكنه مناورة، واحدة من فنون الصراع التي يجيدها الراسخون في علم الصراع وفنونه. وقد تكون مناورة الانسحاب، والتخلي عن الارض، بل حرقها وتدميرها، ابرع تكتيك يخدم الهدف الاستراتيجي . كما فعل الروس مرتين امام نابليون وهتلر. وفي صراعنا مع الصهاينة أعني الصراع العسكري ، هزمنا عام ٩٤٨ ١، وعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ وهزمناهم عام ١٩٧٣، وكانت كلها معارك تكتيكية. في عام ٩٤٨ ١ و٩٦٧ ١ تخلى كثيرون من الشعب العربي في فلسطين عن الارض وغادروها وكان ذلك يبدو استسلاما، ولكن حين تحول الشعب العربي الفلسطيني خارج الارض المحتلة الى منظمات مقاتلة وبدأ القتال اقتحاما اصبح من الممكن القول بان الهجرة تمثل انسحابا تكتيكيا وليس استسلاما. وحين أمر الرئيس عبد

الناصر بسحب الجيش المصري من سيناء عام ١٩٥٦ حتى لا تطوقه القوات الانجليزية والفرنسية الهابطة خلف منطقة القتال كان انسحابا تكتيكيا وليس استسلاما... وهكذا.

ولكن الفارق بين الهزيمة والاستسلام يبدو واضحا حين تقع الهزيمة على المستوى التكتيكي فيتم التراجع على المستوى الاستراتيجي، أو حين تقع الهزيمة على المستوى الاستراتيجي فيتم قبول وتبني نظرية المعتدين . وهو هنا استسلام لانه ليس النتيجة اللازمة للهزيمة. فليس من شأن الهزيمة في المعارك التكتيكية، اعني الجزئية أو المرحلية، ان تحسم المعركة على مستواها الاستراتيجي، وبالتالي يكون الترا جع الاستراتيجي غير مبرر، أي تراجعا بدون صراع أي استسلاما. كما ان الهزيمة حتى على المستوى الاستراتيجي لا تعني ان الصراع قد حسم وانما يحسم فقط حين يتبنى المنهزمون نظرية المنتصرين . واروع مثال على كل هذا معارك العرب ضد الغزو الصليبي. انهزم العرب في أكثر من موقعة تكتيكية ولكنهم لم يسلموا أبدا بحق الصليبيين في احتلال الارض العربية. وحتى حين انهزموا استراتيجيا حين قامت الممالك الصليبية على الارض العربية، لم يقبلوا ابدا، ولم يتبنوا النظرية الصليبية، فلم يلبثوا، ولو بعد حين ، أن حرروا الارض وهزموا اعداءهم. ومثاله الاخر حركات التحرير الوطني في العالم كله . بذرة نموها التي لم يصبها العفن أبدا، هو رفض النظرية الاستعمارية، نظرية تحضير العالم اوربيا، نظرية تفوق الرجل الابيض ورسالته الحضارية الى البشر... ومن هذه البذرة، وبعد قرون من العجز المادي عن المقاومة، واتت الظروف فنبتت البذرة ثورات لم تلبث أن انتصرت .

أليس هذا واضحا؟.

فما الذي يحدث الان في العالم العربي .

الاستسلام الوشيك :

هزمتنا الصهيونية عام ١٩٤٨ واحتلت جزءا من فلسطين . وهزمتنا عام ١٩٥٦ وخرجت من المعركة مستولية على مياهنا الاقليمية في خليج العقبة. وهزمتنا عام ١٩٦٧ واستولت على سيناء والضفة الغربية والمرتفعات السورية. وفي مقابل هذا كنا ندرك ان تلك هزائم تكتيكية ونعد العدة لاستئناف المعارك . تحول شباب اللاجئين الى مقاتلين واقتحموا حدود وطنهم . وتقدم العرب الى القائد الذي انهزم يعوضونه ماليا عن دخل القناة ، ويتعاهدون معه على " لا مفاوضة ولا صلح ولا اعتراف ". ومن مرحلة الاعتراف بالخطأ بدأت خطى التصحيح . وعبأت اكثر من دولة عربية كل قواها المادية والبشرية لاعادة انشاء الجيوش التي سحقتها الهزيمة، واستؤنف القتال تحت اسم

حرب الاستنزاف بعد اقل من ستة اشهر من الهزيمة. ونسجت القيادة العربية خيوط علاقاتها الدولية على أساس ان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة. وحين جد القادة لم يخذلهم الشعب وجاءت لحظة الاختبار التاريخي حين واجه جنودنا جنود الصهاينة في فرصة متكافئة ، وانهزم الصهاينة في معركة تكتيكية أيضا... ولكنها امدتنا بأقوى اسلحة النصر النهائي : الثقة في اننا نستطيع أن ننتصر.

بكل منطق قومي أو وطني أو علمي أو حتى نفسي.. كان ذلك يعني اولا : ان يدرك العرب ان نصر اكتوبر ١٩٧٣ كان نصرا في موقعة تكتيكية، لم يحسم الصراع بين العرب والصهيونية على المستوى الاستراتيجي، ولكنه مهد لحسمه لصالح العرب. ثانيا: الا يتركوا للعدو فرصة التقاط انفاسه واسترداد قواه والتحول من الدفاع الى الهجوم . ثالثا: ان يحتفظ القادة بالثقة بالنصر التي قدمها اليهم الجنود بعد ان اشتروها بدمائهم الغالية... رابعا: ان يكمل العرب ما ينقصهم من عناصر القوة فيضيفوا الى خططهم التكتيكية الجزئية المرحلية خطة استراتيجية، شاملة بعيدة الامد.. خامسا: أن يكتشف العرب من خلال عناصر النصر الذي تحقق في اكتوبر ١٩٧٣ أصوله المبدئية. ان يكتشفوا من خلال ما حقق عنصر التنسيق العربي من نصر مدى ما تتضمنه الوحدة من انتصار، ومدى مسؤولية التجزئة عن مرحلة الهزائم...

بكل منطق كان يجب ان نوالي انتصاراتنا العربية التكتيكية، لتحقيق النصر على المستوى الاستراتيجي، لنصوغ الحياة على الارض العربية طبقا لنظريتنا القومية، ونقنع الصهاينة بها ليبحث كل منهم عن ارضه التي جاء منها.

ضد كل هذا .

ضد معطياته العينية، المادية والبشرية والفكرية، حدث ما لم يحدث في تاريخ الشعوب كلها بقدر ما اعرف من تاريخ الشعوب. في ذات اللحظة التي انتصرنا فيها في معركة تكتيكية استسلمنا أو نحن على وشك الاستسلام ، لا أقول على المستوى الاستراتيجي، بل أقول على المستوى المبدئي. كانت أمامنا خيارات عدة تقع جميعها على مستوى المعركة التي انتصرنا فيها. كان ممكنا ان نواصل المعارك. كان في امكاننا أن نتوقف مرحليا. كان في مقدورنا حتى ان نتخلى عن المكاسب التي حققناها، وهو أقصى ، وأقسى، ما يمكن ان يختاره المقاتلون على المستوى التكتيكي. وكان يمكن أن يكون لكل هذا مبررات، من الظروف الدولية، او من الظروف العربية، او من الظروف المحلية، سواء كانت ظروفا سياسية او اقتصادية او حتى ذاتية، وسواء كانت ظروفا

صحيحة او غير صحيحة... وكنا سنختلف في هذه المبررات ، ولكن خلافاتنا ما كان لها ان تتجاوز مستواها التكتيكي، اي ان اقصى ما كنا سنختلف فيه هو: كيف نواصل الصراع حتى نهزم الصهيونية على جميع مستوياتها...

ولكن شيئا من هذا لم يحدث...

الذي حدث اننا، بطريقة غريبة على التاريخ، غريبة على الشعوب، غريبة على تاريخ الشعب العربي بالذات، ا نتقلنا- نحن الذين انتقلنا- من نصر تكتيكي الى استسلام مبدئي، موفرين على عدونا عناء الصراع على المستوى الاستراتيجي .

ذلك لاننا سلمنا ببساطة بأن من حق اليهود ان يقرروا مصيرهم، أي انهم أمة. وان من حق هذه الأمة أن تكون لها دولة قومية وان تقوم تلك الدولة القومية، الصهيونية، على جزء من الارض العربية، وان يكون هذا الجزء هو بالذات ما اشارت اليه ا لتوراة التي يقرأها الصهاينة. لم يحدث أبدا ان ارغمنا الصهاينة على تبني نظريتهم هذه. لأنه لم يحدث ابدا ان هزمونا على المستوى الاستراتيجي، ولم يحدث أبدا ان حققوا من الانتصارات ما يحسم الصراع بالنسبة اليهم على المستوى التكتيكي، وقد كان اخر لقاء بيننا هزيمة لهم.. لهذا قلنا ونقول : اننا لم نهزم.. بل نستسلم أو نوشك أن نستسلم...

السنا مشغولين بوجود الشعب الفلسطيني ودولته، السنا فرحين بأن اعترف عدونا، أو بعض اعدائنا بان هناك شعبا فلسطينيا، وان من حقه أن يكون له موطنا Home Land وليس حتى وطنا؟ ألسنا نتحاور ونتشاور ونجادل ونختلف حول صيغة وجود الدولة الفلسطينية، هل تقوم مستقلة أم في اتحاد فيدرالي أو كونفدرالي مع الاردن أو سورية. ألسنا نركض في انحاء الارض جميعا، فخورين بكرمنا وسماحتنا وسعة أفقنا نعرض السلام مع الصهاينة وندفع ثمنه مقدما قبول الوجود الصهيوني على أرض فلسطين؟.. ألسنا نسعى الى حد المذلة، علنا وخفية، دبلوماسيا وعلى مقاهي اوربا، ملتمسين من الصهاينة ان يقبلوا جوارنا مؤكدين صدق نوايانا في قبول جوارهم ، على الارض العربية.... أليس على الارض العربية في جنوب لبنان، جيش مقاتل " صهيوني- عربي " موحد الاسلحة والامدادات والتخطيط وقد يكون موحد القيادة ؟... أيها الشباب، ألا نسمي الان، وطننا العربي، منطقة الشرق الاوسط ...

فما الذي بقي؟..

يقولون: " انها خاتمة جولة وستأتي بعدها جولات " .. غدا تسترد دولة الضفة والقطاع ما بقي من اسرائيل؟.. غدا نقوى فنستأنف الصراع ؟.. غدا.. يأتي جيل يلغي كل ما فعلناه والتاريخ طويل.؟. لا يصدق من هذا القول الا القول الاخير. نعم، غدا يأتي جيل عربي يلغي كل ما فعلوه، ولماذا غدا، انه قائم قادر لن يولد غدا، بل سيضرب غدا وان غدا لناظره قريب . ولكن لماذا يطول تاريخ المعاناة ونحن قادرون على اختصاره؟.. ألسنا جيلا فاشلا؟ أفلا يكفيه فشله فيخون جيلا ناشئا .

أما عن الجولة التي ستأتي بعدها جولة، ودولة الضفة والقطاع التي ستحرر باقي فلسطين، فلا اقول انه عناء. اقول انه احتيال . نصب. خديعة. اننا لم نحرر الضفة او القطاع او حتى جزءا منها ونقيم عليه دولتنا. ولو تم شيء من هذا ولو في القطاع وحده، ولو في مدينة واحدة من مدن الضفة لكان نصرا عظيما، ولكنا مشغولون بقبول عرض مشروط .. مشغولون بدراسة صفة دولة فلسطين في مقابل دولة صهيونية. مع الاعتراف المتبادل والامن المتبادل ". ولن ينتهي الامر عند هذا الحد... سيستأنف الصهاينة مسيرتهم العدوانية الى ان تتحقق لهم دولتهم بحدودها التي لا ينكرونها.. فقط بالاسلوب الجديد.. اسلوب الاستسلام العربي . ان كان أحد يشك في هذا فقد جاء كارتر يعلنه، فتح الحدود، التبادل الثقافي والتجاري والسياحي والدبلوماسي.. لينتشر الصهاينة في داخل دولتهم المقبلة. حينئذ سيعرفون كيف تكون لهم وبأي اسلوب.

هل في هذا شك؟.. هل يشك أحد في اننا نوشك ان نستسلم ؟. اني لا أشك. وبالله عليكم . لا يقولن احد، انك تتحدث عن موقف حاكم عربي واحد، وتعمم ما تقول لا يقولن أحد هذا. فقد خدعنا انفسنا اكثر مما يجب. ان الحاكم العربي الذي يعلن ما ارفضه، هو فقط، اشجع الذين يقولونه واكثرهم صدقا مع نفسه، واني لاعلم من أمر الاخرين، كثير من الاخرين، بما فيهم فئات تتحدث بمثل ما اتحدث به وان كان اكثر حدة وصخبا، ما يسمح لي بالقول أن الفارق الوحيد ان هناك ا ستسلاماً صريحاً وهناك ا ستسلاما خفيا، لا اكثر...

وبعد،

فلماذا استسلم العرب أو يوشكون على الاستسلام؟.. هل هي خيانة؟ لا اعتقد. لا املك دليلاً على خيانة احد. ولا اقبل ان اتهم عربيا بالخيانة بغير دليل . ولكني اعتقد ان الصهيونية وحلفاءها، بعد أن انهزموا عسكريا في جبهة القتال في اكتوبر ١٩٧٣، فتحوا من جباهنا ثغرات،

وغزوا عقولنا . اختصروا الطريق الى النصر النهائي، فبدلا من احتلال أرضنا جزءا بدأوا في احتلال رؤوسنا فكرة فكرة. بدلا من الاستيلاء على الوطن يحاولون الاستيلاء على البشر ليكون الوطن لهم بعد ذلك بدون حاجة الى القهر..

جردونا من نظريتنا العربية ودسوا في رؤوسنا نظريتهم الصهيونية..

رفعوا من فكرنا القومية العربية ووضعوا بدلا منها القومية اليهودية، ولما انمحت من ذاكرتنا دولة الوحدة قامت بدلا منها دولة اسرائيل . وكان لهم منذ البداية حلفاء جاهزون . اولئك هم الا قليميون الذين ا نكروا أمتهم ، فتنكروا لقوميتهم، فمنحوا ولاءهم للتجزئة فيما بينهم . والتجزئة لا تمس بل تتدعم اذا ما اعطيت الصهيونية جزءا مغتصبا من الوطن العربي مقابل ان تسكت عن اغتصاب الاقليميين باقي اجزائه..

ولما انكر الاقليميون أمتهم، وفقدوا قوميتهم، تجردوا من نظريتهم، فلم يستطيعوا، وما استطاع الاقليميون قط، ولن يستطيعوا قط ، أن تكون لهم استراتيجية موحدة في مواجهة الصهيونية. ما كان ولن يكون للأقليميين أداة نضال عربية واحدة . ما كان ولن يكون للاقليميين خطة مواجهة واحدة . لم يلتق الاقليميون ولن يلتقوا قط على تحرير فلسطين... وليس هذا قولا جديدا .

في شباط (فبراير) ١٩٦٨، كتبت ونشرت تحت عنوان " وحدة القوى العربية التقدمية" حديثا طويلأ عن المستقبل، قلت فيه مخاطبا المقاومة الفلسطينية، وكانت في ذلك الوقت تحمل ما تبقى من أمل لهذه الامة، قلت: احذروا، غدا أو بعد غد ستخذلكم الاقليمية من حولكم والاقليمية من داخلكم. وفي نيسان (ابريل) ١٩٧٠ ، في عمان ، في ندوة مشتركة بقاعة نقابة المحامين، اشترك فيها ممثلون عن اغلب فصائل المقاومة، قلت ان اسرائيل قامت ونمت وتوسعت في ظل حماية الدول الاقليمية. فمن حقي أن اقول الان : ان الشعب العربي يوشك ان يستسلم بفعل وفي رعاية القوى الاقليمية دولا واحزابا وجماعات وا فرادا...

ما العمل؟..

لا تسألوني فقد لا اعرفه، ولوكنت اعرفه فقد اعترفت من قبل انني غير قادر على الوفاء بمسؤولياته، فآثرت الصمت- مهزوما وليس مستسلما- الى أن دعيت الى الحديث اليكم . ها أنذا قد تحدثت اليكم . لا يناسبه عنوان " الصهيونية والفكر العربي " ، بل أولى به عنوان يقول :

"الصهيونية في الفكر العربي " ، أو "الصهيونية في العقل العربي " . أو- وهذا ما كنت اريده... "العرب الصهاينة " ..

واخيرا،

فاني اعتذر عما اشرت اليه اكثر من مرة من اراء سبق أن قلتها كأني ابحث لنفسي عن براءة كاذبة. وعذري في هذا انني احاول أن استرد ثقتي المفقودة بالمستقبل . احاول أن أقول لنفسي اذا كانت رؤيتنا قد صحت من قبل فان الانسحاب صمتا أو اعتزالا هو انهزام لا ينبغي لقومي ان يقع فيه بينما يوشك الاقليميون ان يجروا الامة كلها الى مواقع الاستسلام، واننا لعلى قدر من المقدرة في مواجهة معارك العقول ... ثم انني أخاطب الجيل العربي الجديد... وهو قمين بان يذكرني بما كنت اذكره في مثل سنه.. قولا تعلمته من شاب عربي بدأ نضاله على ضفاف النيل ضد امبراطورية لم يكن يجرؤ احد على تحديها، وانشأ حزبه الوطني الذي تحول الى مدرسة... في تلك المدرسة تعلمنا ذلك الدرس الذي كدنا ننساه وها نحن نلتقطه مرة أخرى من عيون الشباب العربي :

"لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس "

وهكذا ترون انني اتحدث اليكم ولكني اخاطب نفسي واني لاولى بحديث اليقظة منكم، لانني في حاجة اليه اكثر .

محاضرة القيت في جامعة الكويت يوم ٦ ابريل ١٩٧٧.